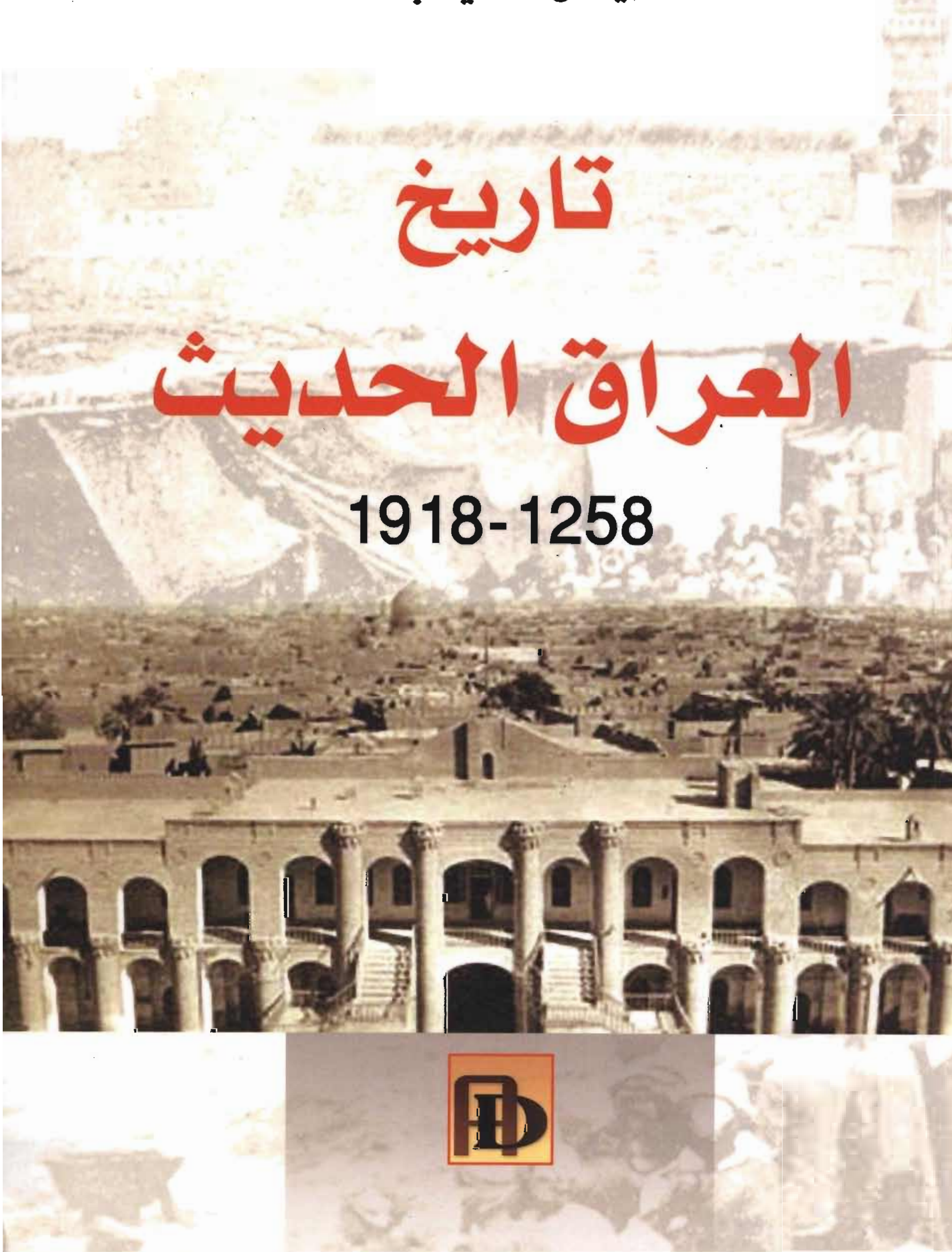
د. إيناس سعدي عبد اللّٰه

تاريخ العراق الحديث

1258 - 1918





الفصل الثاني

العراق من الاحتلال الجلائري الى الاحتلال الصفوي

(1514-1337)

ـ انهيار الامبراطورية الايلخانية وقيام الدولة الجلائرية.

كانت جلاير احدى القبائل الكبيرة التي تسكن شرق منغوليا عند نهر اونن، وتتكون من شعوب عديدة يرأس كل منها زعيم، وقد اختلف المؤرخون حول اصل هذه القبائل فاعتبرهم البعض من الاقوام التركية. في حين اعتقد اخرون انهم من القبائل المغولية. والحقيقة ان المعلومات المتوفرة عن اصل القبائل التركية والمغولية ما زالت غامضة بسبب عدم وجود نصوص تاريخية يمكن الوثوق بها، كما ان هذه القبائل اختلطت مع بعضها وتشابكت. والمرجح ان غزو الترك لأسيا الوسطى ادى الى حدوث انقلابات عرقية مختلفة كان اهمها رجحان كفة العناصر التركية على غيرها في اجزاء بلاد ما وراء النهر. وقد قدم الاتراك لهذا الاقليم بوصفهم اصدقاء وحلفاء لمغول السهوب الشرقية عند تيان شان وجبال التاي، وسرعان ما استقروا على ضفاف جيحون، وكان الترك يشبهونهم من حيث حبهم للسلب والنهب والقتل. ويمكن اعتبار الجلائريين من الاقوام التركية التي تسمت بالمغولية في وقت متأخر.

استخدم المغول الجلائريين في عهد قايدو خان الجد السادس لجنكيز خان واحفاده عبيدا لهم، وتشير الروايات التاريخية الى ان قسم منهم كانوا يسكنون حول نهر كارولان بالقرب من دولة الخطا(الخطاي) فقامت بينهم وبين الاخيرين حروب انتهت بهزيمة ساحقة للجلائريين، ولم تنج منهم سوى سبعين اسرة من عشيرة جابولغان فنزحوا بالقرب من القبائل المغولية التي يقودها جنكيز خان، واتصلت هذه العشيرة الجلائرية بقبيلة جنكيز خان، ونشأت بينهم روابط مودة وقرابة. ولما وحد جنكيز خان القبائل المغولية والتركية تحت قيادته كانت القبائل الجلائرية من ضمنها، واستطاع بعض افرادها الحصول على

مناصب هامة لديه، ومن هؤلاء موقلي كويانك زعيم قبيلة جايت الذي كان يقود الجناح الايسر من جيشه، ولقب هو واولاده كويانك أي الخان الكبير بلغة الخطاي. وعندما قام جنكيز خان بتوزيع الجيش الذي شكله من مختلف القبائل بين امراء التومان شمل الجلائريين هذا التقسيم وتوزعوا بين الصين ومنغوليا وتركستان وما وراء النهر والقبجان وبقي قسم منهم مع الايلخانيين حيث جاءوا الى ايران والعراق.

اثبت الامراء الجلائريون كفاءة عسكرية وادارية جعلت بعضهم يحتلون مراكز هامة في الجيش المغولي، ومن هؤلاء ايلكانويان الجد الاعلى للجلائريين الذين حكموا العراق، وقد اصبح اميرا للجيش في عهد هولاكو، وشاركه في احتلال بغداد واختاره الاخير مع ثلاثة الاف فارس ليعملوا على توطيد السلطة المحتلة والتنكيل بمن يتصدى لها، وخلف ايلكانويان عشرة اولاد تاسعهم اقبقا الذي التحق بالايلخان اباقا، وفي عهد احمد تكودار ارسله الى بلاد الروم(الاناضول) لإخماد اضطرابات نشبت هناك، فنجح في اخمادها عام 1275، ثم شغل منصب امير الامراء في عهد كيخاتو(1291-1295)، وتزوج ابنه حسين من اولجتاي ابنة ارغون، ودخل في خدمة اولجايتو، وتلقب كوركان(أي الصهر)، وفي عام 1306 ذهب الامير حسين في حرب كيلان، فانتصر وعينه اولجايتو حاكما على اران. وبعد وفاة اولجايتو هاجم احد الامراء المغول ويدعى يسور خراسان، فارسل السلطان ابو سعيد جيشا بقيادة الامير حسين، الذي تمكن بمساعدة حاكم سيستان من هزيمة يسور، واستعادة خراسان، فعينه السلطان اميرا على خراسان. وقد شغل ابنه الشيخ حسن مكانة مرموقة في عهد هذا السلطان، باعتباره حفيدا لارغون من جهة امه التي كانت عمة السلطان. وفي عام 1332 عينه السلطان ابو سعيد حاكما على بلاد الروم وبقي في منصبه حتى وفاة السلطان عام 1335.

بعد وفاة السلطان استبد الامراء بالحكم واخذ كل منهم يسعى الى العرش متخفيا وراء بعض الاسماء، فضلا عن اعلان الكثير من الامراء الاستقلال عن الدولة الايلخانية في اماراتهم. ولكن الوزير غياث الدين محمد جمع الامراء والخواتين فوقع الاختيار على

ارباخان ونصب خانا، وقيل ان السلطان ابي سعيد قد اوصى قبل وفاته بان يخلفه الامير اربا خان لأنه لم يبق من نسل هولاكو من هو جدير بالسلطنة. ولما كان بعض افراد الاسرة وعدد من امراء المغول غير راضين عن هذا الاختيار انظم بعضهم الى الامير علي بادشاه، خال السلطان ابي سعيد وحاكم العراق العربي وديار بكر، الذي جمع اتباعه الاويرات[1] واعلن معارضته لارباخان، فاستبد بالسلطة ورفض ان يتشاور مع الامراء الباقين ونصب موسى بن علي بن بايدو بن طرغاي بن هولاكو سلطانا، واستعد الطرفان للحرب التي وقعت بينهما والتي انتهت باندحار ارباخان ووزيره غياث الدين وقتلهما. وصفا الجو لعلي بادشاه وفوض امر الوزارة الى نجم الدين محمود بن تاج الدين علي الشيرواني، وسلط اتباعه الاويرات على شؤون الحكم وصادر الاموال، فنفر منه الامراء وتوجهوا الى حاكم الروم الشيخ حسن الملقب بالكبير(بزرك)، وكان على رأس هؤلاء الامير طغاي بن سوتاي حاكم ديار بكر(1331-1342)، الذي كان يضمر العداء لعلي بادشاه ومعه اولاده واخوته مع الحاج طوغانك(طوغا بك) وحثوا الامير على الحرب واقنعوه بأحقيته بالزعامة.

اعلن الشيخ حسن بزرك معارضته لايلخانية موسى ونصب محمد خان بن يولقتلغ وهو من احفاد هولاكو سلطانا وتوجه الى اذربيجان بجيوش جرارة، ثم انظم اليه الامير سيورغان بن جوبان حاكم كرجستان والتقى مع جيش موسى خان وعلي بادشاه في عام 1335م في نواحي الاطاق، فأسفرت المعركة عن قتل علي بادشاه وهرب موسى خان، واستيلاء حسن بزرك على الحكم في تبريز، وبذلك اصبح الشيخ حسن مسيطرا على شمال غربي ايران، واسند الشيخ حسن الوزارة الى شمس الدين زكريا بن حسن الدامغاني. ولكن الامور لم تهدأ، اذ ان بعض الامراء غضبوا من الشيخ حسن وسيطرته على مقاليد السلطنة، فتوجهوا الى خراسان والتحقوا بأميرها طغا تيمور وكان حاكما على مازندران، والذي التف حوله الامراء واقنعوه بأحقيته بالسلطنة وتوجهوا به الى مدينة السلطانية، وانظم اليهم الخان الهارب موسى، لكن الشيخ حسن تمكن من الانتصار عليهم عام 1336 وقتل موسى خان

1- الاويرات: من القبائل التركية التي تسمت بالمغولية في وقت متأخر.

وهرب طغا تيمور عائدا الى خراسان، وبذلك صار الشيخ حسن وصنيعته اقوى الممثلين للحكم الايلخاني وقام بتعيين الامراء حكاما على الاقاليم وارسل الامير قره حسن حاكما على بغداد. لكن الامور لم تجر كما كان يريد الشيخ حسن، اذ ظهر له منافس اخر ذلك هو الشيخ حسن بن تيمور تاش بن جوبان الذي لقب بحسن كوجك(الصغير) تميزا له عن الشيخ حسن الكبير. وكان جوبان جد حسن كوجك اميرا للأمراء ووصيا على السلطان ابي سعيد عندما كان صغيرا وقد قتله السلطان ابي سعيد عام 1326، وهرب ابنه تيمور تاش الى مصر حيث اغتاله السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حتى لا يفسد علاقته مع الدولة الايلخانية، ولكن حسن كوجك ثار من بلاد الروم وادعى ان اباه لم يقتل، ولكنه هرب من سجون القاهرة وقدم الى العراق واذربيجان، وجلب مملوكا تركيا شديد الشبه بابيه وادعى ان هذا هو ابوه، فالتف حوله اتباع ابيه، وعدد من امراء الشيخ حسن بزرك، فضلا عن انصار علي بادشاه الذين وجدوا من حسن كوجك خير منافس للشيخ حسن بزرك. وفي عام 1337 وقعت معركة بين الحسنين في الاطاق هرب منها حسن بزرك الى تبريز، ناجيا بنفسه وترك سلطانه محمد خان يلاقي مصرعه، بينما هرب حسن كوجك جريحا اثر محاولة قام بها والده المزعوم تيمور تاش لاغتياله والانفراد بالسلطة. وسار تيمور تاش الى تبريز ليستولي عليها ولكن حسن الكبير واتباعه تمكنوا من الحاق الهزيمة به فهرب الى بغداد. اما حسن الصغير واتباعه الجوبانيون فقد التفوا حول الاميرة ساتي بيك اخت السلطان ابي سعيد ونصبوها سلطانة عام 1338، وتمكنت من التأثير على حسن الكبير الذي تصالح معها ومع كوجك واعترف بزعامتها على البلاد. ولكن حسن بزرك لم يكن واثقا من هذا الصلح فاستدعى خصمه السابق طغا تيمور حاكم خراسان عارضا عليه العرش فتوجه هذا مسرعا الى السلطانية، ولكن حسن كوجك شعر بما يدبره حسن بزرك فاسرع الى مفاوضة طغا تيمور واعدا اياه بتزويجه من ساتي بيك ومن دلشاد خاتون بعد القضاء على زوجها الشيخ حسن بزرك، فوافق على هذه الشروط ووقع وثيقة بذلك وارسلها الى حسن كوجك الذي ارسلها بدوره الى بزرك، وسرعان ما ندم طغا تيمور بعد ان وقع في الفخ وانسحب في نفس الليلة

الى خراسان، وفقد بزرك ثقته بكوجك ورأى ان وجوده معه افقده حقه في الزعامة فتوجه مسرعا الى بغداد، واجلس عز الدين جيهان تيمور بن الفرنك بن كيخاتو على عرش السلطنة، واسند الوزارة الى وزيره السابق الخواجة شمس الدين زكريا، واصبح تحت سلطته العراق العربي والاحواز وديار بكر، وفي عام 1339 خلع جيهان تيمور واعلن استقلاله في البلاد.

لقد اصبحت بغداد طوال عهد الشيخ حسن عاصمة للدولة الجلائرية، ولم يلبث خصمه حسن كوجك ان قتل عام 1343، وبذلك تخلص حسن بزرك من خصم قوي، وعنيد. غير ان حسن بزرك واجه عدو جديد متمثلا بالملك الأشرف اخو حسن كوجك الذي تولى حكم اذربيجان بعد مقتل اخيه وسمى نفسه الو شيروان. وقد تقدم وحاصر حسن بزرك في بغداد، ولكن الاخير صمد فاضطر الو شيروان الى الانسحاب عام 1347. وقد شهد العراق في عهد حسن بزرك، ولاسيما بعد انهيار دولة الايلخانيين في اذربيجان وخراسان عام 1353، وتوقف التهديد الذي كانت تشكله على العراق، حقبة هدوء واستقرار انصرف خلاله الشيخ حسن لتنظيم الادارة وتوطيد السلطة الجلائرية في العراق، واستثمار ما يمكن استثماره من موارد العراق الاقتصادية لصالح تلك السلطة حتى وفاته عام 1356.

ـ الدولة الجلائرية من عهد السلطان اويس(1356ـ1374) الى الغزو التيموري

بعد وفاة حسن الجلائري بايع الامراء ابنه الشيخ اويس الذي عينه ابوه ليتولى حكومة بغداد، وفي عام 1358 احتل اويس مدينة تبريز واتخذها عاصمة له، وضم جميع الولايات التابعة لها حتى بحر الخزر الى نفوذه وصار العراق ولاية جلائرية. ومع ذلك لم تهدأ الاوضاع داخل الدولة الجلائرية، واضطر السلطان اويس ان يقضي سنوات حكمه في صراعه مع حكام الاقاليم المجاورة، وفي قمع حركات التمرد، التي اندلعت عام 1360،

ومن حركات التمرد تلك ما قام به حاكم بغداد خواجة مرجان، وهو امين الدين مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن الاولجايتي نسبة الى السلطان اولجايتو وقد كان رومي الاصل، وهو مولى السلطان اويس، الذي عين الخواجة مرجان نائبا عنه في بغداد، واثناء حروب السلطان اويس في تبريز، تمرد مرجان بتحريض من امراء بغداد له، واعلن عصيانه بقصد الاستقلال بحكومة بغداد فقفل السلطان اويس راجعا وحاصر بغداد وقبض عليه وهم بقتله فشفع عنده اهل بغداد فعفا عنه. وقد تمرد خواجة مرجان على السلطان اويس مرة اخرى عام1364 ، وخطب ببغداد للسلطان زين الدين شعبان سلطان مصر وبعث برسالة الى مصر ومعهم كتابه بانه خلع اويس واقام الخطبة وضرب السكة باسم سلطان مصر فاكرم سلطان مصر وفادة رسل خواجة وكتب له تقليدا بنيابة بغداد. فلما علم أويس بذلك توجه إليه فهدم مهرجان الجسور فغرقت معظم بغداد وتمكن السلطان من هزيمته والقبض عليه ثم افرج عنه بعد سمل عينه، وعبر السلطان نهر دجلة ونزل في قصر والده، ومكث هناك احد عشر شهرا واحتل الموصل، ثم فوض السلطان اويس ولاية بغداد إلى سلطان شاه خازن والد بيرام شاه.

توفي السلطان اويس عام 1374، فخلفه ابنه حسين، بعد ان قام الامراء بقتل اخيه الاكبر منه المدعو حسن، وقد اختلفت المصادر في سبب ذلك ما بين رغبة الامراء في وضع حسين محله لكونه ضعيفا يسهل السيطرة عليه، أو ولكون اباه اويس قد عهد الى حسين بالسلطنة بينما اوصى لأخيه الاكبر حسن بحكومة بغداد، وقد خشي الامراء ان يكون هذا التفضيل سببا في النزاع على العرش فالقوا القبض على اكبر الاخوة وهو حسن وقتلوه. وفي عهده تسلط الامراء على شؤون الحكم وكثرت الفتن والاضطرابات، وكان مقره في تبريز، اما ولاية العراق العربي فكانت تحكم نيابة عنه من قبل اخيه الشاهزاده الشيخ علي في بغداد، واحمد في البصرة. ثم جرى بين الاخوة صراع على السلطة استمر حتى عام 1382، انتهى بمقتل السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم. ولكنه اساء معاملة الامراء فلجأ قسم منهم الى بغداد ونصبوا اخاه الشاهزاده الشيخ علي سلطانا وتوجهوا به الى تبريز. وهرب اخوه الاخر بايزيد الى مدينة السلطانية ملتحقا بالأمير عادل اغا حاكم السلطانية، الذي اقامه

سلطانا هناك. وانقسم امراء الجيش والتف كل جماعة منهم حول احد السلاطين الثلاثة، وسرعان ما قامت الحرب بينهم انتهت بانتصار السلطان احمد ومقتل الشاهزاده الشيخ علي عام 1383. ثم جرت مفاوضات بينه وبين عادل اغا فتم التوصل الى صلح صارت بموجبه اذربيجان للسلطان احمد واقليم الجبال لبايزيد، اما العراق العربي فأصبحت ادارته مشتركة بين السلطان احمد وعادل اغا. ولكن الاخير طمع بحكومة العراق بتحريض من امراء بغداد فارسل ابن خاله الامير تورسن حاكما عليها. فسار السلطان احمد الى بغداد واحتلها وقتل تورسن وعين عليها حاكما من قبله وعاد الى تبريز، لكن الامر لم يستقر له اذ سرعان ما لاح الخطر القادم من الشرق المتمثل بالحملة المغولية الثانية بقيادة تيمور لنك.

ـ الحملة المغولية الثانية بقيادة تيمورلنك.

ينتسب تيمور إلى احدى القبائل المغولية ، وقد نشأ نشأة اسلامية في مدينة كش في ما وراء النهر (جيحون)، وقد مكنته شجاعته العسكرية من ضم القبائل المغولية تحت لوائه، والتخلص من الامراء المنافسين على السلطة واحدا بعد الاخر، واصبح حاكما على ما وراء النهر عام 1369م، واتخذ سمرقند عاصمة له. وكان سوء الاوضاع الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر، ورغبة تيمور في السيطرة، وعدم اعترافه بوجود حاكم اخر، من العوامل المهمة في اندفاعه نحو الغرب، لاسيما وقد اعتبر نفسه وريثا لأملاك المغول، والامبراطورية الايلخانية الواسعة التي كانت تضم خراسان وبلاد الجبل والعراق العربي واذربيجان والاحواز وفارس وديار بكر واسيا الصغرى.

اثارت الانتصارات التي احرزها تيمور في اواسط اسيا وشمال ايران والولايات الايلخانية قلق السلطان احمد في تبريز، فامر عام 1385م بوضع حامية عسكرية كبيرة في مدينة السلطانية، وانسحب إلى بغداد، لكن قوات تيمور داهمت السلطانية، بعد فترة قصيرة،

واستولت عليها، ويبدو أن السلطان اراد تقوية مركزه في تبريز وابقاء سيطرته عليها، فسار إليها في السنة التالية على راس جيش كبير من بغداد، غير أن قوات تيمور هاجمت المدينة فاضطر السلطان إلى التراجع عنها، ودخلها تيمور دون مقاومة. وبعد أن اخضع تيمور اذربيجان وجورجيا وارمينيا، كان متوقعا أن يضع العراق ضمن مخططاته التوسعية، لكونه مفتاحا إلى بلاد الشام والحجاز ومصر، ولأجل تامين طرق التجارة القادمة من الخليج العربي إلى بغداد وتبريز وسمرقند.

وكانت الاوضاع السائدة في العراق لا تساعد على المقاومة، فقد اتسمت سياسة السلطان احمد بضيق الافق، وعدم تقييمه لقوة تيمور، فلم يتخذ اجراءات عسكرية لدفع خطره، أو اقامة جبهة داخلية قوية تدعمه، بل اجهد نفسه في القضاء على خصومه السياسيين، ففقد خيره ضباط جيشه، إذ قتل عددا كبيرا من قادة الجيش واعيان رجال الدولة، من ذوي الكفاءة والدراية والراي في تدبير الامور، وجمع حوله عددا من الاشخاص ممن عرفوا بالجهل والحماقة والخمول، ووضعهم في المناصب العليا. وقد ادى تقصيرهم وسوء تصرفهم إلى ايجاد فتور كبير في اعمال الدولة، فقامت المعارضة والفتن في كل مكان، وتتفق مصادر تيمور الرسمية مع المصادر المصرية على أن سكان بغداد كرهوا السلطان احمد وسياسته التعسفية، فكاتب بعض اعيانها تيمور يحرضونه على سلطانهم، ويستحثونه القدوم واحتلال بغداد، حتى أن بعض موظفي البريد وكشافة الطرق الذين ارسلهم السلطان احمد لرصد تحركات تيمور، لجأوا إلى تيمور ودخلوا في طاعته قبل وصوله إلى بغداد. أمّا على الصعيد الخارجي فان السلطان احمد لم يتعاون مع الدول المجاورة للوقوف بوجه تيمور، واهمل العرض الذي تقدم به حاكم مازندران لإقامة حلف معه ضد تيمور بالتعاون مع الدولة المظفرية[1] في فارس، وكانت علاقته بهذه الدولة ذات طابع عدائي، كما اهمل العرض الذي تقدم به تقتمش، خان القبيلة الذهبية الحاكمة في جهات الفولغا، الذي اقلقه اقتراب جيش تيمور من حدود بلاده، ولما شعر تقتمش بضعف السلطان احمد، ارسل في

1- الدولة المظفرية: امارة في ايران نشأت في عام 1314 وانتهى حكمها عام1393.

عام 1385، خمسين الف فارس للمرابطة عند مدينة دربند (باب الابواب) على بحر الخزر، تحسبا للطوارئ. وفي الوقت ارسل إلى بغداد وفدا برئاسة قاضي مدينة سراي عاصمة القبيلة الذهبية، عارضا على السلطان احمد اقامة تعاون ضد عدوهما المشترك، إلاَّ أن السلطان لم يغتنم هذه الفرصة، بل اساء معاملة احد اعضاء الوفد، مما ادى إلى تردي العلاقة مع تقتمش. لم يدرك السلطان احمد خطر تيمور إلاَّ بعد فوات الاوان، وبعد أن فقد العاصمة تبريز، فاخذ يفتش عن حليف يساعده على الوقوف بوجه هذا الخطر، وقد باءت المحاولات التي بذلها للتحالف مع العثمانيين بالفشل، كما انه لم يحصل على مساعدة المماليك الشراكسة في مصر والشام، بسبب اضطراب مملكتهم وسوء اوضاعها الداخلية.

1. الحملة الأولى (1393):

زحف تيمور على راس جيش يبلغ تعداده حوالي مئة الف مقاتل من جهات ما وراء النهر نحو الغرب، وبعد أن اخضعت هذه القوات فارس وخورستان وبلاد الجبل، وبعد ان احكمت سيطرتها على ايران، تجمعت في همدان تمهيدا للزحف على بغداد. وقد بعث تيمور رسالة إلى السلطان احمد، ومعه الخلعة والسكة، وامره بإعلان خضوعه، وان يذكر اسمه على النقود وفي الخطبة، والاسراع بالمثول بين يديه لتقديم فروض الطاعة، لكن السلطان رفض ذلك، واجاب برسالة تهكمية، اعلن فيها استخفافه بتيمور، واستغرابه من اعجابه الشديد بنفسه.

شرعت قوات تيمور بسلسلة من الحملات على شمال العراق بقصد اخضاع القبائل الكردية والتركمانية المتحالفة مع السلطان احمد، والاستحواذ على المواد الغذائية المتوفرة في المنطقة، وضبط الطرق الموصلة إلى بغداد، وبعد أن احكمت هذه القوات سيطرتها على الطريق الممتد بين همدان وجمجمال، واخضعت القبائل الكردية والتركمانية المنتشرة على طوله وجد السلطان احمد نفسه عاجزا عن مقاومة الجيش الزاحف، فاراد تدارك الامر بإعلان خضوعه وارسل اليه وفدا برئاسة الشيخ نور الدين عبد الرحمن، وكان من أكابر

مشايخ بغداد، وحمله رسالة إلى تيمور، معلنا فيها خضوعه اليه، ومعتذرا عن الحضور بنفسه والمثول امامه، وابدى ترحيبه به إذا اراد القدوم إلى بغداد وارسل معه جملة من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من بينها الخيول العربية ذات السروج المذهبة. وقد قابل الوفد تيمور في قرية اق بولاق، قرب شهرزور بين همدان واربيل، فاستقبله تيمور بحفاوة واجلال عظيمين، لكنه رفض استلام الهدايا لان السلطان لم يحضر بنفسه لتقديم فروض الطاعة وبعد أن انعم على الشيخ خلعة وحصانا ثمينا مع كمية من النقود، اعاده إلى بغداد، واعدا اياه بعدم التعرض لها.

لقد اراد تيمور التمويه على السلطان احمد، فبعد أن عاد الشيخ عبد الرحمن مطمئنا، امر قواته بالزحف على بغداد، فتقدمت هذه القوات عبر ممرات جبلية ضيقة، ووصلت بعد خمسة ايام إلى مزار الشيخ ابراهيم يحيى المشهور بقبته ابراهيم الك، قرب الخالص، ولما شاهد اتباع السلطان احمد غبار الجيش طيروا حمامة مع رسالة يخبرون فيها السلطان بوصول جيش تيمور، وحين وصل تيمور وعلم بالأمر امرهم في الحال أن يرسلوا رسالة اخرى، يذكرون فيها أن الغبار الذي شاهدوه لم يكن من اثر جيوش تيمور بل غبار التركمان الذين هربوا منه، ثم امر قوته بالسير بأقصى سرعة. وقد تقدمت قوات تيمور لاحتلال بغداد، تولى قيادة المقدمة الامير عثمان عباس، وتولى تيمور نفسه قيادة القلب، وقاد الميمنة حفيده محمد سلطان، والميسرة ابنه ميران شاه، أمّا عثمان بهادر فقد قاد المؤخرة، فوصلت هذه القوات بغداد في اب 1393، ونزلت في الجانب الشرقي(الرصافة). أمّا السلطان احمد فحين علم بقدوم تيمور نقل امواله وحريمه واسلحته وارسلهم امامه إلى الحلة، ثم قطع الجسر ونقل السفن إلى الجانب الغربي(الكرخ) واغرق بعضها واحرق البعض الاخر، لكي لا يستفيد منها العدو، وانسحب من بغداد مع عدد من اتباعه، وبعد خروج السلطان احمد قام بعض اعيان المدينة بفتح الابواب واستقبلوا تيمور، وكان على راس المستقبلين الشيخ نظام الدين الشامي الذي دون فتوحات تيمور فيما بعد. وقد عبر بعض اتباع تيمور نهر دجلة سباحة لجلب السفن الراسية في الجانب الغربي من بغداد، والتي لم يتمكن السلطان احمد

من اتلافها، فاستولوا على سفينة السلطان الخاصة المسماة الشمس، وهي ذات ثلاثين مجدافا، مع اربع سفن اخرى، فاستخدم تيمور هذه السفن في العبور إلى الجانب الغربي، والسيطرة على بغداد. من الصعوبة تحديد حجم الخسارة التي تعرضت لها المدينة من جراء دخول جند تيمور، إذ قدر عدد السكان الذين قتلوا بثلاثة الاف شخص، غير أن مصادر تيمور الرسمية لا تشير إلى وقوع خسائر في الارواح لان المدينة استسلمت صلحا، وتذكر هذه المصادر أن تيمور اكتفى بأخذ (مال الامان)، وهي الضريبة التي اعتاد اخذها من سكان المدن التي تفتح صلحا، مقابل الحفاظ على ارواحهم. وقد اناط مهمة جمعها بأحد امراء السلطان احمد الذين تعاونوا معه والمدعو شرف الدين البليقي مع عدد من اعوانه. كما امر تيمور بأن يجبى مال الامان من السكان كل حسب مقدرته المالية، لكن الذين تولوا جمع الضريبة طالبوا الناس بأموال كثيرة، وحملوهم فوق طاقتهم، وتذكر المصادر التاريخية أن تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات، وجمع في كل مرة 1500 تومان[1]. وقد رافق عملية الجمع ابشع انواع التعذيب وأقساها، وقد مات من اثر التعذيب والعقوبة عدد كبير من الناس والتجار واعيان بغداد وامرائها، وقدرتهم المصادر بين 700-800 نفس، كما استولى اتباع تيمور على خزائن السلطان احمد، وصادروا اموال الرؤساء والاعيان والامراء الذين هربوا معه، كما نهبوا كل ثمين يقع تحت ابصارهم من تحف ومجوهرات، أمّا الخسارة في الجوانب الحضارية فقد كانت كبيرة جدا، فرغم الكارثة التي حلت بالحضارة العربية بعد سقوط بغداد على ايدي المغول، ظلت بغداد مركزا للعلم والصناعة والفن، إلاّ إن تيمور امر بجمع الموهوبين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون المختلفة، ونقلهم إلى عاصمته سمرقند. واتخذ تيمور اجراءات اخرى يقصد منها اظهار نفسه بمظهر الحامي للشريعة الاسلامية، فاخذ يتقرب إلى رجال الدين في بغداد، وقام بزيادة مشاهد الامام أبي حنيفة والشيخ عبد القادر الكيلاني والامام احمد بن حنبل والامام موسى الكاظم وحفيده الامام الجواد(عليهما السلام)، واوقف لهذه المشاهد اراضي زراعية في بغداد وغيرها، وخصص

1- التومان: العملة الرسمية في ايران الى عام 1932.

الاقطاعات والرواتب للسادات والعلماء والمشايخ والمدرسين، كما امر اتباعه بجمع المشروبات الموصلية والديار بكرية الموجودة في قصر السلطان احمد، مع كافة الخمور الموجودة في المدينة، واراقتها في نهر دجلة. وقد امضى تيمور في بغداد شهرين يتنزه في قصورها الفخمة، المطلة على ضفتي نهر دجلة، وتمكنت قواته خلالها من احكام سيطرتها على مدن العراق الجنوبية، ثم عين احد اعوانه المدعو مسعود السبزواري حاكما على بغداد، وترك معه حامية عسكرية مقدارها ثلاثة الاف فارس، وسار نحو الموصل لإتمام احتلال بقية مدن العراق.

2. العمليات العسكرية لتيمورلنك بين عامي 1393 ـ 1401:

لقد رأينا كيف ان السلطان احمد هرب من بغداد الى الحلة اثناء الحملة الاولى لتيمورلنك عام 1393، وقد قرر تيمور ملاحقة السلطان فارسل ابنه ميران شاه مع قوة مغولية لتعقبه والقاء القبض عليه. وقد زحف ميران شاه باتجاه الحلة التي عبر الى جانبها الغربي احمد الجلائري وكسر الجسر واغرق السفن والقوارب الموجودة خلفه واتخذ طريق الشام عبر كربلاء. لذلك قرر ميران شاه الانتقام من الحلة واهلها فاحتلها ودمر الاستحكامات العسكرية فيها وقتل عدد كبير من سكانها ونهب اموالها. ويعود السبب في هذا الاجراء الى المقاومة المسلحة التي واجهته هناك من قبل نائب السلطان احمد. اما احمد الجلائري فلم تعثر عليه قوات تيمور الا في صحراء كربلاء ومعه الفا فارس، وقد اشتبك مع قوات تيمور واسفر ذلك عن خسائر فادحة للطرفين تمكن السلطان احمد في نهايتها من الهرب الى شفاثة ومنها الى الرحبة حيث منازل نمير بن حيار بن مهنا امير ال فضل، الذي رحب به وانزله عنده، ثم سار نحو حلب طالبا اللجوء عند السلطان المصري الظاهر برقوق، فطلبه الاخير إلى القاهرة ورحب به واكرمه.

اما تيمور فقد كان عليه مواصلة عملياته الحربية من اجل استكمال بسط سيطرته على بقية المدن العراقية. فبدأ بأرسال قواته الى واسط التي كانت تسيطر عليها قبيلة عبادة وزحفت

قواته الى المدينة مستخدمة السفن في دجلة، ولكن القبائل العربية اخذت تهاجم القوات المغولية وتمكنت من قتل عدد كبير منهم فضلا عن اغراق سفنهم. ونتيجة لضراوة مقاومة القبائل العربية وعنفها فشلت الحملة الاولى فاضطر تيمور الى ارسال حملة ثانية بقيادة احد كبار قادته وقد اشتبك هذا مع القبائل العربية التي رفضت الخضوع فقتل عدد كبير منهم، واضطر القسم الباقي الى دفع الضريبة للغزاة. وبذلك خضعت واسط لسلطة المغول وتركت فيها حامية عسكرية خوفا من ثورتها. كما ارسل تيمور قوة ثانية تهدف الى احتلال البصرة التي كانت تحت سيطرة شيخ عربي هو صالح بن جولان امير المنتفك الذي رفض الخضوع للمغول وتهيأ لمقاومة القوة القادمة، فاستنجد بعرب بني عقيل في البحرين والبصرة فتجمع لديه عدد كبير من القبائل العربية، وقد تمكن بهذه القوات التي بحوزته من دحر قوات تيمور وقتل عدد كبير من افرادها كما اسر قائدها ميران شاه. ولما وصلت اخبار الهزيمة الى تيمور طلب الى الشيخ صالح اطلاق سراح ميران شاه لكنه رفض بشدة، فجهز تيمور حملة ثانية من اجل احتلال البصرة اسفرت عن تدمير المدينة، وملاحقة وتتبع قبيلة المنتفك. كما ارسل تيمور قوة اخرى الى قبيلة خفاجة وغيرها من القبائل البدوية المنتشرة في الصحراء على الضفة الغربية لنهر الفرات وقتلوا عدد كبير من البدو ونهبوا اموالهم وخيولهم. وبعد ان انهى تيمور اخضاعه للمدن الوسطى والجنوبية توجه شمالا الى تكريت حيث كان حاكمها يخضع اسميا للسلطان المملوكي في مصر، وقد حاصر المدينة ونصب المنجنيقات والعرادات لرمي القلعة، وقد قدرت قواته بـ72000 مقاتل. وبالرغم من المقاومة العنيفة من قبل المقاتلون المدافعون عن المدينة، تمكن المغول وتحت حماية الدروع الخشبية من التقدم الى احد ابراجها. ثم تقدم الجيش التيموري نحو الاسوار واحتلالها، ثم قسموها بين الجنود لثقبها، ولما تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرة كبيرة في السور، بادر المدافعون بسدها حيث وضعوا فيها اخشابا واشعلوا فيها النيران. وبالمقابل قامت القوات المغولية بوضع كميات كبيرة من القطع الخشبية المطلية بالزفت في الحفر التي احدثتها في سور القلعة واشعلت فيها النيران فسقط على اثر ذلك جزء كبير من السور. ولكن ذلك لم يسهل

احتلال المدينة اذ تسلح المقاتلون المدافعون عن المدينة بدروع خشبية كبيرة واشتبكوا مع القوات التيمورية داخل القلعة، ولكن عدم التكافؤ في عدد الجند اجبر المقاومين على التراجع الى جبل مجاور للقلعة بعد مقتل عدد كبيرا منهم. وبعد احتلال تكريت ارسل تيمور قوة عسكرية لإخضاع القبائل العربية بين تكريت والموصل اهمها قبيلة زبيد، وال بشار من ربيعة. كما اكملت قواته اخضاع اربيل والموصل وديار بكر بعد حصار طويل ومقاومة عنيفة. أمّا في بغداد فان مسعود السبزواري لم يتمكن من ضبط الامور، بسبب ضعف الحامية التي وضعها تيمور فيها، وقد شعر اتباع السلطان احمد بذلك فتجمعوا على الفرات، واجتمع معهم أيضاً عددِ كبير من سكان بغداد الفارين، وافراد القبائل العربية القاطنة على الفرات بين هيت وعانه، وطلبوا من السلطان احمد الحضور اليهم، للزحف على بغداد وطرد نائب تيمور منها. وكان السلطان احمد في هذا الوقت في بلاد الشام، يشارك السلطان المصري برقوق استعداداته لمجابهة تيمور عند زحفه عليها، فانتهز هذه الفرصة وبدعم من السلطان المصري، الذي امده بالمال والسلاح والخيل والجمال، وكتب له تقليدا بسلطنة بغداد، سار في عام 1394 من دمشق إلى بغداد، كما امر السلطان المصري كافة اتباع السلطان احمد المقيمين بالشام بالالتحاق بسلطانهم، أمّا قوات برقوق فقد بقيت على الحدود، رصدا للعدو، وانتظارا لما يستجد في بغداد. وقد وجد مسعود السبزواري انه لا يستطيع المقاومة، فقرر مغادرة المدينة، لكنه اراد أن يشاغل الجيش الزاحف نحوه، وان يتيح لاتباعه فرصة الخروج من بغداد، فامر بكسر السدود المقامة على نهر دجلة، فأغرقت المياه مناطق واسعة بصورة اعاقت تقدم القوات العراقية مدة يومين، تمكن خلالها مسعود السبزواري من الخروج مع اتباعه من بغداد، وتوجهوا إلى شوشتر في خورستان، ثم دخل السلطان احمد بغداد، وبدأ بإعادة تنظيم جيشه معتمدا في ذلك على العرب والتركمان، واخذ يعمل على اعادة تعمير المدينة وزراعتها. ولكن سلطة السلطان احمد اقتصرت على بغداد وبعقوبة والمناطق القريبة من واسط. وفي البصرة تمكن قائد قبلي يدعى ناصر بن محمود القباني من الاستيلاء على المدينة، ومد نفوذه على المناطق الجنوبية حتى البطائح القريبة من الحلة،

ولم يتمكن السلطان احمد من فرض سيطرته على تلك المناطق. كما خرجت الموصل من السيطرة التيمورية وصارت تحت حكم القبائل التركمانية عندما اعلن يار علي ولاءه لأخيه قره يوسف.

إن عودة السلطان احمد إلى بغداد ادهشت تيمور، فقرر انهاء حكمه، واخضاع المدينة بصورة نهائية، ففي عام 1398، ارسل ابنه ميران شاه من تبريز على راس جيش كبير لمحاصرة بغداد، لكن ميران شاه اضطر إلى الانسحاب بعد يومين من الحصار، إذ واتته الانباء بقيام حركة تمرد ضده في تبريز، كما فشلت محاولة ثانية قام بها حفيد تيمور المدعو رستم في السنة التالية، عندما وصلت قواته إلى مندلي في عام 1400، وبعد أن احتلت المدينة ونهبتها استعدت للزحف على بغداد، وفي الوقت نفسه كانت رغبة تيمور هي أن يلقي القبض على السلطان احمد حيا للانتقام منه، فاتفق مع نائبه في خورستان الامير شروان بن شيخ براق منصوري، على أن يأخذ مبلغا كبيرا من المال ويتظاهر بالهرب منه ويعلن لجوؤه مع عدد من اتباعه لدى السلطان احمد، وقد انطلت الخطة في أول الامر على السلطان، إذ رحب بشروان، وجعله احد امرائه المقربين، واقطعه قريتي القبة وزنكيادباد في منطقة ديالى وقرب مرتفعات حمرين. وشرع شروان بدس الاموال سرا إلى كبار امراء السلطان احمد واقربائه بقصد استمالتهم، وتسهيل مهمة القبض عليه، فأعطى لكل امير مبلغا يتراوح بين عشرة الاف إلى ثلاثمائة الف دينار عراقي، كل حسب رتبته ودوره في المؤامرة، لكن السلطان اكتشف المؤامرة في اواخر ادوارها، فقد عثر خادمه، كوره بهادر، على القائمة التي وردت فيها اسماء المتآمرين والمبالغ التي استلموها من شروان، في الوقت الذي وصلت فيه قوات رستم مندلي، فامر السلطان احمد بغلق ابواب المدينة، وقتل كل من ورد اسمه في القائمة، بما فيهم شروان، حتى بلغ عدد القتلى في اسبوع واحد الفا شخص من امرائه واقاربه.

لقد اضعفت هذه المؤامرة قدرة السلطان العسكرية، وافقدته خيرة ضباط جيشه، وأكفأهم، ولم تعد له ثقة بهذا الجيش، فترك في احدى الليالي بغداد، وتوجه سرا إلى ديار بكر طالبا المساعدة من حليفه قره يوسف امير التركمان القره قوينلو، فتحرك قره يوسف

مسرعا مع عدد كبير من اتباعه، وعسكروا في الجانب الغربي من بغداد، لتقديم الحماية للسلطان، وفي هذه الاثناء اضطر رستم قائد الجيش الزاحف نحو بغداد إلى الانسحاب، بسبب حدوث تمرد في فارس، فاطمئن السلطان احمد، لكنه اضطر إلى تقديم مبالغ كبيرة من المال والاقمشة والخيول والسروج المذهبة إلى قره يوسف واتباعه مكافئة لهم، ولمنعهم من التعرض لمدينة بغداد أو نهبها، فعادوا إلى موطنهم. وقد ادرك السلطان احمد أن تيمور لن يتركه يتمتع بحكم بغداد، رسيما بعد أن شرعت قواته بالزحف على مدينة سيواس في الاناضول عام 1400، فاذا استطاعت هذه القوات احتلال المدينة، فان تيمور سيسد عليه طريق الهرب إلى بلاد العثمانيين، كما إن الاوضاع السياسية في مصر وبلاد الشام اضطربت بعد وفاة السلطان برقوق، لذا قرر أن يسرع في الفرار، فترك على حكم بغداد احد امرائه المدعو فرج الجلائري، واخذ اهله وامواله ونفائسه، وتوجه مع حليفه قره يوسف إلى الدولة العثمانية فاستقبله السلطان بايزيد بن مراد الأول (1389-1403) واقطعه منطقة كوتاهية ليعيش على مواردها.

3. الحملة الثانية (1401):

وبعد أن اتم تيمور احتلال بلاد الشام عام 1401، وعاد إلى ديار بكر، اعد جيشا كبيرا وامره بالزحف على بغداد، فوصلوا بعد عدة ايام إلى الجانب الغربي، وعسكروا في القسم الجنوبي من المدينة. وقد استبسل الامير فرج في الدفاع عن بغداد، وقرر عدم تسليمها مهما كلف الامر، وحشد داخلها عدد كبيرا من مقاتلي العرب والتركمان، وارسل إلى الامراء وحكام المدن العراقية القريبة، طالبا منهم الحضور مع قواتهم لمشاركتهم في الدفاع عن العاصمة، فقدم الامير علي قلندر حاكم مندلي، والامير جان احمد حاكم بعقوبة، وعبروا دجلة مع قواتهما من قرب المدائن، وقدم أيضاً الامير فرخ شاه حاكم الحلة، والامير ميكائيل حاكم السيب القريبة من الحلة، مع قواتهما، والتقوا جميعا عند قرية صرصر القريبة من الجانب الغربي من بغداد واجتمع معهم حوالي ثلاثة الاف فارس ثم تقدموا جميعا، واشتبكوا

مع قوات تيمور قرب مقر السلطان احمد في الجانب الغربي، حيث هزمت القوات العراقية، وقتل الامير جان احمد مع عدد كبير من الجنود العراقيين، وغرق قسم منهم في نهر دجلة عندما حاولوا الهرب، بينما انسحب الباقي إلى داخل المدينة.

اصر فرج على المقاومة رغم الخسارة التي تعرض لها اتباعه، وأعلن أن السلطان احمد أمره أن لا يسلم المدينة إلاّ عند حضور تيمور بنفسه، وحين علم تيمور بالأمر، وكان في الموصل تحرك مع عدد كبير من اتباعه مسرعا عبر التون كوبري فوصل بغداد في 30 ايار 1401 وعسكر مع اتباعه في الجانب الشرقي من المدينة، فأحاطت قواته بالمدينة من جميع جوانبها. ثم امر تيمور بإقامة جسر من القوارب جنوبي بغداد، بالقرب من قرية العقاب، ووضع بأسفل النهر عددا من الرماة للحيلولة دون هرب أي شخص من المدينة، ثم شرعت قواته بنقب الاسوار، وفي الوقت نفسه اقامت فرقة من هذه القوات ربوة ونصبت عليها المنجنيق لرمي المدينة بالأحجار.

شدد تيمور الحصار على المدينة، وتمكنت قواته من احداث عدة حفر في السور واشعلوا فيها النيران، فسقط قسم من السور، لكن المدافعين سارعوا إلى اصلاحه، وتمكنوا من تأخير فتح المدينة اربعين يوما عانى خلالها السكان من الجوع وارتفاع الاسعار، بسبب شحة المواد الغذائية. ورغم تفوق جيش تيمور من حيث العدة والعدد، الا أن الظروف كانت في صالح الجيش العراقي، بسبب شدة الحرارة وصعوبة تموين الجيش المهاجم، لكن اهمال بعض جنود بغداد وتهاونهم ادى إلى فتح المدينة، ففي ظهيرة 30 حزيران 1401م نزل الجند المدافعون عن برج العجمي في الجهة الجنوبية من بغداد، وذهبوا إلى منازلهم للاستراحة من شدة الحر، ووضعوا خوذهم على العصي في الاماكن المخصصة لهم على السور، إلاّ أن اتباع تيمور اكتشفوا الامر، فتسلقوا السور بواسطة السلالم، واحتلوا البرج، وفي الوقت نفسه تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرات في السور فتم فتح المدينة، ولم يجد السكان ملاذا من سيوف المحتلين سوى نهر دجلة، لكن الجنود المرابطين على الجسر قتلوا كل من اقترب منهم، أمّا الامير فرج فقد ركب مع ابنه قاربا وفر عبر دجلة أيضاً،

لكن اتباع تيمور تمكنوا من اغراق القارب ومن فيه، ثم انتشلوا جثة فرج وأوصلوها إلى ضفة النهر.

تعرضت بغداد لخسارة كبيرة من جراء هذه الحملة، فقد امر تيمور باستباحة المدينة، واجراء مذبحة عامة للسكان، شملت حتى الشيوخ والاطفال. وقد قدرت بعض المصادر عدد من قتل بين 90-100 الف، واعتقد بعضها الاخر أن القتل شمل سكان المدينة جميعا حتى فني اهلها، واقيمت من جماجم القتلى عدة اكداس لتكون عبرة لمن تسول له نفسه برفع راية العصيان، ورغم ما في ذلك من مبالغات فانه يدل على كثرة من قتل، وعلى مبلغ القسوة والعنف الذي مارسه اتباع تيمور، ولم يكتف تيمور بهذه المجزرة الرهيبة، بل امر اتباعه بتخريب المدينة، وتهديم العمارات والاسواق والخانات والبيوت. ولقد تعفن هواء بغداد من نتن جثث القتلى، فتركها تيمور في بداية 1401، وتوجه شمالا نحو شهرزور ومنها إلى تبريز، ولم تذكر المصادر شيئا عن الاجراءات الإدارية التي اتخذها لضبط المدينة، ويبدوا أن الفوضى عمتها بعد خروجه منها. ولم يكتف تيمور باحتلال بغداد وانما ارسل قوة عسكرية لتوجه ضربات الى المدن التي ثارت عليه ومنها الحلة التي استولوا عليها ونهبوها وخربوها. اما في واسط فقد واجهت القوات التيمورية مقاومة من قبل قبيلة عبادة في هذه المنطقة. وتعرض جيش تيمور عند انسحابه لهجوم القبائل العراقية في الشمال. وعندما بدأ تيمور زحفه في السنة التالية نحو الاناضول، انتهز السلطان احمد هذه الفرصة وغادر الاناضول متوجها إلى العراق، وقد واصل سيره على امتداد نهر الفرات، فدخل بغداد دون مقاومة، واخذ يعمل على اعادة السكان الفارين وتعمير المدينة وزراعة اراضيها، لكن قوات تيمور داهمت المدينة 1401من الجانب الشرقي، فاندهش السلطان احمد، واثر الفرار إلى الحلة ومنها إلى منطقة الاهوار والمستنقعات في القسم الأسفل من الفرات، إلاّ أن قوات تيمور انسحبت من العراق بعد فترة قصيرة. ثم نشب صراع حول بغداد بين السلطان احمد وحليفه قره يوسف، انتهى باستيلاء الاخير عليها، بعد أن زحف عليها من الحلة، فتركها السلطان احمد في 1403، هاربا إلى بلاد الشام، أمّا قره يوسف فلم يتمتع بحكم بغداد سوى ثلاثة

اشهر، إذ قرر تيمور وضع حد لسيطرته وضم بغداد إلى نفوذه، فاسند حكم العراق لحفيده أبي بكر، وامره بان يقوم باستمالة السكان وتشجيعهم على بناء دورهم وزراعة اراضيهم، وان يعمل على اعادة تعمير المدينة واعادتها إلى ازدهارها السابق، فتقدمت قوات أبي بكر نحو بغداد، والتقت مع قوات قره يوسف عند نهر الغنم قرب الحلة، حيث اندحر قره يوسف وهرب إلى بلاد الشام أيضاً، ثم دخل أبو بكر بغداد. اما قره يوسف فقد قام بتسوية خلافاته مع السلطان احمد في المنفى. وقد استقر السلطان احمد في حلب، الى جاء امر السلطان فرج بن برقوق سلطان مصر بالقبض عليه، واعتقاله في قلعة حلب، ثم صدر امر ثاني بأرساله الى القاهرة، ثم اطلق سراحه، فرحل الى الاناضول هو وحليفه قره يوسف حيث السلطان بايزيد الاول، وبعد معركة انقرة التي تلقى فيها بايزيد هزيمة ساحقة فر الاثنان مجددا الى دمشق حيث قبض عليهما مرة اخرى، وفي السجن اتفق الحليفان ان تكون اذربيجان لقره يوسف، والعراق للسلطان احمد.

توفي تيمور في عام 1405 اثناء زحفه على الصين وتلت وفاته اندلاع الاضطرابات في ارجاء مملكته التي لم يوحدها ولم يمنعها من التفكك سوى سطوته وبطشه. كانت امبراطورية تيمور لنك التي تركها بعد وفاته واسعة الارجاء، ولكن هذا الاتساع الكبير لم يكن له تأثير على ديمومتها، اذ تعرضت للنزاعات الاسرية، ما افقدها وحدتها وقوتها، ولم تعمر سوى مائة سنة ونيف(1405-1507) وكان تيمورلنك قد عين اولاده واحفاده على الولايات المختلفة، فتمسك كل واحد منهم بما تحت يديه من املاك وحاول التوسع على حساب الاخرين. وعلى اثر الحروب الداخلية التي نشبت بينهم انحصرت التركة بين الاخوين ميران شاه، وشاه روخ، فحصل الاول مع ابنيه ابي بكر وعمر شيخ، على ايران الغربية والعراق والجزيرة الفراتية واران والكرج وارمينيا، واخذ شاه روخ خراسان وهراة وما وراء النهر. لقد كان للصراع الذي اندلع داخل الامبراطورية التيمورية قد شجع السلطان احمد وقره يوسف الى ترك الشام بعد اطلق السلطان فرج سراحهما عام 1404، واستئناف نشاطهما في العراق واذربيجان. وقد ودخل السلطان احمد بغداد في عام 1405 وطرد حاكمها التيموري دولة خواجة ايناق.

ـ الصراع على السلطة وانهيار الدولة الجلائرية(1405ـ1410).

عاد السلطان احمد الى بغداد ومن هناك ارسل حملات عسكرية الى الحلة وبعقوبة وسيطر عليها. واراد ان يفرض سيطرته على البصرة التي كانت لا تزال تحت نفوذ عرب قبان واميرهم ناصر بن محمود القباني، فارسل حملة عسكرية كبيرة لكنها فشلت من اخضاع البصرة التي ظلت السيطرة العربية هي السائدة فيها. وكرد فعل على حملة السلطان احمد على البصرة سار الشيخ ناصر بجيشه ووصل الحلة قاصدا الاشتباك مع الحاكم الجلائري الذي جمع قوات كبيرة اجبرت قوة القبائل العربية على التراجع. واتسمت السنوات اللاحقة بين(1406-1409) بالصراع العسكري بين التيموريين والقره قوينلو والجلائريين للسيطرة على العراق وبغداد بشكل خاص. ثم دخل السلطان احمد في صراع شرس مع حليف الامس قره يوسف، اذ عزم عام 1410 على السير إلى تبريز لمحاربة قره يوسف، فلما اقترب من تبريز خرج قره يوسف بقواته فالتقيا خارج المدينة، وتمكن قره يوسف من تحقيق نصر على السلطان احمد، هرب على اثره، ولكنه عثر عليه وقتل هو وولده، وسيطر قره يوسف على تبريز وغيرها.

ـ موقف القبائل العربية من الاحتلال الجلائري والغزو التيموري:

شهدت فترة الاحتلال الجلائري تصاعد وتعاظم دور القبائل العربية، فاتسعت مساحة المناطق التي تهيمن عليها في المدن والبادية والريف، وضاقت المناطق الواقعة تحت احتلال السلطة الاجنبية ولم يبق تحت هيمنتها الا بعض المدن الرئيسة فقط، وكان

ذلك يعود الى النزاعات الداخلية بين المحتلين والاخطار الخارجية التي تمثلت بالغزو التيموري اولا، والى ما كان لدى القبائل من قوات مسلحة ومنظمة وكثيرة العدد ثانيا. فقد بسط نصير بن حيار امير ال الفضل نفوذه على جهات الفرات من هيت الى الانبار، واستقر اتباعه في نواحي عين تمر وفي الكبيسات قرب الفرات، وانتعشت سطوة قبيلة خفاجة في مناطق الفرات الاوسط، وشهدت مناطق العراق الجنوبية سيطرة بني عقيل على البصرة وواسط واستولت قبيلة المنتفك العقيلية على البصرة وتولى حكمها صالح بن جولان امير هذه القبيلة. اما منطقة البطائح فقد سيطر عليها زعيم قبيلة عبادة. كما تمكنت قوى عربية قبلية من الاحتفاظ بالحلة مستقلة عن سلطة الاحتلال رغم قربها من بغداد مدة تقرب من ربع قرن(1316-1339)، وشكلت امارة عراقية اقامها الشريف احمد ابن رميثة ابن أبي نمي في الحلة، التي كانت في قلب الفرات الأوسط وحاضرة مجتمع العرب العراقي الزراعي، فقد حضي الشريف احمد بن رميثة بمنزلة سامية عند السلطان أبي سعيد، الذي فوض اليه امر عرب العراق، وبعث به مرة على راس الحج العراقي، وكان الشريف احمد يقيم بالحلة، وبعد وفاة السلطان أبي سعيد اعلن الشريف احمد استقلاله بالحلة وطرد منها حاكمها الامير علي بن الامير طالب الدلقندي، فقامت بذلك امارة عراقية كانت الأولى من نوعها منذ سقوط الدولة العباسية. وقد تمكن الشريف احمد خلال بضع سنوات من بسط نفوذ حكومته على اهم المناطق الزراعية في العراق ، وكان يجبي الاموال باسم حكومته، لذا لم يجد حسن الجلائري مناصا سوى القضاء على تلك الحكومة العربية، فوجه من بغداد عدة حملات عسكرية سيرها نحو الحلة، لكن الفشل كان نصيب تلك الحملات، إذ كانت العشائر العراقية تتصدى لتلك الحملات وترد رجالها على اعقابهم. وفي سنة(1339م) قرر الشيخ حسن الجلايري حسم امر حكومة عرب العراق بالقضاء عليها قبل أن يستفحل امرها، فجهز حملة عسكرية كبيرة قادها بنفسه وعبر الفرات من الانبار، وزحف نحو الحلة وحاصرها، حينما احتدم القتال بين الطرفين، لم يتمكن رجال العشائر العراقية الصمود امام هجمات عسكر المغول فتفرقوا، ولم يصمد مع الشريف احمد سوى

عدد قليل من رجال القبائل، كان بينهم بعض فرسان بني حسن الذين قاتلوا مع الشريف احمد حتى الموت.

ومن جهة اخرى كانت الحكومة الجلائرية نتيجة لضعفها وعدم تمكنها من توفير الحماية لقوافل الحجاج قد اضطرت الى الاستعانة بالقبائل العربية في المحافظة على طرق التجارة وقوافل الحجاج، ومساعدة امير الحج وتمكينه من صد اللصوص، وكانوا يرسلون لشيوخهم النقود والخلع وانواع الاقمشة. واعترفت الحكومة الجلائرية وهي مرغمة بنفوذ ال فضل الطائيين في المناطق الغربية من العراق، فعهد الشيخ حسن بالإمارة على عرب العراق الى حيار بن مهنا وهذه الوظيفة كانت اقرب الى الوظائف العسكرية. وشاركت القبائل العربية في القوات غير النظامية للجلائريين المحتلين التي تشكلت من افراد القبائل العربية والتركمانية والكردية وكانت الحكومة تستعين بها وقت الحرب، وبالرغم من ذلك ظلت تلك القبائل تحت قيادة امرائها، دون الخضوع لقيادة الجيش الجلائري. ولم تكن لهم رواتب مقررة بل كانوا يشاركون بدافع الحصول على الغنائم، وكان بعضهم يساهم في الحرب بناء على التزامات يتعهد بها السلطان مقابل حصوله على بعض المكاسب مثل الاقطاعات والمناصب والانعامات والغنائم وغيرها. وساهمت القبائل العربية في الوقوف بوجه غزو تيمور لنك للعراق وقاومت قواته وساعدت السلطان احمد على استعادة عرشه اكثر من مرة، وكانت اغلب القوات التي قاتل بها السلطان احمد بعد تشتت جيشه النظامي تتكون من القبائل العربية. ويعود التفاف هذه القبائل حول السلطان احمد كرهها لتيمور الذي اراد اخضاعها لسيطرته. وعندما هرب السلطان عام 1393 بعد احتلال تيمور لبغداد ووصل الى الرحبة اكرمه نعير محمد بن جبار بن مهنا امير ال فضل وانزله بيوته ومن هناك هرب الى حلب. ثم تجمع عدد كبير من افراد القبائل العربية الساكنة على الفرات وطلبوا منه العودة والتوجه الى بغداد واسترجاعها. وتمكن بمساعدتهم من طرد نائب تيمور منها. وتشير بعض المصادر ان نمير قد احتل بغداد عام 1394. وفي عام 1405 عاد السلطان احمد الى بغداد مع عدد قليل من اتباعه فجمع حوله في مواجهة الغزو التيموري القبائل ومؤيديه

القدماء في الحلة وتمكن ان يستعيد بغداد ويطرد حاكمها المعين من قبل تيمور. وبذلك يظهر ان العشائر لعبت دورا بارزا يمكن ملاحظته بوضوح سواء في مقاومتها للمحتلين أو مشاركتها في قواتهم العسكرية غير النظامية أو سيطرتها على طرق الحج والتجارة ولا يمكن ان يتأتى لها كل ذلك الا بفعل القوة العسكرية التي تمتلكها، فاضطر الجلائريين المحتلين الى طلب مساعدتها والاعتراف بهيمنتها على المناطق التي تسكنها.

- الإدارة في العصر الجلائري.

لقد سار الجلائريون على النظم التي كانت قائمة في البلاد ولم يضيفوا شيئاً جديدا إلى ما كان عند اسلافهم من النظم الإدارية والحضارية والاقتصادية. وبشكل عام كان الجهاز الإداري مضطربا يسوده الانحلال، ويعزى ذلك إلى الحروب بين الجلائريين والحكومات المجاورة، وهجمات تيمور لنك المتواصلة على العراق التي لم تفسح المجال للحكام في التفكير بإصلاح جدي، زيادة على عوامل اخرى منها ارتباك الإدارة وقلة الكفاءة والضبط بين الموظفين ادت دورها في عدم رسوخ السلطة الجلائرية في المدن جميعا. وكان العراق يشكل القسم الاكبر والاهم من الدولة، ومن ثم اصبحت بغداد مركزا للدواوين ومقرا للحكومة مدة اطول مما كانت عليه العاصمة تبريز، وهذا ما يوضح ازدياد اهمية بغداد في العهد الجديد، فقد كانت مقرا للسلطان الجلائري عندما يكون في العراق، أو لنائبه إن غاب عنها، ومقرا للوالي والديوان، حينما انتقلت العاصمة إلى تبريز 1358-1386.

لم تستمر التقسيمات الادارية التي كانت في العراق خلال العصر الايلخاني خلال هذا العصر، والواقع انها اضمحلت منذ العهد الايلخاني، فقد استغل ولاة بغداد سلطاتهم في ابتزاز الاموال لاسترضاء السلطان واهملوا شؤون الادارة، وعملت الفتن وحوادث الشغب بين الموظفين الى عدم ثباتهم، يضاف الى ذلك ان تولية المنصب الاداري لم يكن

يلتزم نسقا ثابتا بل عرضة للأهواء الشخصية. ان عدم وجود مصادر مدونة عن العهد الجلائري، أو انها دونت لكنها لم تصل الينا جعلنا نجهل الكثير عن مناطق الادارة وطريقة ادارتها. ولكننا نستطيع القول ان نفوذ السلطان عندما يكون مقره في بغداد كان يشمل الولايات الثلاثة وهي العراق العربي وديار بكر وكردستان، وكانت الولايتان الاخيرتان تدار من قبل الحكام الذين يعينهم السلطان مباشرة أو من قبل بعض الاسر وامراء القبائل الموالية له. لقد كانت سلطة والي بغداد محدودة وليس له أي سلطة ادارية أو غيرها على الولايات الاخرى، ويكون ارتباطها بالعاصمة تبريز. وكان السلطان يعين الحكام على جميع الولايات التابعة له، وكان لكل من العراق العربي وديار بكر وكردستان حاكم خاص. وكان على رأس الادارة في الولاية موظف يسمى الوالي أو الحاكم أو الامير، وكانت كل ولاية تضم مجموعة من المدن يتبع كلا منها عدد من القرى والارياف، ويقال للمدينة وتوابعها اعمال. وكانت مساحة هذه الاعمال وعدد القرى التابعة لها غير ثابتة، ولم يكن تقسيمها يستند على اسس طبيعية أو جغرافية، بل كانت تحدد لتحقيق اغراض اقتصادية منها جباية الضرائب والموارد الحكومية. وان اخبار حكام هذه المدن وموظفي ادارتها والعلاقة بينهم وبين حكام المدن والقرى الصغيرة التابعة لهم غامضة، ولم يصلنا شيئا منها.

لقد شاع خلال حكم الجلائريين، اسلوب الإدارة بطريقة (المقاطعات والضمان)، وبموجبه يفوض الديوان حكم احدى الولايات أو المدن إلى (الضامن) وعادة يكون صدر الديوان (الوزير) في الولاية أو الحاكم، مقابل تأدية مبلغ معين من المال، ويقوم الحاكم باستحصال الضرائب المقررة في منطقته محتفظا بالزيادة لنفسه، وكانت تناط بالضامن بموجب هذا النظام شؤون الولاية ولاسيما اقرار الامن وتشجيع الزراعة، وهو مسؤول عن تعيين عمال أو نواب عنه في المدن الواقعة في منطقة الضمان، واتبعت طريقة اخرى تقوم على إدارة الولايات بما عرف بـ(أمانت) وبموجبها يعهد إلى أحد المقربين من السلطان أو حكام الاطراف بحكم احدى المناطق والمدن بشكل (عهدة أو امانة) مدة معينة، وله راتب من الديوان، ويكون على هذا المسؤول ضبط الامن والنظام في منطقته، وفي كل منطقة

ادارية من مناطق البلاد، وفي كل مدينة، ديوان خاص أو عدد من الموظفين يمثلون ديوان بغداد عرفوا باسم الحكام أو المتصرفين والعمال. أمّا السلطة العسكرية في بغداد وبقية مدن العراق، فكان على راسها موظف يسمى (داروغة) - وتعني الرئيس أو الحافظ- وهو في سلطته وصلاحياته اشبه بالحاكم العسكري في العصر الحاضر، ويساعده في اعماله الشحنة.

لقد برزت في هذا العصر عدد من الدواوين وهي:

ديوان السلطنة: وهو من اهم الدواوين، ويسمى رئيسه نائب الديوان، وعمله مراقبة وتنظيم الاعمال الخارجية والداخلية في البلاط، ويعنى بالأمور المرتبطة بالسلطان واهله واملاكهم وشؤونهم، وكان للسلطان واسرته أملاك واسعة في البلاد يعين عليها وكلاء ونظار يتولون إدارة شؤنها، ويرسلون العوائد إلى السلطان.

الديوان الكبير أو ديوان الوزارة: كان السلطان يختار الوزير، ويصدر مرسوما بتعيينه ولقد اخذ الجلائريون بنظام الوزير الواحد.

ديوان الاستيفاء: وهو يتبع الديوان الكبير، ويرأسه مستوفي الملك الذي يختاره السلطان والمستوفي موظف من كتاب الأموال والدواوين، عمله ضبط الديوان التابع له، والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله، ونحو ذلك ومن المستوفين: مستوفي الصحبة، وهو يشارك الوزير ويعاونه في الامور العامة، مثل كتابة المراسيم وتسجيلها، ومثله في النفوذ مستوفي الدولة، ولكل ديوان من دواوين الدولة ناظر وتحته المستوفي. ويقوم المستوفي بضبط مصادر المال وكيفية الدخل ووجوه الانفاق، وله نواب ينتشرون في جميع انحاء البلاد لإدارة الشؤون المالية بها. ويشرف ديوان الاستيفاء على امور الموظفين في مختلف الدواوين وترعى الحكومة امور موظفيها في حياتهم، وبعد مماتهم تقوم برعاية اولادهم.

ديوان الاشراف: ويسمى رئيسه مشرف الممالك، ويختاره السلطان ويكون مطلعا على كل الاعمال، وتحت رئاسته عدد من المشرفين الذين يشغلون بالنظر في الدواوين المختلفة، ويطلعون الحكومة على اخبار الموظفين واعمالهم.

ديوان الغ بيتكجي: ليس لدينا معلومات كافية عنه، ورئيس هذا الديوان هو مثل سائر رؤساء الدواوين الاخرى يختاره السلطان، ومهمة هذا الديوان هو النظر في الامور المالية.

ديوان الانشاء: وهو واحد من اهم دواوين المملكة يدون ويجمع كل القرارات والوثائق السياسية والادارية ووسائل السلاطين والوزراء وسائر الشخصيات الهامة.

ديوان النظر: ووظيفة هذا الديوان مثل ديوان الاستيفاء والاشراف بشان التفتيش على مختلف الامور، ويعتبر مكملا لهما، ويقوم هذا الديوان بضبط امور الديوان الكبير وتدبير المال وتمويل الخزانة ونفقات الامراء واصحاب الديوان، وله نواب ينتشرون في مختلف الولايات، ويسمى عمالته نظار. والنظار يشاركون الوزير في اعماله، ولقد تنوعت القاب هؤلاء بحسب الاعمال التي ألت إليهم، فناظر الجيش هو الذي يعنى بأموال الجيش، وينظر في حسابها، وناظر الخاص هو الذي ينظر في خاص اموال السلطان، وناظر الدولة عمله مشاركة الوزير في التصرف عامة والنظر في المالية وارزاق اصحاب القلم من الموظفين خاصة واسمه أيضاً ناظر الدواوين، وهناك احيانا ناظر النظار أو صاحب الشريف، ومقره ديوان النظر، ويعاونه في اعماله متولي الديوان، وهو ثاني رتبة الناظر.

ديوان القضاء: كان القضاء حسب الشريعة الاسلامية بالنسبة للمسلمين، وحسب القوانين المغولية بالنسبة للمغول. وكانت اللغة العربية مستخدمة في كل القوانين إلى أن جاء الجلائريون فجعلوا القوانين باللغة التي يتحدث بها اهل الولاية أو الاقليم، فاستخدمت اللغة العربية بالنسبة للبلاد التي تنتشر فيها العربية، واللغة الفارسية بالنسبة للنواحي التي تنتشر فيها الفارسية، واللغة المغولية بالنسبة للقبائل المغولية. وتمركزت التشكيلات القضائية في جميع انحاء المملكة تحت اشراف ديوان القضاة.

بلا شك أن الحروب والمنازعات الكثيرة كان لها اثر كبير على الناحية الاقتصادية في البلاد، فقد فرض الحكام الضرائب حتى يتمكنوا من تغطية نفقات الجيوش التي كانوا يخوضون بها حروبهم ومعاركهم، وقد اتاح هذا الوضع لموظفي الدولة ممارسة الظلم في معاملة الناس وتحصيل اكبر قدر ممكن من الاموال لمنفعتهم الشخصية.

والضرائب التي كانت تحصل نوعان:

1. ضرائب مقررة: وهي تحصل بواسطة ديوان الاستيفاء، وتشكل عائدا لخزانة الديوان.

2. ضرائب شرعية: وهي تحصل بواسطة رجال الدين، وتشكل عائدا لبيت المال.

هذا فضلا عن ضرائب اخرى تتمثل في الهدايا والرشاوى التي كانت تقدم للمحصلين على هيئة عينية أو نقدية. كما كانت ضرائب التمغاجي على النجارين والحدادين والحوانيت، وهي تجبى بواسطة حكام التمغا كما كانوا يسمون في العصر الايلخاني وما بعده.

لم تدم حقبة الاستقرار التي شهدها الحكم الجلائري طويلا، ودخلت البلاد عهد من الاضطراب والفتن وتسلط الامراء على شؤون الحكم، وتحول العراق إلى ميدان للحروب الاهلية كانت فاتحتها اندلاع النزاع بين السلطان جلال الدين حسين (1384-1392) واخويه الشيخ علي حاكم بغداد، واحمد حاكم البصرة، وتواصل النزاع حتى بعد مصرع السلطان، واشترك فيه الاخ الرابع بايزيد، وما أن تمت التسوية في 1383م بمقتل الشيخ علي واقتسام ممتلكات الدولة بين بايزيد وله منطقة الجبال، والسلطان احمد الذي تملك منطقة العراق حتى تعرضت البلاد إلى تهديد خطير نتيجة الغزوات التيمورية للعراق، وكان على بغداد أن تواجه عدة هجمات في اوقات متقاربة 1393و 1401-1402)، وتمخضت عن ذلك نتائج سلبية في اوضاع العراق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية، فقد اودى الصراع الاسري الجلائري، ثم الغزو التيموري بحياة عدد كبير من الناس، وتسبب في تشريد عدد اخر وتهجير اصحاب الخبرات العلمية والحرفية إلى بلاد ما وراء النهر، ورافق ذلك اضطراب كبير كان له تأثير كبير في تدهور النشاطات الاقتصادية والفكرية والعمرانية، واضطربت الإدارة، وفقدت السلطة سيطرتها على كثير من المدن التي اعلنت استقلالها وصار نفوذ السلطان الجلائري لا يتعدى المدن القريبة من بغداد، ونتيجة للتدهور الاقتصادي، وقلة موارد الدولة، كان السلطان يمنح إدارة هذه المدن إلى ابنائه وامرائه الذين يطمئن لولائهم، وشمل هذا النمط من الإدارة الذي هو ضرب من ضروب الاقطاع، مدن

الحلة ومندلي وبعقوبة وتكريت وغيرها. وكما اتسم الجهاز الإداري في العهد الجلائري في مراحله الاخيرة عامة، بالضعف والارتباك وقلة كفاية الموظفين وانعدام الضبط بينهم، وعجز في اوقات كثير عن توفير الامن وحماية الطرق خارج المدن الكبيرة، وافتقد المواطنون الحماية، وتعرضوا في حالات كثيرة إلى النهب وهجمات قطاع الطرق، ولم يشرك الجلائريون سكان البلاد في الإدارة، فلا عجب أن ينهار حكم هذه السلالة على يد قوة تركمانية عرفت باسم دولة الخروف الاسود (قره قوينلو)، حينما نجح زعيمها قره يوسف في دحر السلطان احمد الجلائري الذي لقي مصرعه وهو يحاول الفرار في 831هـ- 1410م وفي السنة التالية دخلت قوات قره يوسف بغداد.

ـ الاوضاع العامة في العراق خلال العصر الجلائري.

رغم الاستقرار الظاهري في العراق خلال العصر الجلائري الا ان الاوضاع بشكل عام سيئة ولاسيما بعد نهاية عهد السلطان اويس إذ ساءت احوال العراق بشكل كبير وهو امر راجع كما قلنا إلى الصراع بين الامراء الجلائريين من جهة والغزوات التيمورية من جهة اخرى. فضلا عن الضرائب الثقيلة قد ساهمت في تدمير الاقتصاد في العراق خلال هذا العصر. وما ساهم ايضا في تخريب الحالة الاقتصادية هي تلك الكوارث الطبيعية التي حدثت في ايران والعراق، منها على سبيل المثال لا الحصر هجوم الجراد وانتشار الوباء ما بين (1341-1343) وما تبع ذلك من غلاء فاحش في الاسعار، ثم عودة الوباء مرة اخرى إلى هذه المنطقة (1354).كما فاض نهر دجلة عام (1354) وتهدمت معظم مباني بغداد واصبحت خرابا، وكما غرقت بغداد مرة اخرى في سنة (1373). وقد حاولت الحكومة التخفيف عن الناس بدفع التعويضات لهم وسن التشريعات والقوانين للضرب على ايدي اللصوص والعابثين والخارجين على القانون، إلاّ أن ذلك لم يخفف مما كان يعانيه الناس

حيث كانت الحالة السياسية مضطربة والتي اثرت بتبعاتها على تدهور الاوضاع بصورة عامة في العراق.

لقد اقتصرت نظرة السلاطين الجلائريين في العراق إلى الريف على انه مصدر ثروة يمكن استثمارها في تمويل عملياتهم العسكرية ودفع نفقات جيوشهم الاجنبية، فوزع المغول، منذ مطلع القرن الرابع عشر، اراضي العراق على جنودهم بدل رواتبهم، ولكنهم احتفظوا -جريا على التقاليد الاسلامية- برقبة الارض للدولة، بيد انه حدث في عهد السيطرة الجلائرية أن اخذ نوع من الاقطاع ينتشر، ولو بحدود ضيقة، عرف باسم (الادرار) وهو يمنح على سبيل الهبة للأشخاص الذين يقدمون للدولة خدمات معينة، ولا يشترط أن يكونوا من العسكريين، ليكون بمثابة راتب لهم، وهناك ما عرف بأقطاع (ادرار مقاصة)، فبموجب هذا الاقطاع تبقى الارض أو القرية ملكا مؤبدا لصاحبها ولذريته من بعده، ولا يدفع عنها اية ضرائب. والى جانب هذا النوع بقيت بعض النظم الاقطاعية القديمة، مثل الاقطاع المستند إلى احياء الارض الموات، وبموجبه تصبح الارض ملكا لمستصلح الارض ولذريته من بعده، وتعرف باسم (القرار الشمسي)، كما استمر الحفاظ على الملكيات الموقوفة على المساجد والمدارس، غالبا، وتعد وقفية الخواجة امين الدين مرجان على منشاته التي اقامها ببغداد من اضخم الوقفات المعروفة في تاريخ العراق وادقها. وفي جانب الزراعة لم يهتم الجلائريون بالنشاط الزراعي إلاَّ بما يكفي لإعاشة قواتهم، ولذلك اقتصرت عنايتهم على بغداد والمناطق المحيطة بها حتى أن هذه المنطقة دفعت سنة (1363) نصف مجموع موارد العراق آنذاك، مما دل على إن النشاط الزراعي اخذ، في هذه الحقبة، بالانحسار إلى المناطق القريبة من المدن الرئيسة طلبا للأمن والحماية، أمّا اصلاح الانهار وتطهيرها وزيادة الرقعة الزراعية فلم تلق من اولئك الغزاة اهتماما إلاَّ في حالات نادرة.

لا نمتلك الكثير عن الحياة الثقافية خلال هذا العصر ولكن يمكن القول بشكل عام انه كانت توجد في هذا العصر مدارس كثيرة جيدة التحق بها تلاميذ لديهم ميل لتلقي العلوم والمعارف المختلفة على ايدي اساتذة كبار، قاموا بالتدريس لهم، وكانت ببغداد على وجه

الخصوص مركزا للعلوم والادب، ومن اهم المدارس التي كانت موجودة فيها هي: المدرسة المسعودية الذي امر بتشييدها خواجة مسعود بن منصور زمن السلطان احمد، والايكجية التي ربما كانت مدرسة التي امرت ببنائها مخدومة شاه داية السلطان وتلقب ايكجي في عام 1361، والمدرسة الاسماعيلية التي امر ببنائها وزير بغداد اسماعيل، والمدرسة الوفائية التي بنيت من قبل وفاء خاتون حوالي عام 1400، وهناك ايضا مدارس المرجانية – العاقولي – جامع سراج الدين – جامع النعماني – سيد سلطان علي وغيرها.

لقد شهد بدء العهد الجلائري في العراق نوعا من الاستقرار ادى الى تزايد الحركة العمرانية لاسيما في زمن والي بغداد امين الدين مرجان الذي قام بتشييد كل من المدرسة المرجانية وخان مرجان ودار الشفاء في بغداد. ويعد خان مرجان من اجمل الخانات العراقية المتبقية ويتكون من طابقين الاول يحتوي على 22 غرفة، والثاني من 23 غرفة. كما اهتم الجلائريون بالمشهد الكاظمي فقد قام السلطان اويس بتعمير المشهد فبنى قبتين ومنارتين، وامر بوضع صندوقين من الرخام الجيد على القبرين الشريفين، وزين الحرم بالطابوق الكاشاني الذي كتب عليه سور من القران المجيد كما عمر الرواق.

لم يقتصر النشاط المعماري خلال هذه الفترة على بغداد فقط بل تعداها الى كل من الكوفة وكربلاء والنجف حيث ينسب للجلائريين بناء بعض العتبات المقدسة وبناء منارة ومدخل مسجد الكوفة القديم. ويرد في المصادر التي تؤرخ لهذا العصر الكثير من الابنية والعمارات التي بنيت من قبل بعض الحكام المحليين، كذلك تنسب الى السلطان احمد تشييد قلعة في الجانب الغربي من بغداد تسمى قلعة الامير احمد، وقام كذلك بتشييد خان يعرف بالقلندر خانة أو خان القلندرية بناه لمجموعة من المتصوفين الذين يعرفون بهذا الاسم برزت طريقتهم في القرن الثالث عشر الميلادي. وترد في المصادر التي تورد حوادث هذا العصر اسماء عمارات وابنية لم تصل الينا اخبار بنائها ولا اماكن انشائها بصورة مضبوطة مثل الاربعيني ودار العبادة اللؤلؤية بالجانب الشرقي من بغداد.

ـ العراق في عهد سيطرة القره قوينلو(1411ـ1467).

بعد انهيار سلطة الايلخانات في ايران في عام 1335 توزعت املاكهم بين الاسر المغولية ومن بينها الاسرة الجلائرية التي استقلت في العراق بزعامة شيخ حسن الكبير واتخذت بغداد حاضرة لها، كما برز التركمان الذين تدفقوا على غربي اسيا بسبب الضغط المغولي قادمين من خوارزم واطراف بحيرة ارال وشرقي بحر قزوين، والخزر، استقروا في الشمال الغربي، وشمالي الجزيرة الفراتية، واستغلوا ضعف ايلخانات ايران بعد وفاة الايلخان ابي سعيد بهادر في عام 1335 فاخذوا يغيرون على مناطق الاطراف. واشهر هذه القبائل التركمانية التي ادت دورا فاعلا في الحياة السياسية قبيلتان هما القره قوينلو بزعامة قره يوسف بن قره محمد، والاق قوينلو بزعامة اوزون حسن.

كانت قبيلة القره قوينلو(الخروف الاسود) يطلق عليها اسم البارانية نسبة الى قبائل الغز التركمانية التي نزحت من تركستان الغربية الى جهات اذربيجان وسيواس في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي وتحديدا في عهد الايلخان المغولي ارغون(1284-1292)، وتمكنت من اقامة كيان سياسي لها في جنوب شرق الاناضول في الاراضي الواقعة شمالي بحيرة وان في ارمينية، على تخوم السلطنة المملوكية، ومملكة طرابزون المسيحية في جهات ارمينيا والبحر الاسود واتخذت ارغيش الواقعة في شمالي شرقي البحيرة عاصمة لها، وشاع اسمها قره قوينلو واصبح اصطلاحا خاصا بها لاشتهارها باقتناء الخروف الاسود، أو لان رايتها تحمل شارة خروف اسود. وتشير المصادر التاريخية الى ان عشيرة بهارلو، وهي بطن من قبيلة قره قوينلو اشتهرت بصرامة رجالها وشدة بأسهم، وتولى رؤسائها الزعامة بين القره قوينلو، وكان بيرم خواجة بن تورمش اول امراء القره قوينلو الذي تعاظمت شأن القبيلة في

عهده، وقد نجح في توسيع حدود دولته بحكم اتصاله بالسلطان معز الدين اويس الجلائري، ووضع خدماته تحت تصرفه عام 1373، وعلى اثر وفاة هذا السلطان عمت الفوضى وشاعت الفتن والاضطرابات، فانتهز بيرام الفرصة واستولى على الموصل بعد حصار دام اربعة اشهر ثم احتل سنجار، وارغيش، واونيك عام 1374، وبعد وفاته عام 1381، خلفه في زعامة الامارة الناشئة اخوه مراد خواجة لمدة قليلة، فلما توفي تولى الزعامة تورمش بن بيرام خواجة، ثم ولده قره محمد، وقد اشتبك في حرب مع حاكم ماردين المدعو القاهر. وقد استمرت القره قوينلو في عهده في تقديم الخدمات للجلائريين في عهد السلطان احمد الجلائري الذي كان بأمس الحاجة الى قوتهم، وذلك لاستخدامهم في مواجهة التيموريين ومعالجة الاوضاع المضطربة في بغداد، وكان قره محمد قد زوج ابنته الى السلطان احمد الجلائري، وقد ارسله الاخير للقضاء على تمرد اخيه الشيخ علي عندما اعلن سلطنته على بغداد، كما انتهز فرصة الفوضى التي احدثتها حملة تيمور لنك على ايران فاستولى على تبريز وعين ولده مصر خواجه حاكما عليها، ولكن عودة تيمور الى ايران عام 1387 ادت الى فرار قره محمد، الذي دفع حياته ثمنا لتبعيته للدولة الجلائرية، اذ قتل في معركة ضد تيمور لنك جرت قرب تبريز عام 1389. غير ان موقف القره قوينلو من الجلائريين لم يتغير اذ استمر الامير الجديد قره يوسف بن قره محمد في مساندة السلطان احمد ضد التيموريين.

مرت على الامارة ابان الغزوات التيمورية في اواخر القرن الرابع عشر سلسلة من الانتكاسات، فقد واجه قره يوسف بن قره محمد في اوائل عهده خطر تيمورلنك الزاحف الى غربي اسيا للقضاء على نفوذ الحكام المحليين ومنهم قره يوسف(1390-1420) نفسه والسلطان احمد الجلائري في العراق، فتحالف الزعيمان لمقاومته، غير انهما لم يصمدا طويلا في وجهه واضطرا الى الفرار الى الاناضول للاحتماء بالسلطان العثماني بايزيد الاول(1389-1403). فدخل تيمورلنك العراق في عام 1398 وكان قد سيطر على خراسان ومازندران وكردستان واذربيجان وشروان وارمينيا وارزن الروم وارزنجان. ثم تمكن من السيطرة مؤقتا على بغداد في عام 1402، ولكنه اجبر الى الفرار الى الشام مع حليفه

احمد الجلائري، ثم توجها الى مصر لطلب المساعدة من السلطان الناصر فرج بن برقوق(1399-1412) الا انه قبض عليهما وزجهما في السجن حرصا على صداقته مع تيمور لنك.

بعد وفاة تيمور لنك، فقد اطلق الناصر فرج سراح قره يوسف زعيم قبيلة القره قوينلو مع حليفه احمد الجلائري، فتوجه قره يوسف في تشرين الاول 1406 على رأس الف مقاتل الى اذربيجان للسيطرة عليها، وكانت تحت حكم ابي بكر ميرزا بن ميران شاه، واستولى في طريقه على قلاع عدة انتزعها من القادة التيموريين، فاصطدم به بالقرب من نخجوان وانتصر عليه وانتزع منه مدينة تبريز وطارده حتى جرجان وهزمه ثانية، وقتل ابي بكر ميرزا في المعركة وسيطر قره يوسف على كامل اذربيجان. وبعد عامين تمكن قره يوسف من تحقيق نصر كبير على ميران شاه في معركة انتهت بمقتله. عقب ذلك هاجم قره عثمان البايندري زعيم الاق قوينلو وانتصر عليه، وضم ديار بكر الى املاكه واحتل الموصل خلال عامي 1408-1409. وسرعان ما اندلع الصراع بين حلفاء الامس، اذ لم تعد امارة القره قوينلو ترى فائدة من تبعيتها للدولة الجلائرية، اذ ان دائرة نشاطها العسكري امتد ليشمل اجزاء مهمة من المناطق الخاضعة لنفوذ الدولة الجلائرية حتى انه عند وفاة تيمور لنك وعودة السلطان احمد الى بغداد كانت حدود الامارة قد اتسعت لتشمل اراض تمتد من اذربيجان الى ماردين والموصل، الامر الذي دفع السلطان احمد الى التفكير في تقليص نفوذهم لاسيما وان الظروف السياسية الجديدة التي اعقبت مصرع تيمور لنك قد حكمت على الدولة التيمورية بالزوال وجعلت السلطان احمد لا يعبأ بالقوة العسكرية التي كانت تمده بها امارة القره قوينلو كما ان السلطان احمد كان يخشى من ان يتطور نفوذ القره قوينلو فيهدد مركزه في العراق ويؤذن بنهاية الحكم الجلائري. وهكذا شن السلطان احمد هجوما عام 1410 على القره قوينلو في جهات اذربيجان، غير ان قره يوسف وجموع القره قوينلو تمكنوا من الحاق هزيمة بالسلطان وجيشه، وقد اسر السلطان نفسه مع عدد كبير من قادته واتباعه، فامر قره يوسف بقتله لتنكره ونسيانه الجميل الذي اسداه القره قوينلو اثناء الغزو التيموري للدولة الجلائرية، ثم الحق به

من تبقى من قادته واتباعه، فالت الى القره قوينلو ممتلكات الجلائريين في جهات اذربيجان واهمها تبريز والسلطانية.

بعد القضاء على السلطان احمد بعث قره يوسف ابنه محمد شاه الى بغداد، وكانت قد الت حكومتها الجلائرية الى صبي يعرف بشاه محمود بن شاه ولد وهو حفيد السلطان اويس الجلائري، وكانت زوجة والده دوندو خاتون صاحب السلطة الفعلية في بغداد، وكان جل اهتمامها هو حماية العرش الجلائري والتشبث في حكم بغداد قدر الامكان. وقد ابتدعت حيلة من اجل ابعاد خطر القره قوينلو، اذ اوعزت الى احد الامراء المنقادين لها وهو بخشايش ليتولى حكومة بغداد موعزة له الترويج الى ان السلطان احمد مختبئ في بغداد وانه سوف يظهر بعد حين، وكانت الاشاعات قد دارت حول هزيمته ومقتله. ويبدو ان الترويج لفكرة اختفاء السلطان في بغداد كانت تجد اذانا صاغية من قبل بعض السكان، وقد انقسم سكان بغداد في وسط هذا الجو المشحون بالقلق والاضطراب بين مصدق ومكذب لفكرة بقاء السلطان حيا، بينما كانت حملة الشاه محمد في طريقها الى بغداد، وقد طلب بخشايش من دوندو خاتون ان تزوجه ابنتها. ويبدو ان بخشايش الذي وجد في هذه الظروف فرصة سانحة للاستئثار بعرش السلطنة عن طريق الزواج بأميرة من الاسرة الجلائرية، فضلا عن ذلك اراد ان يضمن ابقاء دوندو خاتون بجانبه حتى الفصل الاخير من اللعبة التي خططا لها سوية. ولم يكن امام دوندو خاتون التي احيطت علما باقتراب الحملة من بغداد غير التظاهر بالموافقة، ثم عملت على اغتياله. ويبدو ان عبد الرحيم بن الملاح الحاكم الجديد لبغداد الذي شعر بالزهو لاستلامه مقاليد الحكومة، اخذ يروج بحماس لفكرة اختفاء السلطان، ثم اصدر الاوامر بتزيين بغداد اجمل زينة على شرف خروج السلطان احمد من المكان الذي يختبئ فيه. ويبدو ان مسألة الاشاعة التي راجت في بغداد بكون السلطان احمد ما زال حيا، كانت تستهدف ايهام الشاه محمد بقوة هذه المدينة، بحيث اضطر الى الانسحاب منها لفترة محدودة ومن ثم العودة اليها. وبينما كان البغداديون منهمكين في تزيين بغداد انسلت دوندو خاتون ليلا مع افراد اسرتها واموالها من بغداد نظرا لإدراكها استحالة الوقوف بوجه حملة

محمد شاه، فاتجهت بسفينة الى واسط ومنها الى شوشتر متجنبة الوقوع بيد القره قوينلو الذين دخلوا بعد بضعة ايام بغداد عام 1411. وتبدو مشاعر الغضب ازاء ما حصل في بغداد واضحة في سلوكه تجاه الجماعة التي اشاعت فكرة بقاء السلطان احمد حيا وقرب ظهوره، اذ طلب قائمة بأسماء كادت تستوعب معظم وجهاء بغداد الامر الذي جعل الشاه محمد يتردد في معاقبتهم جميعا واكتفى بقتل الشيخ احمد السهروردي باعتباره على رأس المروجين لتلك الاشاعة. تولى محمد شاه حكم بغداد متمتعا باستقلال اداري واسع طوال ولايته التي دامت 23 عاما، وقد قام بدوره بتوزيع المناصب لأقربائه في اهم المدن العراقية على شكل اقطاعيات استغلال(اولكة). وقد تدهور الوضع السياسي في العراق بعد احتلال الشاه محمد لمدينة بغداد، وذلك لان سلطة القره قوينلو لم تكن تشمل الا بعض المراكز المهمة، ففي الوقت الذي كان للقره قوينلو حكام على مدن كركوك واربيل والموصل وداقوق والدجيل، فان باقي انحاء العراق ظلت بيد حكامها المحليين أو بيد حكام الاسرة الجلائرية السابقة، وقد نازع هؤلاء جميعا سلطة القره قوينلو، التي اتسمت بالضعف.

اما قره يوسف فقد واصل عملياته العسكرية خلال عامي 1412-1414، فاتجه شمالا وهاجم شروان، والكرج، وسيطر على سلطانية وساوه وقزوين وطارم، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى وصل الى حلب. ونعرف انه اضطر الى مهاجمة العراق مرة ثانية عندما امتنع ابنه شاه محمد عن تقديم الاموال المترتبة على حكومته فحاصرها في عام 1418 واجبر ابنه على تسليم الاموال. من جانب اخر وضعت الرغبة في التوسع قره يوسف وجها لوجه امام شاه روخ الحاكم التيموري على خراسان، بفعل تجاور املاكهما، وقد خشي شاه روخ من امتداد النفوذ التركماني الى اراضيه، فنهض للقضاء على قره يوسف، غير ان مرضا الم به وتوفي عام 1420.

بعد وفاة قره يوسف بدأت المنافسة على اشدها بين ولديه اذ سعى اسكندر للسيطرة على تبريز، بينما كان اسبان يطمح الى انتزاع بغداد من اخيه محمد شاه وقد تمكن من تحقيق ذلك لاحقا. ونتيجة سيطرة اسكندر على اذربيجان اضطر الى مواجهة الامبراطورية التيمورية، وكان شاه روخ يتقدم باتجاه اذربيجان، وجرى اللقاء الدامي بينهما في عام 1420،

اسفر عن انتصار شاه روخ، وفر اسكندر مع اخيه جيهان شاه من ارض المعركة، ودخل القائد التيموري اذربيجان، وبعد ان رتب اوضاعها عاد الى خراسان. استغل اسكندر عودة شاه روخ الى بلاده، فجمع قواته وهاجم الحاميات التيمورية في اذربيجان، فطردها واستعاد البلاد، وهاجم شروان وأران وبلاد الاكراد، واستولى على السلطانية التابعة لشاه روخ في عام 1429، فاضطر الحاكم التيموري للعودة الى اذربيجان للمرة الثانية لتأديب اسكندر، فاصطدم به في سلماس في اذربيجان، وعلى الرغم من استبسال الامير التركماني الا انه تعرض لهزيمة قاسية، وفر من ارض المعركة باتجاه الاناضول، وعاد شاه روخ بعد انتصاره الى خراسان. وفي الوقت الذي كان اسكندر يقارع بقايا الامبراطورية التيمورية اندلع الصراع على العراق، ففي عام 1421 راسل اكثر وجهاء بغداد السلطان اويس الثاني الجلائري الذي كان يحكم شوشتر من اجل استعادة بغداد وبالفعل قدم هذا وحاصرها، الا ان امر المراسلة قد انكشف فامر محمد شاه بالقبض على جميع من لهم علاقة بها وعددهم احد عشر شخصا، وقتلهم، اما اويس الثاني فقد فشل هجومه وقتل. هذا ولم ينجو العراق من هجمات الامبراطورية التيمورية، ففي عام 1434 ارسل ابراهيم بن شاه روخ الذي كان حاكما على شيراز من قبل والده جيشا الى البصرة للسيطرة عليها، ووقعت معركة بين اهالي البصرة والقوات التيمورية التي هزمت فيها وتراجعت. ثم تعرضت بغداد الى هجوم واسع في العام نفسه شنه اسبان بن قره يوسف في محاولة لانتزاع الولاية من اخيه محمد شاه، وبعد معارك طاحنة سيطر اسبان على بغداد والحلة وواسط، وهرب محمد شاه ثم قتل. وحكم اسبان بغداد بصورة مستقلة عشر سنوات حتى وفاته في عام 1444. وقد اراد اسبان السيطرة على اربيل فارسل حملة حاصرت المدينة، فلما عجز عن احتلال القلعة، ارسل بعض جنوده اليها بحجة هروبهم منه، وارسل معهم سماً ليرمونه في ابار القلعة، ففعلوا ذلك، مما ادى الى وفاة عدد كبير من الناس نتيجة تسميم مياه الابار مما سهل عليه احتلال القلعة.

اما اسكندر فقد واجه حملة ثالثة من قبل شاه روخ في عام 1435 نتيجة استعادته لأذربيجان مرة ثانية. ولكن انضمام جيهان شاه وبعض امراء القره قوينلو الى صفوف

التيموريين، بعد فشل اسكندر في حسم الصراع لصالحه مع شاه روخ، اجبر اسكندر على الفرار من امامه من دون قتال، متوجها الى الاناضول للاحتماء بالعثمانيين، وقد تصدى له قره عثمان البايندري قرب ارزنجان لقطع الطريق عليه، لكنه جرح في القتال الذي جرى بينهما وتوفي على اثرها في اب 1435. وقد استاء اسكندر من انقلاب اخيه عليه وانضمامه الى شاه روخ فهاجمه الا انه تعرض للهزيمة وفر الى نخجوان، حيث قتل على يد ابنه قباذ في عام 1437. خلفه اخاه جيهان شاه، الذي وصلت امارة القره قوينلو في عهده الى ذروة قوتها، وكان تابعا لشاه روخ الذي اضاف اليه حكم فارس وكرمان والعراق، الذي يحكمه فولاذ ابن اسبان، فقاد جيهان شاه جيشه وحاصر بغداد في عام 1445 مدة ستة اشهر تمكن في نهايتها من دخولها فخربها وسجن فولاذ الذي لم يلبث ان توفي في سجنه، وقد ربطت بغداد مباشرة بتبريز، ووليها ابن السلطان جيهان شاه محمدي ميرزا(1447-1449) ، ثم حكمها بعده ابنه الاخر بير بوداق(1449-1467). وكانت وفاة الحاكم التيموري في عام 1447 قد غيرت الاوضاع السياسية في المنطقة، فقد اعلن جيهان شاه استقلاله عن التيموريين، وتمسك بما تحت يده من املاك، واراد ان يتوسع على حسابهم، فزحف شرقا واستولى على سلطانية وقزوين واصفهان في عام 1452 وفارس وكرمان في العام التالي وتلقب بلقب سلطان وخاقان، ثم استولى على هراة عاصمة التيموريين في عام 1458، غير انه توقف عن الزحف فجأة، ويعود السبب في ذلك الى ان توسع جيهان شاه اثار ضده كلا من ابي سعيد بن شاه روخ الذي نهض من تركستان على رأس جيش كبير لاستعادة املاك التيموريين ولاسيما العاصمة هراة، واوزون حسن زعيم الاق قوينلو الذي خشي من ان يهدد جيهان شاه املاكه في ديار بكر. وواجه جيهان شاه خطرا ثالثا تمثل بثورة ابنيه حسن علي في اذربيجان، وبير بوداق حاكم فارس والعراق، وكان قد استولى على بغداد واعلن ثورته منها. وهكذا وقع جيهان شاه بين فكي كماشة، التيموريين من الغرب والاق قوينلو من الشرق، فاضطر عن التوقف عن متابعة الزحف للاستعداد لمواجهة هذه الاخطار. وقد عمل جيهان شاه على تصفية مشاكله مع ابي سعيد فعقد صلحا معه تنازل له بموجبه عن خراسان وعاد الى تبريز.

لقد شجع الصراع المتواصل بين القره قوينلو وبقايا الامبراطورية التيمورية، بير بوداق على الاستقلال عن حكم ابيه السلطان جيهان شاه، وكان بير بوداق قد اظهر طموحا كبيرا لمد نفوذه على اجزاء اخرى من ممتلكات القره قوينلو، دفعه للإغارة على مناطق تعد اداريا ضمن نفوذ امراء اخرين من عائلة القره قوينلو. كما انه لم يتوان عن الزحف الى تبريز منتهزا فرصة غياب ابيه جيهان شاه عنها وانشغاله في بلاد الكرج، وذلك خوفا من ان تقع بيد غيره اذا ما طرأ حادث لوالده. ولكنه عاد ادراجه الى بغداد بعد عودة جيهان شاه معتذرا بخوفه من سيطرة امراء اخرين من القره قوينلو عليها. وقد اضطر جيهان شاه الى قبول هذا العذر على مضض منه. والملاحظ ايضا ان بير بوداق كان يتطلع دائما نحو شيراز، لذا فانه عمل ما في وسعه من اجل مساومة والده وحثه لضمها الى دائرة نفوذه، وقد شجعته على ذلك طلبات ابيه المتكررة لتعزيز نفوذ القره قوينلو في فارس. ففي عام 1452، قاد بير بوداق حملة من اجل الاستيلاء على شوشتر من اجل ضمها الى دولة القره قوينلو، بعد وفاة سلطانها محمد بن بايسنقر التيموري، فكان له ما اراد. وبعد عامين ترأس بير بوداق مع ابيه لاستعادة اصفهان الى حظيرة الدولة، وفي عام 1460 قاد حملة ثانية لقمع عصيان اندلع في اصفهان ايضا. ويبدو ان جيهان شاه اقتنع في النهاية بضرورة مكافئة ابنه، الا انه كان يخشى من تعاظم نفوذ ولده بحيث ينتهي به الامر الى السيطرة على تبريز نفسها، فعرض على ابنه حكم شيراز بعد ان الت اليه مدينة شيراز والتخلي عن بغداد، ولكن بير بوداق كان يطمع بالاثنين معا، فتجاهل عرض ابيه مفضلا حكم بغداد على شيراز ولعل السبب في ذلك هو ان بغداد البعيدة نسبيا عن مركز دولة القره قوينلو في تبريز التي كانت في وضع استراتيجي افضل من شيراز. لا شك ان سياسة جيهان شاه هذه تركت اثارا سيئة لدى بير بوداق لذلك نراه يعمد الى جمع ارباب الحرف والصناعات في مدينة شيراز فيلحقهم بركبه ثم يسرع الخطى نحو مدينة بغداد خشية وصول امير جديد عليها، فلما وصلها عام 1462 عمل على قطع الاموال عن ابيه مدة ثلاث سنوات على التوالي، الامر الذي ادى الى نشوب الحرب بينهما. لذا توجه جيهان شاه الى بغداد ووصلها عام 1466، وفرض عليها الحصار. شعر بير بوداق بان حكمه شارف

على الزوال، ولذلك قرر التشبث والمقاومة حتى النهاية. اما جيهان شاه فلم يكن امامه سوى القضاء على بير بوداق الذي اجبره على قيادة حملة توجه خلالها من تبريز الى بغداد. ومهما يكن من امر فقد كان الحصار شديدا على اهالي بغداد الذين لاقوا الامرين من عنت وعناد المقاتلين. وشهدت المدينة مجاعة مخيفة اضطرت الكثير من السكان الى ترك المدينة واللجوء الى معسكر جيهان شاه مجازفين بحياتهم بالرغم من العقوبات الصارمة التي كان بير بوداق يوقعها بالفارين أو بذويهم واخيرا استسلم بير بوداق وطلب الامان وهكذا فتحت ابواب بغداد عام 1467 غير ان بير بوداق لقي حتفه على يد اخيه محمد ميرزا.

اما ثورة حسن علي الابن الثاني لجيهان شاه فقد نجح الاخير من اخمادها، ثم التف لحسم الصراع مع الاق قوينلو. وكان اوزون حسن زعيم قبيلة الاق قوينلو في ديار بكر قد اغتنم حالة الانشقاق التي حدثت بين جيهان شاه وولداه، وما رافق ذلك من اضطراب، فمد سلطته الى المناطق المجاورة التابعة للقره قوينلو، فزحف جيهان شاه على رأس جيشه الى ديار بكر في عام1467، غير ان شتاء ذلك العام كان قاسيا فتعذر عليه متابعة الزحف وتوقف في سنجاق، فباغته اوزون حسن وقتله وهو يهم بالفرار وذلك في 11 تشرين الثاني 1467، كما اسر ولداه محمدي ميرزا، وابو يوسف ميرزا. ثم سار اوزون حسن بعد انتصاره الى بغداد وحاصرها ولكن حاميتها قاومت، فاضطر الى رفع الحصار، والتوجه الى تبريز للقضاء على حسن علي الذي تولى السلطة هناك بعد مقتل والده جيهان شاه، وكان دولة القره قوينلو قد تضعضعت بعد مقتل جيهان شاه، وفقدت اهميتها ولاسيما في عهد ابنه حسن علي، الذي لم يحسن تدبير الامور، واسرف في تبذير الاموال، وقتل عددا من امراء القبيلة، ولما تعرض لهجوم اوزون حسن هرب الى همدان وربما قتل على يد احد اتباعه أو انتحر في نيسان 1469، كما قتل اخوه ابو يوسف عندما حاول احياء الامارة في فارس. وفي بغداد الت حكومتها الى الامير بير محمد الطواشي بن زينل الذي اشترك في قتل بير بوداق وحكمها مدة ثلاث سنوات(1467-1470)، ثم تولاها الامير حسين علي بن زينل مدة عام واحد، واخيرا تولاها منصور بن زينل قرابة شهرين الذي بمقتله انقرض حكم قره قوينلو في العراق ليبدا عهد امارة تركمانية جديدة هي الاق قوينلو .

ـ العراق في عهد سيطرة الاق قوينلو.

وهي من بين الامارات التي اقامتها العشائر التركمانية النازحة من تركستان الغربية الى اذربيجان والاناضول في اواخر القرن الثالث عشر، وعرفت باسمها لاشتهارها باقتناء الشياه البيض. وكان لها عند بداية ظهورها، قوة ونفوذ نظرا لاتباعها سياسة مؤيدة لتيمورلنك، وحصل زعيمها بهاء الدين عثمان قره يولك البايندري على مكانة مرموقة، وثبت اقدام امارته في ديار بكر واتخذت امد عاصمة لها. وقد تمكن من تحقيق نصر على حاكم طرابلس المملوكي برسباي الذي حاول مد النفوذ المملوكي الى امد، ثم سرعان ما دحر حاكم سيواس برهان الدين واستولى على المدينة. ولكنه اصطدم مع سلطان القره قوينلو اسكندر بن قره يوسف عام 1435 في معركة هزم على اثرها ثم توفي، تاركا حكم الامارة الى ابنه حمزة بيك، في وقت كان ولده الاخر يعقوب يحكم ارزن الروم شريكا مع ابن عمه جهانكير بن علي بيك بن عثمان. وبعد وفاة حمزة بيك عام 1444 تولى الحكم جهانكير بن علي بيك، ولكن سرعان ما انتزع اخاه اوزون حسن بن علي بيك الحكم منه عام 1454. وقد ازدادت قوة الامارة في عهده ونافست غريمتها امارة القره قوينلو، فاستولى اوزون حسن على ارمينيا الغربية والوادي الاعلى لنهر دجلة وادخل الاكراد في هذه المنطقة في طاعته، وتمكنت من القضاء عليها في معركة حاسمة التي دارت في ديار بكر عام 1467، حينما قتل عاهلها جيهان شاه، وضم لإمارته ممتلكاته كافة ومنها العراق.

ان سيطرة اوزون حسن على املاك دولة القره قوينلو وضعته وجها لوجه امام ابي سعيد الحاكم التيموري لخراسان الذي خرج على رأس جيش كبير الى اذربيجان

لاستعادة حقوقه في غربي ايران، الا انه هزم امام اوزون حسن عام 1469 الذي سيطر بعد ذلك الانتصار على جميع انحاء ايران واتخذ تبريز عاصمة له. من جهة اخر كان اوزون حسن يشعر بالخطر العثماني على ممتلكاته لذا سارع الى عقد معاهدة مع دولة البندقية ضد الدولة العثمانية وبذلك اخذ اوزون حسن يشكل عقبة امام التوسع العثماني في الشرق، وكان اوزون حسن قد ارسل قوة عسكرية عام 1471 وصلت الى توقات في الاناضول وبعد ان نهبتها وصلت الى بلاد قرمان، ولكن اشتبكت مع الجيش العثماني الذي يقوده مصطفى ابن السلطان محمد الفاتح وتمكن من دحر قوات الاق قوينلو، لكن ذلك لم يثنيهم، اذ سرعان ما تحرك اوزون حسن بعد عامين واصطدم بالعثمانيين في معركة عند مدينة بابيرت في اذربيجان اسفرت عن هزيمة ثانية للاق قوينلو.

اما العراق فقد تولى حكمه مقصود بيك بن اوزون حسن، وقد نال شيئا من الاستقرار والعناية، ولكن سرعان ما شاع الارتباك في الامارة اثر وفاة اوزون حسن في عام1477 بسبب الصراع على السلطة بين اولاده واحفاده، اذ تولى العرش السلطان خليل بن اوزون حسن الذي لم يدم حكمه سوى اقل من ستة اشهر اظهر فيها تعسفا، وانغماسا باللهو والترف، فاندلعت حركات التمرد، اذ ثار ابن عم السلطان خليل المدعو مراد بن جهانكير حاكم بغداد، وحاول احتلال مدينة السلطانية، الا انه اندحر امام قوات السلطان وقتل. والتف الامراء الناقمون على خليل حول اخيه يعقوب بيك وهو الابن الثالث لأوزون حسن واسندوا ثورته في ديار بكر، فتشجع يعقوب بيك، وتقدم بجيشه الى اذربيجان، واوقع هزيمة ساحقة بقوات السلطان وقتله واعلن نفسه سلطانا في تبريز عام 1478، وظل يحكم حتى عام 1490، وتمتعت الامارة خلال تلك الحقبة بشيء من الاستقرار. وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات، وكثرت الحروب الاهلية بين مختلف الطامعين من السلالة الحاكمة، وادى ذلك الى تفكك سلطة الاق قوينلو، وقد اصبح العراق اقليما مهملا من دولة مجزأة يتنافس فيها الطامعون لفرض سيطرتهم بالسلب تارة والقتل تارة اخرى. وقد

تولى الحكم بعد يعقوب اخيه مسيح بيك، الا ان انشقاق حدث بين امراء الاق قوينلو اسفر عن اختيار علي بيك بن خليل بيك، ولكن الامور لم تهدأ وانتهت بتولي بايسنقر بن يعقوب العرش وهو فتى في العاشرة من عمره فطمع الامير رستم بن مقصود بالعرش ونجح في دحر قوات بايسنقر ودخل العاصمة تبريز في عام 1491 مجبرا السلطان على الفرار. وتتابعت حركات التمرد والعصيان في عهد الغاصب الجديد ولم تنته الا بعد ان تمكن الامير احمد من احفاد اوزون حسن من دحره وقتله عام 1495، وقد اعلن احمد نفسه سلطانا، ولكن حكمه لم يدم اكثر من ستة اشهر قتل على يد مراد بن يعقوب، وسرعان ما اعلن ثلاثة من الامراء في وقت واحد انفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة مراد وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة. وفي مطلع عام 1500 انقسمت ممتلكات دولة الاق قوينلو بين الوند ميرزا والسلطان مراد، وكان الاول يحكم اذربيجان، والثاني يحكم اقليم الجبال، وهناك عدد كبير من امراء الاق قوينلو يحكمون فارس ويزد وكرمان والعراق وديار بكر بصورة مستقلة، ولا يدينون بالطاعة للسلطان مراد أو الوند ميرزا. وفي هذه الفوضى تردت الاوضاع الى حد كبير ولم ينقذ الوضع المتردي سوى ظهور اسماعيل الصفوي شاه ايران الجديد الذي اخذ على عاتقه توحيد ايران تحت سلطته، وقد حقق انتصارا على حاكم الاق قوينلو الوند ميرزا بن يوسف بيك بن اوزون حسن عند نخجوان في عام 1501 وضم اذربيجان الى املاكه. ومن خلال هذا الاستعراض السريع للمنازعات والحروب الاهلية التي عمت الامارة، يتبين لنا ان العراق في هذا العهد مر بسلسلة من الاضطرابات كانت جزء من فوضى عامة سفكت خلالها دماء العراقيين ارضاء لجشع المتنافسين وتسابقهم على السلطة ومحاولاتهم لجمع وتكديس الاموال وصرفها على ملاذهم الخاصة، ولم يكن احدهم اذا ما نجح مؤقتا في الوثوب الى الحكم، ان يفكر في القيام أي اصلاحات للوضع في العراق.

ـ موقف العراقيون من سيطرة القره قوينلو والاق قوينلو على العراق

بعد سقوط الحكم الجلائري وتسلط القوى الغازية الجديدة من القره قوينلو، سادت العراق حالة من الفوضى والتصارع العسكري فيما بينهم من جهة، وبين بقايا الجلائريين في العراق من جهة ثانية، وبقايا الامبراطورية التيمورية في فارس من جهة ثالثة، واصبحت السلطة معدومة واشبه ما تكون من دويلات المدن الى حكومة مركزية قوية، وهذا ما ساعد على افساح المجال بشكل اوسع امام الاحلاف القبلية العربية، لتكون صاحبة السلطة الحقيقية في البلاد، وقد تصدت تلك القبائل لسلطة المحتلين كما هو الحال في الحقب السابقة وبدأت بمد نفوذها وتوسيع سيطرتها باتجاه المدن العراقية التي بقي بعضها بيد القوى الاجنبية. والقوى القبلية العربية الموجودة في هذه الحقبة تمثلت بمشيخات عديدة مثل مشيخة بني اسد في الاحواز، والمنتفك في الفرات الادنى، وعنيزة في ضواحي الانبار، وبنو شيبان في الموصل، وال جود ،وال جحيش في جهات الحلة. وعلاوة على ال الفضل الطائيين في المناطق الغربية من الفرات وامارة المشعشعين التي تجمعت تحت نفوذها مجموعة من القبائل العربية مثل قبيلة عبادة وبني ليث وبني حطيط وبني سعد وبني اسد وفروع من بني طي.

وقد اضطلعت هاتان الامارتان(امارة ال فضل والمشعشعين) بدور مهم في التصدي لحكم القره قوينلو، وفي الحقيقة لم يكن النشاط العسكري للطائيين جديدا وانما امتدادا لمقاومتهم السابقة في فترات الايلخانيين والجلائريين والتيموريين. ففي المناطق الغربية من العراق استطاعت قبيلة ال فضل ان تقيم امارة مركزها الرحبة وتضم كلا عانة والحديثة

في الانبار، لها كيانها المستقل عن دولة القره قوينلو ويتناوب رئاستها الامراء العرب انفسهم. وكان نفوذ هذه القبائل يمتد احيانا الى مناطق اوسع من تلك التي تحت سيطرتها، الى مناطق تقع ضمن النفوذ السياسي للقره قوينلو، فهاجم عذرا بن علي بن نعير امير ال فضل مدينة الحلة عام 1421، على اثر خلاف وقع بين عرب ربيعة هناك، وقد تمكن من دخولها للحيلولة دون سقوطها بيد القره قوينلو، وعين فيها نائبا عنه لحكمها، وفعلا اخرت هذه العملية العسكرية سقوط الحلة بيد القره قوينلو مدة تقارب عشر سنوات. وقام الشيخ مدلج بن علي بمواصلة شن الهجمات ضد مراكز القره قوينلو. ففرضت الامارة بذلك وجودها ونفوذها على مناطق اعالي الفرات والحلة بفضل قواها العسكرية، وهذا ما جعل حكام القره قوينلو يسترضون شيوخ هذه الامارة ويستعينون بهم في نزاعاتهم الداخلية. ففي عام 1432 استقبل الشيخ حارث بن عذرا حاكم حديثة-الذي كان يتظاهر بالولاء لسلطة القره قوينلو-محمد شاه حاكم بغداد على اثر خلافه مع شقيقه اسبان فصحبه الى الموصل حيث تمكن الحاكم التركماني من الاستيلاء على الموصل واربيل، فاقطع الموصل للشيخ العربي. وقد ساعدت تلك النزاعات على استمرار وتوسيع نفوذ الامارة وتصاعد قوتها العسكرية حيث شمل علاوة على المناطق السابقة منطقة الجزيرة والموصل.

والامارة العربية الثانية التي اضعفت وجود القره قوينلو في العراق وارهقتهم عسكريا فكانت امارة المشعشعين التي اسسها محمد بن فلاح المشعشع(1440-1461) الذي بدأ بالسيطرة على الحويزة التي كانت خاضعة لإيران عام 1441. وقد اتخذ المشعشع من مدينة الحويزة مركزا لنشاطه العسكري في مواجهة القره قوينلو والفرس، وبدأ يشن هجمات على البصرة وواسط والحلة ثم بغداد، وقد تمكن من اقامة امارة ضمت فضلا عن الاحواز العراق الاوسط والجنوبي تعاقب على حكمها اولاده واحفاده لفترة طويلة. من الجدير بالذكر ان المنطقة التي اختارها محمد بن فلاح المشعشع للقيام بحركته كانت عاملا مساعدا على نجاحها، وهذه المنطقة هي الجزائر(البطائح) التي تمتد بين واسط والبصرة والاحواز، وهي منطقة مستنقعات واسعة صعبة المنال لمن اراد التوغل فيها. وقد خشي حاكم بغداد اسبان

بن قره يوسف من تعاظم قوة المشعشعين، فزحف اسبان بجيشه باتجاه الحويزة وتمكن من السيطرة عليها، وعلى اثر ذلك اتجه محمد المشعشع الى منطقة الدوب وهي قرية تقع بين العمارة والحويزة، التي لم يكن بوسع اسبان الوصول اليها فتراجع نحو البصرة، اما المشعشع فقد قام بمراسلة غانم بن يحيى حاكم البصرة العربي، بشأن التعاون بينهما للقضاء على اسبان بيد ان امر هذه المراسلة قد وقع بيد اسبان، لكن محمد بن فلاح من جانبه هاجم السفن التي ارسلها اسبان من البصرة الى واسط وقتل من كان بها من جنده. وبدأت قوة المشعشع تزداد بعد عام 1450 بانضمام قبائل عربية جديدة تحت سلطته، ثم جهز جيشا على واسط فحاصرها وضربها بالمنجنيق وعين عليها شخصا لحكمها من قبله يدعى دراج. وفي عام1454 توجه علي بن محمد المشعشعي بحملة عسكرية الى النجف. وبسبب هذا الواقع اضطرت حكومة القره قوينلو في بغداد الى ارسال جيش لمقاتلته بقيادة دوه بيك وانظمت اليه قوات عسكرية من الحلة وتمكن المشعشع من دحر قوات القره قوينلو وهرب قائد الحملة ومعه بسطام حاكم الحلة وقواتهم العسكرية، فتابع المشعشعون القوات المهزومة الى الحلة والحقوا بها هزائم جديدة فاضطر الحاكم بسطام الى الانسحاب الى بغداد. وواصل المشعشعون هجماتهم على المدن الخاضعة للقره قوينلو ففي عام 1456 توجه علي المشعشع الى مهرود وبعدها بعقوبة حتى وصل الى المدائن بالقرب من بغداد، ولم تقتصر عمليات الامير المشعشعي على العراق بل امتدت لتشمل شيراز عاصمة بير بوداق ولكنه لم يتمكن من احتلالها. وقد اتسع نفوذ المشعشعين على عهد محسن بن محمد بن فلاح(1461-1499) الذي امتدت املاكه الى انحاء واسعة من الاحواز ووسط وجنوب العراق وسواحل الخليج العربي. وقد تمكن الامير محسن المشعشع من الاستيلاء على الحلة قبل وفاة جيهان شاه وبقيت بيده الى عام 1467. ويظهر من العمليات العسكرية السابقة ان المشعشعين كان لهم التفوق العسكري على القره قوينلو من جنوب بغداد ووسط العراق والاحواز الى رأس الخليج العربي ووقوف امراء القره قوينلو عاجزين عن الحد من سيطرتهم ونفوذهم وايقاف عملياتهم العسكرية، ويدلل ذلك بوضوح على التطور الذي طرأ

على الامكانية العسكرية للقبائل في ظل الامارة العربية، فلولا تنظيمها وحسن تسليحها وانضباطها لما استطاعت تحقيق هذه الانتصارات العسكرية على القره قوينلو. كما ان هجمات المشعشعين العسكرية على المدن والمناطق الريفية الاخرى في وسط العراق في حقبة الاق قوينلو لم تتوقف، اذ اغتنم الامير محسن بن محمد المشعشع فرصة موت اوزون حسن عام 1477 فقام بالإغارة على اطراف الحلة وبغداد، مهاجما كل المناطق التي كانت تقع تحت سيطرة حكام الاق قوينلو، وقد رجعت قوة المشعشعين دون أي مقاومة تذكر من حكومة الاق قوينلو في بغداد، هذا مما دفع الامير المشعشع الى مهاجمة الاق قوينلو فوصل في عام 1478 الى نواحي بغداد من جديد ودخل ديالى ومضى الى الخالص. لقد اثار امتداد نفوذ المشعشعين سلطات الاق قوينلو، لذلك فان السلطان يعقوب الذي اعقب والده اوزون حسن عام 1478 اتخذ اجراءات جديدة لمواجهتهم كان في مقدمتها عزل حاكم بغداد المسمى كلابي لاتهامه بالتقصير في صد الهجمات التي تعرضت لها بغداد. كما قرر السلطان يعقوب توجيه ضربة قوية للمشعشعين في عام 1484، فوجه القائد بايندر الى العراق للذهاب الى الجزائر عبر بغداد، واوعز الى امراء فارس الاخرين بالتوجه الى الحويزة وشوشتر للتعرض لممتلكات محسن المشعشع، ويبدو ان هذه الحملة قد تمكنت من المشعشع والحقت به هزيمة في عقر داره، فضلا عن ذلك فقد استغل يعقوب الخلافات التي وقعت بين محسن المشعشع واولاده فتدخل لمناصرة الامير حسن وأواه في بلاطه. وقد ظل المشعشعون يتمتعون رغم الحملة السابقة بنفوذ كبير في العراق والاحواز حتى عام 1508. وفضلا عن قوة المشعشعين اخذ نفوذ امراء العرب الاخرين مثل المنتفك في عهد سيطرة الاق قوينلو بالتزايد، فاستولوا على الجزائر والبصرة الى حدود الرماحية والحلة. كما ظلت سيطرة ال فضل من الطائيين في اعالي الفرات وغربه هي الغالبة وهكذا ظل نفوذ الاق قوينلو ضيقا ومقتصرا على بعض المدن لا يستطيع التحرش بقوة تلك القبائل أو التأثير عليها.

ـ الاوضاع العامة في العراق
خلال عهد سيطرة القره قوينلو الاق قوينلو.

دام حكم القره قوينلو ستين عاما كانت البلاد خلالها مسرحا للتطاحن بين الامراء المتنافسين من الاسرة الحاكمة، وقد ترك هذا التطاحن حالة مريعة من الفوضى والاضطراب، كان من مظاهرها البارزة اعمال التخريب والفتك بالسكان، فضلا عن نهب المدن وانتشار الامراض والاوبئة، وحدوث المجاعات.

ان السياسة التي اتبعتها دولتي القره قوينلو والاق قوينلو الاقتصادية استهدفت السيطرة على جميع موارد العراق الاقتصادية، وقد انحصرت هذه السياسة ما بين الاستحواذ الكامل على مرافق البلاد الاقتصادية الزراعية منها والتجارية أو التصرف بها دون مراعاة لمصلحة البلاد، الى الاستيلاء المتكرر على ثروات السكان الخاصة من خلال السلب والنهب، أو من خلال فرض ضريبة الامان(الحماية) على الناس، أو جباية الاموال منهم دون وجه حق. لقد اضرت هذه السياسة كثيرا بمصلحة البلاد والناس، وهو امر نلمسه بصورة واضحة لدى حكام القره قوينلو المتعاقبين. فالقره قوينلو بعد استيلاءهم على العراق قسموا اهم مدنه على شكل اقطاعيات ما بين افراد هذه الاسرة، وهذا ما نجده بالنسبة لمناطق الدجيل وحربي والخالص وكركوك واربيل والتون كوبري والموصل. وليس ذلك فحسب بل ان العراق احيانا كان يعد اقطاعا لحكام القره قوينلو في تبريز، كما حدث خلال حكم الشاه محمد بن قره يوسف الذي عصى والده في دفع ما بذمته من اموال مقررة، فهاجم قره يوسف بغداد وحاصرها وحصل على الاموال. وتصرف حكام القره قوينلو بأموال حكومة بغداد بشكل مسرف، من ذلك ان احد الامراء التركمان ويدعى شيخي بيك، قام في اثناء

توجه جيهان شاه لمحاصرة بغداد عام 1445، فتح خزائن بغداد وقسمها على الجند من اجل حثهم على مقاومة الحصار الامر الذي سبب انهيار قيمة النقود. وصاحب دخول حكام القره قوينلو الى بغداد فرضهم ضرائب على الناس، تعرف احيانا باسم ضريبة الامان أو الحماية، ففي عام 1434 عندما استولى اسبان على بغداد الزم الرعايا على دفع ما يستطيعون دفعه من الاموال لأغراضه الخاصة. وتكرر مثل هذا الامر ايضا عندما دخل بير بوداق الى بغداد عام 1461 فرض على اهلها مبلغ 1800 تومان، وعندما عجز البغداديون عن دفعه عمد الى تعذيب الاهالي بغية استحصاله منهم قسرا. والاكثر من هذا سوء فقد تحولت ضريبة الامان على يد القره قوينلو حتى اصبحت نوعا من الالتزام مقابل مبلغ من المال، فبير بوداق قد اوكل جمع هذه الضريبة على شخص يدعى فضيل تمغاجي بغداد فراح هذا يجمعها بمنتهى القسوة والوحشية حتى ضجر الناس منه. وعمد بير بوداق الى الامر نفسه عند محاصرة والده جيهان شاه لبغداد عام 1464، اذ لما طالت مدة الحصار واراد الناس الخروج من المدينة اقترح عليه احد امرائه ويدعى حسين ترخان بان يأخذ اموال الناس قبل خروجهم من بغداد.

لقد كانت سلطة حكام قره قوينلو تتركز في داخل المدن، وهي في الغالب لا تتعدى اسوارها، لذلك كان سكان المدن هدفا لأية حملة عسكرية، اذ كان الالاف يقضون نحبهم اثناء الحصار أو عند اقتحام المدينة من قبل الجيوش المتحاربة. ففي عام 1446 وضع جيهان شاه السيف في اهالي بغداد حتى وصفت المصادر عمله بانه لا يقل وحشية عن اعمال تيمور لنك، كما تعرض الالاف من سكان بغداد للموت والتجويع اثناء حصار جيهان شاه لمدينة بغداد عام 1465، ويذكر ان بير بوداق ابن جيهان الذي اعتصم في مدينة بغداد اثناء حصارها المذكور، قد عامل البغداديين بمنتهى القسوة والوحشية، وذلك اعتقادا منه بأن اجراءاته هذه ستمنع الجنود والاهالي من الهرب، وكان من ضحاياه الكثير من ابناء وازواج الهاربين الذين القى بجثثهم في نهر دجلة تشفيا وانتقاما. وكان دخول جيهان شاه للمدينة اثر الحصار الاخير كارثة حقيقية فقد رافق ذلك قتال عدد كبير من السكان. كما كان كثرة الصراعات بين حكام القره قوينلو ادى الى نهب المدن اثناء تلك الحروب، وكان حكام القره

قوينلو يذيعون بين عساكرهم مدة محددة تستباح فيها المدن المحتلة، وذلك تشجيعا لقواتهم على اقتحام المدن المحاصرة. فمحمد شاه بن قره يوسف الذي احتل بغداد عام 1411 اجاز لقواته بنهب المدينة يوما كاملا، وهذا اسبان الذي ارتبط دخوله لمدينة بغداد بسلب جميع اموال الناس ونهبها وتشتيت الناس في البلاد وتعطيل الحركة الاقتصادية فيها. ولم يقتصر الامر على بغداد، بل امتد الى الموصل والنجف اللتين سلبت اموالهما، وجرد الناس فيهما عن كل ما يملكونه حتى تشتتوا في البلاد ووصلت منهم مجموعات الى بلاد الشام ومصر. ان هذه السياسة تركت انعكاسات سيئة على وضعية البلاد الاقتصادية، فمن ناحية انحسرت الحركة الاقتصادية بسبب هجرة الناس العاملين فيها، ومن ناحية اخرى عمل القره قوينلو على توطين العناصر الفارسية في العراق، بعد اجبار اهل البلاد على تركها. وفي عام 1447 دخل جيهان شاه بغداد واجاز لعساكره نهب المدينة ثلاثة ايام بلياليها، ولم يقتصر اعمال النهب والابتزاز على ايام حصار المدن واحتلالها، بل يمكن ان نقول ان عملية النهب والابتزاز كانت عملية منظمة يقوم بها حكام القره قوينلو حتى في الظروف والاحوال الاعتيادية ايضا. كما نتج عن اعمال النهب التي تعرضت لها المدن وابعاد السكان عن مراكز تلك المدن، تجريد المدن الرئيسة في العراق عن صفتها الحضرية، وتحولها من مدن قائمة على الانتاج المديني الى مدن قائمة على الانتاج الرعوي. وشملت اثار التخريب وزوال الصفة الحضرية عن عدة مدن منها: بغداد والموصل والنجف. ولم يختلف الاق قوينلو عن من سبقهم بشيء في سياستهم الرامية الى تهجير اهل البلاد. اذ تشير المصادر ان اوزون حسن هجر عددا كبيرا من اهل بغداد وضياعها الى ديار بكر وذلك بعد ان رفع حصاره عن المدينة عام 1467. وبلا شك فان مثل هذه الحالة كانت ذات مردود سلبي على النواحي الاجتماعية، ذلك لأنها تفكك التركيب الاجتماعي للسكان في المدن العراقية، فضلا عن مردوداتها الاقتصادية السيئة حيث انها تفقد هذه المدن العناصر القادرة على العمل فيها. وقد شهد العراق انتشار الامراض والاوبئة وهي نتيجة طبيعية لأحوال البلاد المتردية الناجمة عن تطاحن الجيوش والفتك بالسكان، واهمال السدود والقنوات، وكثرة المستنقعات.

ولاشك فانه في ظروف كهذه تكون الامراض المتوطنة مسألة طبيعية. كما ارتبطت حدوث المجاعات بظروف البلاد السياسية ولاسيما ابان حوادث حصار المدن، ففي عام 1430 وقعت مجاعة رهيبة في الحلة اثناء حصار اسبان لها. كما شهدت مدينة واسط مجاعة شديدة اثر حصار المشعشعين لها عام 1455. اما النواحي الادارية فلم تسجل خلال هذا العهد أي تطور اداري واضح لان العراق خلال حكم هذه الامارات التركمانية كان مسرحا للتطاحن بين امرائها، وبالتالي فيندر وجود أي انجاز اداري خلال هذه المدة، واكتفوا بالاعتماد على الانظمة الادارية السابقة في العراق.

ـ الاحتلال الصفوي الاول للعراق(1508ـ1534).

1. قيام الدولة الصفوية :

ان معلوماتنا عن اصل الاسرة الصفوية التي اسست تلك الدولة قليلة وغير واضحة. لقد عرفت الدولة الصفوية بهذا الاسم نسبة الى الشيخ صفي الدين اسحق الاردبيلي (1252/ 1253 - 1334م). وينتسب هذا الى اسرة ثرية معروفة في مدينة اردبيل الواقعة في الجزء الشرقي من اذربيجان . وقد ذاعت شهرته بوصفه وليا من الاولياء ومؤسس طريقة صوفية عرفت بالطريقة (الصفوية) وكانت هذه الطريقة واحدة من طرق صوفية عديده نشأت في انحاء المشرق الاسلامي ابان عهود الاضطراب والقلق السياسي. وكان الشيخ صفي الدين اسحق الاردبيلي رجلا زاهد درس العلوم الدينية والعقلية في صباه ثم تعمق في اسرار المحبة الالهية والصوفية، وتتلمذ على يد شيوخ عدة، وفكر بالرحيل الى فارس لكنه نزل في مدينة شيراز حيث اتصل بالشاعر سعدي الشيرازي، ونصحه الامير عبد الله الفارسي، وهو من اعيان شيراز، بالاتصال بالشيخ تاج الدين ابراهيم الجيلاني المعروف بالشيخ الزاهد، وظل صفي الدين يلازم هذا الشيخ بعض الوقت ثم زادت الصلة بينهما وتوثقت بزواج

الشيخ صفي الدين من فاطمة ابنة شيخه ومرشده . وحين احس الشيخ الزاهد الجيلاني بدنو اجله، اوصى بان يحل صفي الدين محله في رئاسة الطريقة التي كان يتوارثها عن الجنيد البغدادي عن السري السقطي عن معروف الكرخي، وحرم ابنه الذي كان يدعى جمال الدين من تولى هذا المنصب. وقد حظي صفي الدين الاردبيلي بمكانة كبيرة عند الايلخان ابي سعيد بهادر خان ووزيره رشيد الدين وابنه غياث الدين وغيرهم من امراء المغول. وقد انتقلت لصفي الدين رئاسة هذه الجماعة الدينية الكبيرة، ومشيخة هذه الطريقة الصوفية التي كان لها كثير من الاتباع والمريدين في جيلان وأذربيجان ويقال ان عددهم كان مائة الف مريد، منهم اثناء عشر الفا في حضرة الشيخ وكان له اربعمائة خليفة يتولون ارشاد هذه الجماعة والاشراف على شئونها. وتكمن اهمية الشيخ صفي الدين الاردبيلي في تحويله الطريقة الصفوية من مجرد طريقة صوفية محلية الى حركة دينية لم يقتصر نفوذها وتأثيرها ضمن حدود ايران حسب، بل في بلاد الشام والأناضول. وقد تحقق ذلك من خلال نشاط الدعاة الصفويين، الذين نجحوا خلال المراحل اللاحقة في كسب العديد من القبائل التركمانية في تلك الاتجاه وشكلت هذه القبائل التركمانية فيما بعد نخبة القوة العسكرية الصفوية(القزلباش). وبعد وفاة صفي الدين الاردبيلي عام 1334م تولى ابنه صدر الدين موسى مشيخة (بير او مرشد) الحركة الصفوية حتى عام 1392م . وكانت هذه الفترة تتسم بعدم الاستقرار في ايران ، وقد اشرنا الى ذلك سابقا بدء من وفاة السلطان ابو سعيد في 1335م وانتهاء بغزو تيمور لنك للمنطقة منذ 1381م . وفي مثل هذا الوضع واصل صدر الدين موسى الدعاية الصفوية بنشاط لكسب المزيد من المريدين. وبدأت في عهده تطلعات الاسرة الصفوية نحو العمل السياسي مما اثار ضده الحاكم المغولي في اردبيل الاشرف جوبان بن تيمور تاش الذي نفاه الى تبريز، لكن مكانة الشيخ صدر الدين موسى في نفوس الاتراك في اردبيل دفعت الحاكم المغولي الى اعادته، الا انه فكر في القضاء عليه ثانية عن طريق دس السم له، ولما علم صدر الدين موسى غادر اردبيل الى جيلان واستقر عند اخواله واتباع الشيخ ابراهيم الزاهد الجيلاني، مما اثار فزع الاشرف جوبان، وظل هناك الى ان

هاجم جاني بيك، حاكم القبيلة الذهبية المغولية، اذربيجان عام 1357 وانتزعها من ايدي الجوبانيين، وتمكن احد الامراء المغول ويدعى ارغون من قتل الاشرف جوبان، فعاد صدر الدين الى اردبيل. وتذهب المصادر التاريخية الى القول بان العديد من نبلاء المغول اصبحوا من مريديه وفي عهده ايضا وصل دعاة الحركة الصفوية الى مدينة هراة حيث اقام احد هؤلاء ويدعى (قاسم الانوار) مركزا للدعوة الصفوية فيها منذ (1377-1378م).

وقد انتقلت مشيخة الصفويين بعد صدر الدين موسى الى ابنه خوجة علي الذي لقب بـ(سياه بوش) أي لابس السواد، والذي ينسبون اليه- كما ينسبون لبقية زعماء هذه الاسرة تقريبا، الكثير من الكرامات خاصة مع تيمورلنك الذي كان يعتقد في هذا الشيخ اعتقادا كبيرا، من ذلك ما يروونه من ان تيمور اثناء عودته منتصرا من حربه ضد السلطان العثماني بايزيد مر بأردبيل وكان قد حمل معه عدد من الاسرى اغلبهم من رؤساء ورجال عشائر تركية هي روملو، شاملو، قاجار، استاجلو، افشار، بيات، ذو القدر، تكلو(تكه لو)، وانضم الى هذه العشائر والقبائل التسع فيما بعد صوفية قراباغ. وطلب تيمور من الشيخ علي سياه بوش ان يتمنى اي شيء فطلب منه الشيخ ان يطلق سراح الاسرى الروم (العثمانيين) الذين كانوا معه، فامر تيمور على الفور بأطلاق سراح هؤلاء الاسرى والسبايا، ولم يكتف بهذا بل اشترى تيمور ما حول اردبيل من مزارع وضياع من ماله واوقفها على زوايا الصفويين وتكاياهم في اردبيل ، كما منح خراج تلك البلاد لهذه الاسرة وخصصها لهم. وهكذا اجتمعت لهذه الاسرة كل مقومات الرئاسة والزعامة دون مشقة، اذ انتقلت الى صفي الدين رئاسة جماعة دينية كبيرة دون ان يشقى في تكوينها او يتعب في انشائها ، ثم منح تيمور لحفيده الشيخ علي اعدادا كبيرة من الاسرى الاتراك اصبحوا من مريدي هذه الاسرة واتباعها المخلصين وكونوا قوتها الضاربة كما سنرى، بل اصبحوا عصب الحركة الصفوية كلها وعرفوا باسم (القزلباش) لاحقا. وبعد وفاة خوجة علي عام 1427 أو 1428 في فلسطين وهو عائد من اداء فريضة الحج، تولى ابنه ابراهيم مشيخة الصفويين واستمر فيها لحين وفاته عام 1447 وعندها تولى ابنه جنيد المشيخة.

تعد فترة جنيد(1447-1460م) من المراحل المهمة في تاريخ الحركة الصفوية، ففي عهده اتخذت الحركة الصفوية طابعا سياسيا واضحا . فقد كان جنيد اول زعيم صفوي يعبر علنا عن طموحه في ان يصبح ملكا(باد شاه) الى جانب كونه مرشدا روحيا للصفويين. ولتحقيق ذلك نظم جنيد الحركة الصفوية على اسس عسكرية، وجعل اتباعه يظهرون مظاهر التقديس تجاهه الى حد العبادة. وقد كان هذا الامر مثار قلق جيهان شاه اخر حكام دولة القرة قوينلو في ايران . ولذا فانه أمر جنيد بان يفرق اتباعه ويرحل عن اردبيل، وهدده بتدمير اردبيل ان لم يستجب لذلك، فترك جنيد اردبيل وامضى بضع سنين متنقلا في الاناضول وبلاد الشام الى ان دعاه حاكم الاق قوينلو اوزون حسن الى بلاطه في ديار بكر عام 1456م، وكانت علاقات الاخير عدائية مع القرة قوينلو أيضا . وقد امضى جنيد ثلاث سنين (1456-1459م) في بلاط اوزون حسن وتزوج من خديجة بيكوم شقيقة اوزون حسن . ومن هناك حاول جنيد استرداد اردبيل سنة 1459م ، وعندما اخفق في ذلك توجه بقوته لقتال الشراكسة، ولكنه قتل في اذار 1460 م على يد حاكم مقاطعة شيروان، الواقعة قرب مدينة باكو جنوب القفقاس، عند مروره (اي جنيد) بأراضيه متوجها لقتال الشراكسة.

استمر التحالف بين الصفويين والاق قوينلو في عهد الشيخ حيدر الذي تولى زعامة الحركة الصفوية بعد مقتل ابيه جنيد، وعزز حيدر هذا التحالف بزواجه من ابنة اوزون حسن. وفي عهد حيدر اتخذ الصفويون غطاء رأس مميز لهم يسمى (تاج حيدري)، وهو عمامة حمراء ذات 12 طية(لفة) ترمز الى الائمة الاثني عشر، ومن هنا كانت تسمية الصفويين بـ(القزلباش) وهي تسمية تركية معناها الرؤوس الحمراء دلالة على لبس العمامة الحمراء. ومع ان مدلول القزلباش اختلف من وقت لأخر ومن منطقة لأخرى الا ان استخدمت عموما للدلالة على القوة العسكرية الصفوية المؤلفة من القبائل التركمانية. وتشير الروايات الصفوية الى السبب في لبس هذه العمامة، اذ يذكر ان حيدر شاهد الامام علي بن ابي طالب(ع) في المنام وقد صنع له عمامة من الصوف الاحمر بها اثنا عشر لفة. وقد وهب السلطان حيدر عمامة من هذه العمائم لكل واحد من اتباعه ومرديه او طلب منه عملها ولبسها، وبهذا تميزت

هذه الجماعة او الفرقة الصوفية بهذا الزي المميز، وقد اصبحت هذه الفرقة في عهد حيدر جماعة مستقلة. وقد وافق اوزون حسن على هذا الاستقلال والانفراد بلبس عمامة مميزه للجماعة تميزها عن سائر الناس.

لقد اخذ التحالف بين الصفويين والاق قوينلو يضعف تدريجيا بعد نجاح الاق قرينلو في القضاء على دولة القره قوينلو ،ومن ثم تولتيهم حكم مناطق مهمه في ايران.

بوفاة اوزون حسن سنة 1478م انتهى ذلك التحالف تماما. وتفسير ذلك ان الاق قوينلو صاروا، بعد تولي مقاليد الامور في ايران، هدفا للمطامع السياسية والعسكرية للأسرة الصفوية التي كانت قد عادت الى اردبيل. ومن جهة اخرى ادرك الاق قوينلو، شأنهم في ذلك شأن القره قوينلو سابقا، الابعاد السياسية للحركة الصفوية ولذا عملوا على محاصرتها بغية القضاء عليها. فلما توفى اوزون حسن وخلفه ابنه السلطان يعقوب (1478-1490م) منع الناس من لبس العمائم الحمراء وتوعد من يلبسونها بأشد العقاب، ولم يجد حيدر مفرا من ترك أردبيل والخروج بدعوى الجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام في ديار الكفار، لذا فقد غزا الكرج مرتين عامي 1483 و1487، لتأمين موطئ قدم أو غنائم تساعده في تموين جيشه بعد ان حصل على اذن خليل حاكم شروان التي تقع على طريق زحفه الى بلاد الكرج، ثم طمع بالاستيلاء على شيروان، بحجة الثأر لمقتل ابيه جنيد الذي قتله حاكم شيروان من جهة اخرى، وكان اول دليل على انهيار التحالف بين الطرفين موقف الاق قوينلو من الصدام المسلح الذي وقع بين حيدر وحاكم شيروان فقد دعم الاق قوينلو حاكم شيروان، وسارع السلطان يعقوب بإبلاغ حاكم شيروان بخروج حيدر اليه، ولم يكتف بهذا بل ارسل جيشا لمساعدة شيروان من اجل القضاء على حيدر، وكان هذا الدعم عاملا حاسما في انتصاره على الصفويين ومقتل حيدر في ميدان المعركة في تموز عام 1488. تكمن اهمية الشيخ حيدر في انه اخرج الحركة الصفوية من طورها الديني الى طورها العسكري بعد ان نظم مريديه تنظيما عسكريا جيدا.

بعد مقتل حيدر بوقت قصير تجمع عدد كبير من اتباع الصفويين في اردبيل حول ابنه سلطان علي (1488-1494م) . وقد جاء قسم من هؤلاء لتهنئته بتولي قيادة الحركة الصفوية، والقسم الاخير لحثه على الانتقام لمقتل ابيه. وعندما وصلت هذه الانباء مسامع السلطان يعقوب حاكم الاق قوينلو شعر بالقلق وارسل قوة عسكرية الى اردبيل القت القبض على السلطان علي واخيه ابراهيم واسماعيل، وارسلهم الى سجن في قلعة اصطخر بشيراز جنوب ايران حيث امضوا هناك قرابة اربع سنوات ونصف (من اذار 1489 لغاية آب 1493م) وكان اسماعيل، مؤسس الدولة الصفوية فيما بعد، اصغر الاخوة سنا ولا يتجاوز عمره السنتين. وفي أب 1493 اطلق رستم بن مقصود بيك، الذي ألت اليه مقاليد الامور في دولة الاق قوينلو(1492-1497م)، سراح سلطان علي واخوته لكي يستفيد من دعم الصفويين له في صراعه ضد منافسه على السلطة بايسنقر بن سلطان يعقوب، وقد حصل رستم على هذه الدعم من الصفويين فعلا، فقد حارب سلطان علي بايسنقر وتمكن من قتله عام 1492، لذا فقد كافأ رستم بن مقصود الشيخ سلطان علي واستقبله في عاصمته بالترحاب، وسمح له بالعودة الى اردبيل ليتولى رئاسة مريديه. ولكن مع دعوة سلطان علي الى اردبيل وتجمع عدد كبير من اتباعه فيها، صار رستم مثل يعقوب سابقا، يشعر بالقلق من احتمال تهديد الصفويين لحكمه في نهاية المطاف، لذا القى القبض على سلطان علي واخوانه مره اخرى عام 1494م وارسلهم الى مدينة خوي الواقعة شمال غرب بحيرة أورميه لمنع اي اتصال بينهم وبين اتباعهم، وقرر رستم في نهاية الامر التخلص من سلطان علي وخطط أيضا للقضاء على اتباع الصفويين ومؤيديهم في تبريز واردبيل . وعندما علم سلطان علي بخطط رستم هذه هرب مع اخوته واتباعه المقربين من خوي متجها الى اردبيل ولما كان سلطان علي يشعر بعدم الامان فقد اوصى بان يكون اخوه اسماعيل خلفا له وهو في طريقه الى اردبيل. وارسل اسماعيل مع سبعة من اتباعه المختارين الى اردبيل امامه . وكانت مخاوف سلطان علي وتوقعاته في محلها اذ سرعان ما فاجأته قوه من الاق قوينلو وقتلته، اما اسماعيل فقد نجح في الوصول الى اردبيل بسلام. ومن هناك نقله اتباعه الى مدينه لاهيجان في مقاطعة

كيلان لتجنب حملة تفتيش عنه قام بها الاق قوينلو في اردبيل من منزل الى منزل. وفي لاهيجان وفر له حاكمها، كاركيا ميرزا علي، الرعاية والحماية ورفض عدة طلبات من الاق قوينلو لتسليمهم اسماعيل الصفوي. ومع ان رستم حاكم الاق قوينلو خطط لمهاجمة لاهيجان ومقاطعة كيلان الا ان المنازعات الداخلية بين الامراء والاق قوينلو منعته من ذلك.

امضى اسماعيل حوالي خمس سنوات (1494-1499م) في لاهيجان، وقد عين كاركيا ميرزا علي له مدرسا هو مولانا شمس الدين لاهيجي ليعلمه القران الكريم واللغتين العربية والفارسية. ومع انشغال امراء الاق قوينلو بمنازعاتهم الداخلية تهيأت الفرص لاتباع اسماعيل بالذهاب اليه حيث بقي قسم منهم في لاهيجان، وعاد القسم الاخر الى مناطقهم لمواصلة الدعاية للصفويين فيها. وكان هؤلاء الاتباع يدعون اسماعيل بلقب (مرشدي كامل) بوصفه زعيما روحيا لهم وبلقب (بادشاه) اشارة الى قبولهم اياه بوصفه زعيما دنيويا، في وقت كان دولة الاق قوينلو تسير نحو الانحلال فقد برز ثلاثة امراء يتصارعون على السلطة وهم مراد بن يعقوب، ومحمد ميرزا واخوه الوند ميرزا بن يوسف بيك، وقد تمكن الوند ميرزا من التفرد بالسلطة بعد سجنه السلطان مراد، وارتقى عرش الاق قوينلو عام 1497-1500. ومع ظهور بوادر انحلال دولة الاق قوينلو بسبب المنازعات الداخلية قرر الصفويون التحرك مرة اخرى في عام 1499-1500م . وفي اقل من عام كان اسماعيل واتباعه قد انتقموا من حكام مقاطعة شيروان، ثم تحركوا صوب اذربيجان حيث انزلوا هزيمه ساحقة بجيش الاق قوينلو الذي يقوده الوند ميرزا في موقعة (شرور) قرب نخجوان في ربيع عام 1501م . وفي صيف ذلك العام دخل اسماعيل مدينة تبريز وتوج ملكا على ايران متخذا لقب (شاه) مع ان سلطته كانت لا تتعدى حدود اذربيجان. وخلال السنوات القليلة اللاحقة بسط اسماعيل الصفوي سيطرته على معظم انحاء ايران التي دخلت مرحلة جديدة من تاريخها.

امضى الشاه اسماعيل السنوات العشر الاولى من حكمه في بسط سيطرته على ايران والتوسع على حساب المناطق المجاورة. وكانت قوة الصفويين تزداد باطراد في هذه الاثناء

بسبب تدفق تركمان الأناضول الى ايران بعد ان بلغتهم انباء انتصارات الشاه اسماعيل وتوزيعه الغنائم بسخاء على اتباعه. وقد وجه الشاه اسماعيل اهتمامه أولا نحو القضاء على بقايا قوات الاق قوينلو، وكان السلطان يعقوب في اعقاب هزيمة غريمه السابق الوند ميرزا، قد اعلن نفسه شاها عام 1501 على فارس وخوزستان والعراق، الا انه دحر امام الشاه اسماعيل في معركة قرب مدينة همدان عام 1503م، وبذلك ضمن اسماعيل السيطرة على وسط وغرب ايران. ثم اخضع مقاطعات مازندران وجرجان على بحر قزوين ومدينة يزد في عام 1504م. كما الحق ديار بكر بدولته وامن حدوده الغربية بين سنتين 1505-1507م. اما سلطان الاق قوينلو مراد فقد توجه الى شيراز ومنها توجه الى بغداد محاولا اعادة الحياة الى امارته المتداعية، وحاول مصالحة الشاه اسماعيل وارسل اليه وفدا يعرض عليه ان يبقى في بغداد ويدفع جزية للشاه، الا ان اسماعيل لم يسمح للوفد بالوصول اليه وامر بذبحهم جميعا. قضى السلطان مراد في العراق خمس سنوات يشوبها الذعر والقلق بسبب تصاعد واتساع قوة خصمه اسماعيل الذي بسط حكمه على كل الهضبة الايرانية ثم وجه انظاره الى العراق.

3. احتلال بغداد:

كان السلطان مراد بن يعقوب يدرك عجزه عن الوقوف وحده امام اطماع الشاه، ولذلك استنجد بإمارة ذي القدر في الأناضول ولكنها كانت تعاني الخور والضعف في اواخر ايامها، ولهذا باءت محاولات الاسناد التي قدمها اميرها علاء الدين له في 1502و1507م بالفشل، وتعرضت اراضي الامارة في الاناضول الى تخريب شامل ومذابح مروعة ارتكبتها قوات الشاه. فاتجه السلطان الى قانصوه الغوري اخر سلاطين المماليك في مصر والشام الذي كان يدرك خطورة استيلاء الشاه اسماعيل على العراق ، وقد اتخذ الغوري بعض الاجراءات الاولية لإعداد حملة ضد الشاه، وفرض الضرائب على اهل دمشق لتمويل كتائب المشاة التي ستتحشد في حلب استعدادا لمجابهة الشاه. ولكنه في واقع الامر، لم يكن مستعدا عمليا لنجدة مراد بن يعقوب وانقاذ العراق. فالظروف العامة

التي كانت دولة المماليك تواجهها حينذاك، لم تسمح للسلطان الا بمناورات عسكرية فقط دون ان يتورط في حرب حقيقية على الشاه. فالتهديد البرتغالي للبحار العربية، جعل السلطان يوليه اهتماما كبيرا، مفضلا عدم فتح جبهة جديدة غير مستعد لها. وهكذا ترك حاكم العراق يواجه مصير بمفرده. ويعود تطلع الشاه لاحتلال الى عاملين:

1. **العامل السياسي**: ان الاستحواذ على بغداد قلب العالم الاسلامي يعطي للشاه اسماعيل مكانة رفيعة لدى المسلمين، طبقا للطموحات التي كانت تساوره.
2. **العامل الاقتصادي**: ان خصب العراق الزراعي يمكن ان يسد الكثير من حاجات سكان ايران، فضلا ان الشاه اراد السيطرة على الطريق التجاري المار بديار بكر والموصل والذي يقطع عمق العراق الى الخليج العربي عبر بغداد، وتعد الموصل رأس هذا الطريق، الباب الطبيعي لشمالي العراق عبر اتصالها بأقاليم الاناضول وبلاد الشام.

استطاع الشاه اسماعيل التقدم الى بغداد بجيش كبير، وارسل في المقدمة فرقة من الفرسان القزلباش يقودها حسين لاله، وبالرغم من ان حاكم بغداد استعد لمواجهة تلك القوات، الا انه وجد نفسه اضعف من ان يستمر في الدفاع عن المدينة التي لا تربطه بها رابطه قوية، ولا سيما بعد انتشار الروح الانهزامية بين قواته التي ارعبتهم انباء الفظائع التي كان ينزلها الشاه اسماعيل بالقوى التي تقف امامه، ولذا سارع الى الفرار قاصدا مدينة حلب ومن هناك اتجه الى ديار بكر. تقدمت قوات الغزو من كرمانشاه الى خانقين، وما ان علم باريك بيك برناك والي الاق قوينلو على بغداد، بزحف القوات الصفوية حتى غادر المدينة فدخلتها القوات الصفوية من دون قتال، وخطب للشاه اسماعيل على منابرها، كما سكت النقود باسمه دلالة على ضمها الى ممتلكاتها الدولة الصفوية. كان اول عمل قام به هو زيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء، ونظم الشاه اوضاع العراق، فعين خادم بيك واليا عليه ومنحه لقب خليفة الخلفاء، وبالرغم من ان الشاه دخل بغداد سلما، الا انه امر بمذبحة راح ضحيتها عدد كبير من السكان دون مبرر. بعد ذلك غادر الشاه بغداد الى الحويزة وكانت

تحكمها الامارة المشعشعية في عهد الامير فياض فاشتبك معه وقتله واستولى على املاكه عام 1509.

ان الاحتلال الصفوي للعراق لم يدم طويلا، ولم تترك الدولة الصفوية اي اثر مهم في تاريخ العراق السياسي والاقتصادي لأنها كانت لا تزال في طور التأسيس فظلت جميع الانظمة والمناصب الادارية السابقة في العراق قائمة، وبقى النظام الزراعي كما كان عليه من ضمور وتخلف. وكل ما حدث بعد الاحتلال هو تعيين بعض القزلباش او الموالين لهم في المناصب الرئيسة، وحتى هذه التعيينات كانت تجري على نحو مرتجل واضح. وكان مما يلفت النظر حقا من الزاوية الادارية خلال مرحلة الاحتلال الصفوي للعراق، واطلاق الشاه اسماعيل لقب (خليفة الخلفاء) على الوالي الذي عينه على بغداد، وهوه امير ديوانه خادم بك طالش الذي سماه ابا المنصور. واستحدث هذا الشاه منصب مساعد الوالي واسنده الى احد العراقيين وعد ذلك خطوة توفيقية. كما سك الشاه اسماعيل عملة نقدية عثر على بعض قطعها في العراق. ومن اهم الاثار العائد للصفويين جامع الكواز في البصرة الذي امر بتشييده الشيخ سري بن الشيخ حسن العباسي عام 1514، وجدد بناؤه الشيخ عبد القادر الكبير العباسي عام 1523، كما قام الشاه اسماعيل الصفوي بإعادة تجديد المشهد الكاظمي، وقد شمل التجديد توسيع الروضة وتبليط الاروقة بالرخام، وتزيين الحرم واطرافه الخارجية بالطابوق الكاشاني ذي الآيات القرآنية والكتابات التاريخية، كما امر بأن تكون المآذن اربعا بعد ان كانت اثنتين، وقام بتشييد مسجد كبير في الجهة الشمالية للحرم متصل به، واحال امر التنفيذ الى امير الديوان خادم بيك.

- قائمة المصادر:

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

-احمد بن يوسف القرماني(ت1019هـ/ 1610م)، اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992)، ج2.

____________ اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992)، ج3.

-ارمنيوس فامبري، تاريخ بخارى منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمة: احمد محمود الساداتي، مراجعة: يحيى الخشاب، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1987).

-اسماعيل احمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث، (الرياض: مكتبة العكيبان، 1995).

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

-برهان نزر محمد علي المياح، "خانات بغداد من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي(ت874هـ/ 1470م)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد امين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986)، ج4.

-جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992).

-ابن حجر العسقلاني(ت 852هـ)، انباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق: حسن حبشي، (القاهرة: بلا.مط، 1969)، ج1.

____________، انباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق: حسن حبشي، (القاهرة: دار التعاون للطباعة والنشر، 1998)، ج4.

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج2.

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج3.

-حكيم امين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1966).

-حمزة بن احمد بن عمر المعروف بابن سباط الغربي، (ت926هـ/ 1520م)، صدق الاخبار، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (طرابلس: جرس برس، 1993)، ج2.

-خالد خليل حمودي، "خان مرجان في بغداد وعمارته"، مجلة التراث العلمي العربي، العدد: 6، لسنة: 2009.

-دونالد ولبر، ايران ماضيها وحاضرها، ترجمة: عبد المنعم محمد حسنين، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1985).

-سالم يونس محمد المولى، "سياسة الدولة المملوكية تجاه الغزو التيموري للعراق وبلاد الشام"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 12، العدد: 4، لسنة: 2005.

-سليمان الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، تقديم وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-شعبان طرطور، الدولة الجلائرية، (القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، 1987).

-شمس الدين ابي عبد الله الذهبي(ت746هـ)، دول الاسلام، (بيروت: منشورات الاعلى للمطبوعات، 1985).

-شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار الجيل، 1992)، ج1.

-شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت: دار الجيل، 1992)، ج6.

-صالح محمد العابد وعماد عبد السلام رؤوف، "العراق بين الاحتلالين المغولي والصفوي"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-صالح محمد العابد، "النظام الاداري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-صادق ياسين الحلو، "الجيش والسلاح منذ احتلال بغداد حتى العصر العثماني 1258-1534"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطاعة، 1988)، ج5.

-طارق جواد الجنابي، "العمارة العراقية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-طارق نافع الحمداني، "واسط حاضرتها وقبائلها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر"، مجلة المورد، المجلد: 34، العدد: 2، لسنة: 2007.

-طالب محيسن حسن الوائلي، الصفويون من الطريقة الصوفية حتى تأسيس الدولة، (دمشق: رند للطباعة والنشر، 2011).

-عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج2-3.

-عبد الله بن فتح الله البغدادي المعروف بالغياثي، تاريخ الدول الاسلامية في الشرق، (بيروت: دار مكتبة الهلال، 2010).

-عبد الرحمن بن خلدون، (ت 808هـ/ 1406م)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2000)، ج5.

-عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1997)، ج4.

-عطا الحديثي، "خان مرجان وصيانته"، مجلة سومر، المجلد: 30، لسنة: 1974.

-علي شاكر علي، "العراق والغزو القره قوينلو في القرن الخامس عشر الميلادي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 28، لسنة: 1986.

-عماد الدين خليل، "تيمورلنك في ديار بكر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 15، لسنة: 1980.

-عماد عبد السلام رؤوف، "الجيش: القوى والمؤسسات العسكرية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-فاروق عمر فوزي ومرتضى حسن النقيب، تاريخ ايران: دراسة في التاريخ السياسي لبلاد فارس خلال العصور الاسلامية الوسيطة 21-906هـ/ 641-1500م، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 1989).

-كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1968).

-كولن تيرنر، التشيع والتحول في العصر الصفوي، ترجمة: حسين علي عبد الساتر، (كولونيا: منشورات الجمل، 2008).

-محمد بن ابراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة(ت779هـ/ 1377م)، رحلات ابن بطوطة، (بيروت: دار صادر، 1992).

-محمد اسعد طلس، تاريخ الامة العربية: عصر الانحدار، (بيروت: دار الاندلس للطباعة والنشر، 1963).

-محمد حسن ال ياسين، "المشهد الكاظمي من بدء الاحتلال المغولي الى نهاية الاحتلال العثماني"، مجلة سومر، المجلد: 19، لسنة: 1963.

-محمد حسين العيدروس، القاجار والجزر العربية 1797-1912، (دبي: دار الكتاب الحديث، 2002).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد ماهر حمادة، دراسة وثائقية للتاريخ الاسلامي ومصادره من عهد بني امية حتى الفتح العثماني لسورية ومصر، (الرياض: مؤسسة الرسالة، 1988).

-نصر الله فلسفي، ايران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي، ترجمة: محمد فتحي يوسف الريس، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1989).

-ناصر النقشبندي، "الديناران الصفوي والعثماني"، مجلة سومر، المجلد: 17، الجزء: 2، لسنة: 1961.

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

-نوري عبد الحميد خليل العاني، "حملات تيمور على بغداد 795-807هـ/ 1393-1405م"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

__________، العراق في العهد الجلائري، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1986).

__________، "صمود البصرة ومقاومتها للغزو الاجنبي 1258-1508"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-ياسين خير الله العمري الخطيب الموصلي، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، قدم له واعتنى به: سامي عبد الله باشعالم العمري، (القاهرة: شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع، 2006).

-Josef W. Mari(Editor), Medieval Islamic Civilization An Encyclopedia, (New york, 2006), Vol:1.

-Maria E. Subtelny, "Tamerlane and His descendants: from Paladins To Patrons", In: The New Cambridge History Of Islam,(Cambridge,2011),Vol:3,PP.169-200.

-P. M. Sykes, History Of Persia,(London,1915),Vol:2.

-Sholeh A. Quinn, "Iran under Safavid rule", ", In: The New Cambridge History Of Is lam,(Cambridge,2011),Vol:3,PP.203-238.

الفصل الثالث

الدولة العثمانية
وتنظيماتها الادارية والعسكرية



ـ اصل العثمانيون ونشأة دولتهم.

ينحدر الاتراك العثمانيون من حشود البدو الذين تجولوا في منطقة جبال ألتاي، شرق منطقة السهوب الأوراسية وجنوب نهر ينسي وبحيرة بايكال، وذلك في الاراضي التي تمثل حالياً جزءاً من منغوليا الخارجية. وهؤلاء البدو الألتائيون كانت لديهم حضارة بدائية قائمة على الحياة الجبلية ولم تكن لهذه القبائل حكومة، وقوانين كتلك التي تميز المجتمعات المتقدمة. وفي القرن الثاني قبل الميلاد، ادت التغييرات السياسية والحربية والاحوال المناخية في المناطق الألتائية، الى حدوث هجرات بدوية متتابعة ضد الحضارات المستقرة الواقعة على حدود السهوب، وقد عرفت القبائل التي تحركت الى الجنوب والغرب نحو شرق أوربا، والشرق الاوسط وآسيا الوسطى، باسم الأوغوز، وسموا كذلك بالتركمان أو الترك عند الشعوب التي تعرضت لهجماتهم. وقد اجتاح الترك في طريقهم بحثاً عن مأوى لهم ولقطعان ماشيتهم الشعوب المستقرة محدثين دمارا كبيرا بالمناطق التي مروا بها، وعندما استقر الترك اخيرا سمحوا للشعوب المستقرة التي بقيت حية أن تستعيد اوطانها وأنشطتها السابقة، ولهذا فأن الغزوات التي قام بها الترك لم تترك اية تغييرات دائمة في الانماط العرقية والاقتصادية.

يحيط الغموض بأصل العثمانيين، وهي مشكلة شغلت أذهان الباحثين، وذلك نظرا لغياب المصادر المعاصرة عن تاريخهم، فضلا عن الروايات المختلفة عن أحداثهم . اذ لم تكن للعثمانيين سجلات مكتوبة عن الفترة السابقة على فتح القسطنطينية سنة **1453**، كما لا يشير البيزنطيون بما يستحق الذكر إلى اصل العثمانيين، لاسيما وأنهم لم تتوفر لديهم وسائل الحصول على معلومات لها قيمتها. أما الكتاب الاوربيون الاوائل فليس لمعلوماتهم أية

قيمة من حيث اعتبارها انعكاساً لفكرة اوروبا عن العثمانيين حين اصبحوا خطراً يهددها، هذا الى ان المصادر العثمانية التقليدية لم تشر الا قليلا للعثمانيين قبل استقرارهم في الاناضول، كما تتجاهل تاريخ الاتراك بوجه عام قبل اعتناقهم الاسلام.

ان الرواية التاريخية السائدة بين المؤرخين العثمانيين تقول ان العثمانيين ينتسبون الى احدى قبائل الغز التركية وأن زعيم احدى هذه القبائل وهي قبيلة قايي خان، نزحت من اواسط اسيا وحكمت منطقة ماهان بالقرب من مدينة بلخ الصغيرة في الجزء الشمالي الغربي من ايران في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي. ويقال أن سليمان شاه زعيم تلك القبيلة هرب من الزحف المغولي بقيادة جنكيز خان ومعه الالاف من الاتراك الاخرين، حتى لا يواجه الموت او العبودية في ايدي الغزاة الجدد القادمين من اسيا الوسطى، واستقر في أخلاط الواقعة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وان في هضبة ارمينية، ولكن اقامته لم تدم طويلاً فقد اراد سليمان شاه العودة الى بلاده، فسار الى قلعة جعبر واثناء عبوره مع عشيرته نهر الفرات سقط في النهر وغرق في عام 1231 قبل أن يبلغ غايته، وعندئذ انقسم قومه بين ابناءه الاربعة، وعند موضع يدعى ياسين اوه سي قاد اثنان منهم وهما سنقور زنكي وكون طوغدي معظم قومه عائدين الى خراسان للدخول في خدمة المغول، بينما تابع الاخوان الباقيان المسيرة غرباً الى الاناضول وتولى ارطغرل زعامة هذا الجزء من القبيلة. ويعني اسم ارطغرل" الرجل ذو القلب الابيض". وتقول الرواية التاريخية ان لارطغرل هذا ثلاثة ابناء هم كوندز، وصارو بني، وعثمان، وانه مكث في الموضع الذي افترق فيه مع اخوته وهو ياسين اوه سي يجاهد الكفار بلا شك المقصود بهم البيزنطيين. ثم ارسل ابنه صارو بني الى حاكم قونية وسيواس السلجوقي علاء الدين كيقباذ يستأذنه في الدخول الى بلاده، ويطلب منه موضعا ليستقر فيه مع عشيرته، فأذن له السلطان السلجوقي ومنحه قره جه طاغ الذي استوطنها مع 400 من عشيرته. ولكن رواية ثانية تقول أن أرطغرل أبو عثمان الذي نسبت اليه الدولة العثمانية قاد جماعة مؤلفة من حوالي اربعمائة فارس وعائلاتهم وفي اثناء سير ارطغرل(1231 1288) وعلى غير المتوقع، شاهد معركة دائرة بين فريقين لا يعرفهما،

وكان احد من الفريقين قد ضغط على الأخر وبضراوة، فحث عثمان اتباعه على مساعدة الفريق الخاسر، وتم النصر لهذا الفريق. وتبين فيما بعد ان الجيش الذي جرى انقاذه من الهزيمة المؤكدة كان بقيادة سلطان دولة الروم السلاجقة الاول علاء الدين كيقباذ(1219 - 1237م) في حين كان الجيش الاخر مغوليا وقيل في روايات اخرى بيزنطيا، فما كان من السلطان الا ان كافأ ارطغرل بمنحه وقبيلته أرضاً كإقطاع على الحدود البيزنطية، هي سكود شمال غرب الاناضول وهي مقاطعة تابعة لدولة سلاجقة الروم، على بعد أقل من خمسين ميلاً من بحر مرمرة، واقل من مائة ميل من القسطنطينية نفسها كما منح السلطان السلجوقي ارطغرل لقب (محافظ الحدود). ولكن ارطغرل لم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود، بل شرع يهاجم باسم السلطان علاء الدين ممتلكات الدولة البيزنطية في الاناضول، وتستمر الروايات التاريخية لتقول ان السلطان السلجوقي هاجم قلعة كوتاهية وكانت تابعة للبيزنطيين عام 1286، وعين ارطغرل قائدا للحملة التي تكللت بالنجاح. وبعد وفاته عام 1288 عين السلطان السلجوقي ولده عثمان(1288-1326) محل في رئاسة عشيرته. وتتحدث الروايات التاريخية العثمانية عن اعتناق عثمان للإسلام، وتشير الى زواج عثمان أكبر اولاد أرطغرل ببنت رجل صالح يدعى الشيخ العارف اده بالي القرماني كان قد رآها مصادفة وعلق بها ولكن ابى والدها ان يزوجها له فحزن عثمان لذلك وأظهر الصبر والجلد ولم يرغب الاقتران بغيرها، حتى قبل أبوها بعد أن قص عليه عثمان مناماً رآه ذات ليلة في بيت هذا الصالح، وهو أنه رأى القمر صعد من صدر هذا الشيخ وبعد أن صار بدراً نزل في صدره أي صدر عثمان، ثم خرجت من صلبه شجرة نمت في الحال حتى غطت الاكوان بظلها، ورأى اكبر الجبال تحتها، وخرج النيل ودجلة والدانوب من جذعها، ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فتفاءل الشيخ من هذا المنام وبشره بأن اسرة عثمان ستحكم العالم، وزوجه ابنته. وقد اخذت قوة الامارة الناشئة تدريجيا بالتزايد وان كنا ما نزال نجهل الظروف التي ادت الى ذلك، فالروايات التقليدية تقول ان عثمان هذا استغل كبر سن السلطان السلجوقي فاعلن استقلاله في الاراضي التي يسيطر عليها

عام 1299، واتخذ لقب بادشاه أي سلطان كدلالة على قيام دولته. ثم وسع رقعة امارته على حساب البيزنطيين مستغلاً الفوضى والاهمال المسيطرين على الاراضي البيزنطية بالأناضول، فسيطر على قلعة بيلجيك، واينه كل، ويني شهر(يكي شهر). كما هدد منطقة نيقيا في المعركة التي خاضها البيزنطيون في قوين حصار سنة 1301. يبدو ان ابرز النتائج التي تمخض عنها تزايد قوة عثمان هو نشاطه العسكري الذي توج باحتلال مرمرة عام 1307، ثم اتخذ يني شهر عاصمة له، كما مد نفوذه الى حصون كته، ولفكه، واق حصار، وقوج حصار، وخلال الاعوام التالية كان عثمان قد تمكن من احكام قبضته في الاناضول بعد ان احتل عدة حصون هناك عام 1312، يظهر ان قوته بلغت حد كما تشير الروايات التاريخية حد ان هاجم بروسا بعد عشر سنوات الا انه توفي قبل ان يحتلها تاركا الامر لابنه اورخان.

يرفض المؤرخون المحدثون الكثير من الروايات التقليدية المرتبطة بمؤسس الاسرة عثمان، وان كان المؤرخ محمد فؤاد كوبرلي قد ايد ان العثمانيين كانوا قسم صغير من الغز المعروفين بعشيرة قايي قد وفدوا على الاناضول ايام الحروب السلجوقية وسكنوا اماكن مختلفة منه، وظلوا يعيشون في اواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الاناضول على الحدود التركية-البيزنطية ويمكن الظن بأن هذا القسم كان يحارب جيرانه من البيزنطيين تحت قيادة احد الامراء الاقوياء. ولكن المؤرخ بول ويتك رفض تماما الاسطورة القائلة بانتماء العثمانيون الى قبيلة قايي الغزية ويعتقد ان سليمان شاه الذي تقول الرواية الرسمية انه جد عثمان ليس الا شخصية اسطورية، وأن اسمه وذهابه الى بلاد الروم استعيرا من رواية حقيقية عرفت آنذاك عن احتلال التركمان الغزاة (المجاهدين) للأناضول في القرن الحادي عشر وارتباط ذلك باسم الامير السلجوقي سليمان بن قتلمش الذي ارسله السلاجقة الحاكمون في بغداد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر لينظم عمليات أولئك الغزاة، فتمركز في نيقيا ولكنه عاد بعد احتلال نيقيا من قبل الصليبيين في سنة 1097م باتجاه بغداد بقصد الاستيلاء عليها وطرد اقربائه السلاجقة منها، فقتل في طريق عودته وغرق ابنه قليج ارسلان في نهر الخابور. اما المؤرخ الانكليزي غيبونز فيؤيد الكثير مما جاء في الرواية التقليدية، ولكنه يرفض

القصة الواردة بخصوص اسلام عثمان، اذ يعتقد ان عثمان وعشيرته اتراكاً كفاراً يزاولون الرعي، فلما عاشوا في بيئة اسلامية دخلوا الاسلام شأنهم في ذلك شأن ابناء جلدتهم من السلاجقة وقد اثار فيهم الدين الجديد رغبة ادخال الناس فيه فأرغموا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم في وفاق على الدخول في حوزة الاسلام كذلك، في وقت لم يكن تحت قيادة عثمان قبل دخول الاسلام غير اربعمائة محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة بسيطة. لكن عددهم سرعان ما تضاعف بين سنتي (1290-1300) وامتدت حدودهم حتى تاخمت حدود البيزنطيين، وادى ذلك الى ظهور جنس جديد انتسب الى رئيسه(عثمان) ذلك هو الجنس العثماني. ولم يكن هذا الجنس تركياً خالصاً منذ بداية امره ولكنه كان جنساً جديداً مختلطاً ناشئاً من ذوبان العناصر الاصلية وقوامه الاتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون. وقد زاد عدد العثمانيين بنسبة كبيرة في وقت قصير، ومن الخطأ تعليل ذلك بالإمدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق، لأن اراضي العثمانيين كانت تقع غرب الاناضول، وكان لابد للكتل البشرية لكي تبلغ ذلك المكان من الالتحاق بخدمة حكام اخرين في شرق الاناضول اولاً وان تأخذ منهم اراضي ثانيا. ومن هنا لا يمكن تعليل الزيادة الا بذوبان العنصر المحلي المكون من الاغريق. ولكن هناك الكثير من الاعتراض حول فرضية غيبونز.

ففي الحقيقة ان الفترة الممتدة من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر قد شهدت تدفق كثير من العناصر الجنسية الى الاناضول. ففي خلالها كان العنصر اليوناني، أو بشكل اكثر تحديدا التنظيم الهليني للنظم الامبراطورية البيزنطية، قد تراجع الى مدن السواحل التي جاء منها في البداية، وذلك باستثناء ما حدث على طول سلسلة جبال طوروس ووديان الانهار التي تصب في بحر ايجة. مرجع ذلك ان استمرار الفتوح الاسلامية قد ادى الى هجرة كثير من العناصر السورية العربية التي كانت تعتنق عقائد مختلفة الى الاناضول. اما طلائع الاتراك الذين وفدوا الى المنطقة عن طريق فارس فقد كانوا احد روافد الحركة السلجوقية العظمى، وسرعان ما اصبحوا عنصرا محليا بعد ان استقروا في كل مكان فتحته الجيوش السلجوقية امام الهجرة التركية.

كان اتراك الهجرات الاولى هذه بسطاء في التفكير يميلون الى التسامح مع الاخرين ولا يشعرون على الاطلاق بالمزايا والالتزامات الخاصة بمجتمع منظم، ومن ثم موقفهم سلبي من التغيرات السياسية التي كثيرا ما تعرض لها الاناضول منذ قدومهم. وخلال الربع الاول من القرن الثالث عشر تقدمت هجرة كبيرة اخرى صوب الاناضول، ولكن تفرق جزء كبير منها في جبال ارمينية، في حين اتجه جزء اخر منها صوب الجنوب الى سوريا وكيليكية ووصل بعضها الى مناطق قريبة من مصر. وفي وقت كان الغزو السلجوقي الاول كان غزو من اجل الاستقرار يتبع جيشا منتصرا، كانت هذه الغزوة الاخيرة غزوة لاجئين هربوا من عدوا مخيف هو جنكيز خان وقبائله المغولية. ولما كان هؤلاء المهاجرين يشتملون على عائلات تحمل كل ما تستطيع حمله من متاعها، ولما كان على المهاجرين ان يحثوا الخطى دون ان يكون لهم مستقر واضح، فان اغلبيتهم لم تتقدم كثيرا. وبعد ان استقر معظمهم في جبال ارمينيا وفي اعالي الفرات بعض الوقت، اغرتهم وفاة جنكيز خان بالعودة الى بلادهم. ورغم ان الجبال الوعرة ووديان الاناضول الضيقة لم تغرهم بالتقدم صوب الغرب، فقد تغلغل اكثرهم في الاناضول بعد ان فقدوا معظم نسائهم واطفالهم. ولما كانوا يشكلون مجموعات صغيرة من المحاربين، فقد قرروا الانخراط في جيش علاء الدين كيقباذ اخر سلاطين السلاجقة البارزين. واغلب الظن انه فزع لمجيء هذه العصابات المحاربة وتردد في قبول انخراط الكثير منهم في قواته، اذ لم يكن بإمكانه الركون الى اخلاصهم له في مواجهة الخوارزميين الذين كانوا يحاربهم في ذلك الوقت، أو في مواجهة المغول. لهذا اتبع سياسة حكيمة تقضي بمقاومة انخراطهم في جيشه ومنح زعمائهم اقطاعات على حدود دولته الاخذة بالانكماش، حيث كان عليهم على البقاء في مواجهة البيزنطيين. وفي مثل هذه الظروف كانت القبيلة المحظوظة هي التي شغلت الاقطاع الاقرب الى القسطنطينية وما تبقى من الامبراطورية البيزنطية، وتلك القبيلة التي كان زعيمها كما تشير الروايات يدعى عثمان، تلك القبيلة التي لم تحتك حتى عهد السلطان اورخان بالقبائل التركية الاخرى التي استطاعت ان تقيم بأمارات مستقلة على اثر انهيار الدولة السلجوقية.

لما كانت الامارة العثمانية، مواجهة للأراضي البيزنطية فضلاً عن وقوعها على الطرق الرئيسة التي تصل بين القسطنطينية والمدن العربية الكبرى في بلاد الشام والعراق فقد استطاعت ان تتفوق على الامارات المجاورة لها وتزداد قوة وتوسعاً لأسباب متعددة: فوقوعها قرب البيزنطيين جعل المجاهدين يسمون الغزاة، وهم الذين يحمون الثغور الاسلامية، لا يجدون عملاً في الامارات الضعيفة الاخرى التي قامت في النصف الغربي من الاناضول ومنها امارة منتشا على الساحل الجنوبي الغربي، وامارة تكة على ساحل الاناضول الجنوبي، وامارة سينوب على البحر الاسود، فهرعوا الى الامارة العثمانية وزادوا من قوتها. كما ان موقعها الاستراتيجي سهل مجيء العلماء والعناصر المنظمة، كالتجار والصناع، من داخل العالم الاسلامي اليها، وحلت تبعاً لذلك مشكلة موارد الامارة. وقد نشط علماء المدارس الاسلامية وطبقوا تعاليم الدين في نظم الامارة. وكان التجار والصناع منظمين في ما يشبه نقابات، تسمى الاخية او الاخوان يتعاون فيها اصحاب كل مهنة وتنشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم. واتخذت هذه الرابطة مظهراً عسكرياً، وقد سادت بين الغزاة والحاكمين منهم ومنظمات الاخية مجموعة من التقاليد في الاخلاق والسلوك مبنية في الغالب على التقى مع مزيج من التصوف، وقد استفادت امارة عثمان من هذه الخصائص، ومن كثرة العنصر المحارب فيها. وعلى صغرها فقد اخذت تتوسع ببطء في وجه مقاومة البيزنطيين وكان كل انتصار يجلب اليها غزاة اكثر ، وهكذا ازدادت امكاناتها العسكرية وتحتم عليها متابعة الغزو في كل من الاناضول وشبه جزيرة البلقان. وكان من حسن حظ العثمانيين ان بيزنطة قد انشغلت بكثير من القلاقل والفتن في العاصمة وفي البلقان بالصدام المستمر مع اعدائها من امارات الثغور الاسلامية الواقعة على حدودها امثال امارة جرميان وصاروخان ومنتشا وقرة سي، لذا لم تستطع التحرك ضد عثمان، ونتيجة لذلك سقطت بيد العثمانيين أماكن كثيرة ، وكان عليها ان تدافع عن نفسها بقوات محلية. في عهد اورخان(1326-1360) احتل العثمانيون بروسة التي اتخذها اورخان عاصمة له عام 1326، التي تعد احدى اهم النقاط العسكرية في الاناضول، وسرعان ما احتل العثمانيون

نيقوميديا(ازنكميد) عام 1337م، ولما كانت بيزنطة قد انشغلت بكثير من الفتن بعد وفاة امور بك حاكم ولاية ايدين فقد عنيت كثيراً بأن تضمن لنفسها مساعدة اورخان بن عثمان الذي صار يتدخل بقواته في امور بيزنطة. وما لبث العثمانيون ان اجتازوا البحر عام 1345، اذ افادوا من زلزال دمر اسوار غاليبولي (جناق قلعة) فدخلوها، واستوفد اورخان كثيراً من اتراك الاناضول وخاصة من ولاية قرة سي التي مدوا نفوذهم اليها، وكذلك بعض العشائر التركية فوطنهم هناك. وبشكل عام فقد اتسم عهد اورخان بأمرين هما:

1. اتساع العمليات العسكرية العثمانية في عهده.
2. تنظيم الحكم في الدولة بعد اتساع رقعتها، فقد عمد السلطان اورخان الى اصدار مجموعة من القوانين لتنظيم امور الحكم وضرب العملة الذهبية والفضية واسس الجيش الجديد.

مثل عهد مراد الاول(1360–1389) ثورة في الامتداد العثماني، سواء في الاناضول ازاء الامارات التركمانية أم في البلقان، فقد دحر امارة قرمان القوية في الاناضول ودخل عاصمتها انقرة عام 1360 بعد قيام حاكمها علاء الدين خليل بن محمود بتحريض العشائر التركمانية ضد العثمانيين، وقد اضطر علاء الدين ان يبرم صلحا مع العثمانيين الاقوياء بعد ان اعلن ولاءه لهم. اما بيزنطة فقد بدأت تحس بالخطر العثماني بأوسع معانيه الان فقد كان الاتراك قد استقروا نهائياً على ساحل اوروبا متخذين من غاليبولي نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية التي استطاعوا دفعها حتى تراقيا. وقد استولى الاتراك من قادة اورخان ومن اولى الخبرة في غزواتهم سنة (1360 1361) على اهم الاماكن الاستراتيجية في تراقيا. في وقت كان قسم من اهل تراقيا قد فروا امام الزحف العثماني، مما افاد العثمانيين، اذ سرعان ما كان الاتراك القادمين من الاناضول يعمرون اماكنهم الخالية كنمط من الاستيطان الحقيقي. وسرعان ما احتل مراد الاول ادرنة عام 1361 ونقل العاصمة من بروسة الى ادرنة التي ظلت عاصمة الدولة العثمانية حتى عام 1453، واخذ يتوغل في البلقان، ويظهر ان هذا التوغل قد دفع البابا اوربانوس الخامس ان يدعو الى شن حرب على العثمانيين، فلبت دول فرنسا

واسبانيا والمانيا الدعوة وانظمت جيوشها الى جيش انشأ بعد حلف بين المجر وبولندا وصربيا والبوسنة، وقد اصدم الاوربيون بالجيش العثماني في معركة جرت عام 1362 بالقرب من نهر ماريتزا انتهت بانتصار الجيش العثماني. في عام 1386 اخذ العثمانيون يتوغلون شمالا في بلغاريا وغربا في مقدونيا وتمكنوا من الاستيلاء على صوفيا ونيش وسالونيك، وهكذا وفق مراد في مدة سلطنته في تحقيق غايته وهي بسط سلطة العثمانيين على البلقان، كما استولى على تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وملأوها بجماعات كثيفة من الاتراك والمهاجرين. ان التوسع العثماني في البلقان قد ارعب ملوك صربيا وبلغاريا والبانيا وطلبوا من البابا ان يدعوا ملوك اوروبا لمساعدتهم فاستجابوا لندائهم وجرت بين الجيش العثماني والجيوش المتحالفة معركة في سهل كوسوفو عام 1389 انتصر فيها العثمانيون وزال استقلال صربيا وبلغاريا والروميلي وضمت الى الدولة العثمانية. وفي الواقع كان مراد الاول قد وسع حدود دولته بما يعادل خمس مرات لما كانت عليه في عهد اسلافه، وقد وصلت الدولة العثمانية في عهده الى شواطئ الدانوب، وجهات البوسنة في عمق اوروبا الشرقية. ولما كان مسيحي البلقان الذين دخلوا في حوزة الحكم العثماني لم يعيشوا مثل مسيحي الاناضول قروناً طويلة في جوار المسلمين، فقد ابتدعت في عهد مراد الاول طرق جديدة لإدخالهم في الاسلام ومن ذلك عتق الاسرى في حالة دخولهم الاسلام، لكن لما كانت هذه الطريقة لا تطبق الا في دائرة محددة، فقد كانت نتائجها كذلك محدودة وظهر عندئذ الضرورة لتأسيس جيش جديد هو الجيش الانكشاري من ابناء المسيحيين. كما ابتدع نظام الدوشرمة الذين تتم عملية ادخالهم في الدين الاسلامي لذلك كانت العناصر اليونانية والسلافية في البلقان تفضل دخول الاسلام على تسليم ابنائها الى العثمانيين. فان ادخلنا في اعتبارنا أن الجيش الانكشاري لم يكن له حتى في القرن الخامس عشر اهمية عددية، ولم يكن هو العنصر الاساسي في الجيش رجحنا انه لم يكن تشكيلاً يراد به تقوية الجيش وانما كانت وسيلة لنشر الاسلام. ولما عظمت قوة العثمانيين بانتصاراتهم في البلقان استطاعوا توسيع حدودهم داخل الاناضول على قسم كبير من اطرافها وعلى قسم كبير من الاراضي التابعة لإمارات كرميان وحميد وقهروا امارة قرمان.

وعندما اعتلى ابنه بايزيد الاول(1389-1403) العرش خلفا له، كان هدف الدولة قد اضحى واضحا، فحدد سياسته على قاعدتين:

1. تصفية الاسر الحاكمة في الاناضول والبلقان وضم ولاياتهم الى دولته الناشئة.
2. تأسيس دولة مركزية في تلك المناطق متخذا من النظام المركزي في الدول الاسلامية المشرقية وتشكيلاتها كأساس لهذا التوجه.

من اجل ان يحقق بايزيد الهدفين الذين وضعهما نصب عينيه استهل حكمه بعقد صلح مع امير صربيا عام 1391، لكي يتفرغ لصراعه المقبل مع الامبراطورية البيزنطية والدويلات السلجوقية(التركمانية)، فاحتل مدينة الاشهر المعروفة عند البيزنطيين باسم فيلادلفيا وهي اخر مدينة بيزنطية بقيت بيدهم في اسيا. ثم استأنف عملياته العسكرية في اوروبا فاكمل احتلال بلغاريا عام 1393، ثم اصطدم بجيوش الدول الاوربية التي عقدت حلفا عسكريا لإيقاف التوسع العثماني فانتصر عليها في معركة قرب نيقوبوليس عام 1397، وفرض حصارا على القسطنطينية استمر ست سنوات ولكنه اضطر الى تركها بعد وصول تيمور لنك بقواته الى الاناضول واحتلاله سيواس، وكان بايزيد قد استولى على الامارات التركمانية في الاناضول الواقعة غربي الفرات، فاستنجد امراءها بتيمور لنك، الذي ارسل الى بايزيد يطلب منه رد تلك الامارات الى اصحابها، لكن بايزيد رفض ذلك بشدة في وقت تلقى تيمور لنك من امبراطور القسطنطينية وملك فرنسا رسائل يحرضونه فيها على قتال العثمانيين، فاجتاح تيمور لنك اراضي السلطنة العثمانية والتقى بقوات بايزيد في معركة انقرة عام 1402 انتهت بهزيمة ساحقة للعثمانيين واسر السلطان بايزيد ثم وفاته، وعلى اثر هذه المعركة تنازع ابناء السلطان بايزيد على السلطنة ، فاستقل كل واحد منهم في اقليم من اقاليم الدولة. غير انه بعد انتهاء هذه الفترة، التي اسماها المؤرخون العثمانيون باسم(فاصلة السلطنة) بانتصار السلطان محمد الاول (-1402 1421)، على اخوته، فضلا عن انتصاراته مع الامـــارات التركمانية لإرجـــاع السيادة العثمانية عليها. وفـــي عهد ابنه مراد الثاني(1421-1451) عاد العثمانيون توسعهم في اوروبا بعد ان تجاوزوا صدمة معركة

انقرة وقد تمكن السلطان من تحقيق نصر ساحق على الاوربيين في معركة كوسوفو الثانية. وقد تولى العرش من بعده محمد الثاني الملقب بالفاتح(1451-1481) الذي تمكن من فتح القسطنطينية واتخذها عاصمة له تحت اسطنبول، ومكن لسلطته في شمالي البلقان ليواجه المجر التي اثبتت خلال العهود السابقة انها عقبة رئيسة امام التوسع العثماني في اوروبا، فتوغل في بلاد الصرب وفتح مدنا عدة، واستعصت عليه بلغراد، كما احتل المورة في اليونان، والبوسنة والهرسك، وسقطت في قبضته كلا من طرابزون اخر معاقل البيزنطيين في اسيا الصغرى وسينوب والقرمان، كما احتل بلاد القرم وزنطا وكورفو وسان موري وكفالونيا، ودخل في حرب طويلة الامد، ستة عشر عاما، مع البندقية واجبرها على التنازل عن بعض مستعمراتها في اليونان وجزر الارخبيل.

ـ نظام الحكم العثماني.

اولا: التنظيمات الادارية للدولة العثمانية.

تعد السلطنة العثمانية امتدادا للسلطنة السلجوقية، أو بديلا لاستمرارية ثوابتها كتجربة تاريخية، ذلك انها نشأت على انقاضها، ومن خلال دور الغزاة المجاهدين الذين احتضنهم السلطان السلجوقي في اسيا الصغرى على ثغور البيزنطيين، وانتسبت الى اسرة مؤسسة هي اسرة ال عثمان. فالدولة العثمانية بهذا المعنى تندرج في المعاني التي اكتسبتها عملية تأسيس الدولة القائمة على الاستيلاء، شأنها في ذلك شأن الدول الشرقية التي سبقتها.

كان السلطان العثماني يعرف بلقب (خنكار) أو (بادشاه)، أو(بادشاه الاسلام)، أو بادشاه ال عثمان، وكلمة بادشاه تعني من ضمن معانيها ملك الملوك، السلطان الاعظم او الرئيس الاعلى للدولة والجيش ويشترط فيه ان يكون تركي الاصل، لذلك تركز الولاء في الدولة العثمانية لآل عثمان (عثمانلر) وحدهم وهم اسرة تركية تدعي الانتماء في الاصل-

ولو دون مبرر- الى قبيلة اوغوز التي انحدر منها السلاجقة كذلك من قبل. وقد تشبثت الاسرة العثمانية بأصلها العرقي هذا لتستهوي به رجال القبائل التركية.

كان السلطان العثماني اعلى شخص في الدولة العثمانية وكانت سلطته مستمدة من قوة الجيش الانكشاري، وكانت السلطنة هي اعلى مؤسسة في الدولة العثمانية ويترأسها السلطان العثماني، ولم تكن سلطة السلطان الهية حسب نظرية حق الملوك الالهي، كذلك لم تكن خلافة دينية بالمعنى الاسلامي الصحيح، بل كانت السلطنة مستمدة من قوة الجيش وولائه للسلطان، ولم يكن السلطان من الناحية النظرية مطلق التصرف، بل كان يسير في الحكم حسب الشريعة الاسلامية، وكانت جميع القوانين التي تصدر من الباب العالي يجب الا تتعارض واحكام الدين الاسلامي، كما يجب ان يراعي عند تشريع أي قانون العادات والتقاليد المتعارف عليها في البلاد، والتي تكون مختلفة من منطقة لأخرى، ولكن من الناحية العملية تمتع السلطان العثماني بسلطة مدنية مطلقة، فالأمـر الذي يصدر منه كان يكفي لإعدام الاشخاص ومصادرة اموالهم دون محاكمة او سـؤال مع ان صلاحياته كانت تبدوا مقيدة بصورة نظرية بأحكام الشريعة الاسلامية، الا ان العلماء اي رجال الدين كانوا لا يتأخرون عن ايجاد الاحكام واصدار الفتاوى التي تخدم مآرب السلاطين وتضفي على اوامرهم وتصرفاتهم صفة الشرعية. والسلطان هو رئيس الدولة والقائد الاعلى للقوات العثمانية، ورئيس الهيئة الحاكمة(قولار)، وهو المرجع الاعلى لكل شان مهم، فلا يمكن تجاوزه في شيء، اذ لا يمكن تعيين وزير أو موظف كبير مدنيا كان ام عسكريا بدون امره، كما لا يصدر أي قانون الا بموافقته.

وكانت الدولة العثمانية في جميع ادوارها التاريخية تستعمل بعض الرموز والاساليب المستمدة من اصول قبيلة تركية كأذناب الخيل (الطوغ) التي كانت علامة على الرتبة في الحكومة . وكانت التركية لغة البلاط والقيادة في الجيش ودوائر الحكومة ولكن هذا لا يعني، وخاصة في المراحل الاولى ان هناك تركيزاً على عرق او جنس معين، فالموظف في خدمة السلطان العثماني لم يكن يعد نفسه بحكم الضرورة تركياً في اصله ولو انه كان

يستعمل اللغة التركية. وقد تمسك العثمانيون منذ البدء بكلمة عثماني تعزيزاً بالانتساب الى عثمان من جهة واستعلاء على اجناس تركية متخلفة في نظرهم، كانت تقطن في آسيا من جهة اخرى. وكثيراً ما استخدم العثمانيون حتى اوائل القرن التاسع عشر كلمة تركي بمعنى الفلاح الجاهل تهكماً به او تحقيراً له.

وكانت من اهم مؤسسات السلطنة هو البلاط وكان اعضاءه يتمتعون بامتيازات كبيرة، وكان للنساء دور كبير في البلاط لاسيما ابان ضعف الدولة العثمانية حيث كانت ام السلطان أو زوجته تلغي بعض القرارات التي يتخذها السلطان، وهذه الامور بالتأكيد تؤدي الى ضعف الدولة وانهيارها. وتمثلت الهيئة الحاكمة في الدولة العثمانية من السلطان واسرته وضباط حرسه والجيش النظامي، الذي كان مكونا من الفرسان والمدفعية والمشاة والبحرية، والى جانب هؤلاء هناك اصحاب الاقطاعات وفرسانهم، اما الهيئة الاسلامية فقد كانت تشغل وظائف الدولة كمعلمين ورجال دين وقضاة. ويلي السلطان من حيث الاهمية (شيخ الاسلام) وهو الرئيس الاعلى للعلماء، وبيده جميع التشريعات والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد، وممتلكات الاوقاف، والقضاة الشرعيين، والقضاة العسكريين والمفتين ايضا، وكان يطلق على مقر شيخ الاسلام اسم باب المشيخة. وهناك الصدر الاعظم اي رئيس دولة الوزراء وكان يقوم بإعانة السلطان في اصدار القوانين وادارة البلاد. ويطلق على الحكومة المركزية للدولة اسم (الباب العالي) ويتولى الشؤون الخارجية (ريس افندي) وهو بمثابة وزير الخارجية وهو مساعد الصدر الاعظم. وكان ثمة ديوان مركزي يترأسه السلطان ويضم كبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين ورجال الدين. وهذا الديوان لا يحكم وانما كان يناقش المسائل ويخطط السياسة العامة للدولة .وكان السلطان يواظب على حضور جلساته ولكن بعد عهد السلطان سليمان القانوني تلكأ السلاطين في حضور جلساته واكتفوا بالسماع إلى ما كان يدور فيه من مناقشات، فكان ذلك من اسباب تدهور الدولة العثمانية.

تألفت الدولة العثمانية من وحدات ادارية وعسكرية عرفت بالإيالات، وكانت كل ايالة منفصلة عن الاخرى اداريا وقضائيا وماليا، والايالة هي اكبر وحدة ادارية وتقسم الى

سناجق اي الوية، وقد كانت مساحة الايالة غير ثابتة وكانت تتغير باستمرار تبعا لقوة ونفوذ الوالي المعين في الايالة. وكان يعهد بشؤن الايالة الى(باشا) يسمى(بكلر بكي) بمعنى (بيك البكوات) ويعد برتبة(مير ميران) بمعنى (امير الامراء) ويعهد بشؤون اللواء الى(بيك) يسمى (سنجق بكي) بمعنى (بك اللواء) ويعتبر بمرتبة(ميرلوا) بمعنى(امير اللواء) ولقد بلغ عدد الايالات التي تألفت منها الدولة العثمانية في اوائل القرن السابع عشر (32) ايالة، منها(15) كانت عربية. اما السناجق فقد كانت تتكون من عدد من الاقضية تتراوح بين 5-10 اقضية، وكان يعهد الى القضاء بموظف يدعى قائمقام. وكان القضاء يشمل عددا من النواحي التي هي اصغر اداريا من القضاء، والنواحي عادة تشمل عددا من القرى.

اما في القرن التاسع عشر ،فقد اصبحت الدولة العثمانية تقسم الى وحدات ادارية سميت بالولايات، وتنقسم الولاية الى سناجق (الوية) والالوية الى اقضية والاقضية الى نواح . وكان على رأس الادارة في الولاية الوالي، وفي كل لواء (متصرف) وفي كل قضاء (قائمقام) وفي كل ناحية (مدير ناحية) وبلغ مجموع الولايات العربية خلال الفترة المذكورة (12) ولاية، و(4) متصرفيات مستقلة. وكان السلطان العثماني هو الذي يعين الولاة، ومعظمهم اتراك ومن حاشيته الخاصة. ويلقب الوالي رسمياً ب (الباشا) وله سلطة واسعة قد تصل الى حق الاعدام، ومصادرة الاموال. ولم يكن في استطاعة الوالي التمادي في استغلال سلطته تلك، لأن الشعب يحاول اللجوء الى القاضي ورجال الدين اذا ما طغى واستبد دون وجه حق، وكانوا يرفعون الشكاوي الى السلطان مباشرة. وقد يثورون على الوالي احياناً بل ويطردونه احياناً من البلاد. ويلعب قادة الحامية العثمانية(الاوجاق) دوراً في تقييد سلطة الوالي بحكم ما كان تحت امرتهم من قوة مسلحة. لم تكن مدة الوالي طويلة، فالقاعدة العامة هي ان يتول الوالي لمدة سنة ويجدد تعيينه الى ثلاث سنوات في الغالب وقد تطول مدته، ومما يلحظ ان مدة حكم الوالي قصيرة بحيث لا تمكنه عن القيام بمشاريع طويلة الامد وقد يعود الوالي احياناً الى ولايته اكثر من مرة او يعين في ولاية ثم يتولى ادارة ولاية اخرى فيكون من ذلك من الاسباب التي تكسبه خبرة دقيقة بأمور البلاد الا ان همه

الرئيس يبقى في المحافظة على الوضع القائم وتزويد نفسه وحكمه بأسباب الحماية. وكان الوالي في الولايات العربية يتسلم مرتباً سنوياً يسمى (ساليانة) يقتطعه من الاموال التي يجمعها من ولايته. ويجمع الوالي بين السلطتين المدنية والعسكرية . وقد يتولى الوالي جباية الضرائب والرسوم في ولايته. ويعمل الى جانب الوالي عدد من الموظفين يسمون بأركان الولاية وابرزهم نائبه الكتخدا او الكهية ويكون مسؤولاً عن الامن، والدفتر دار، وهو المسؤول عن الامور المالية في الولاية، ويعينه السلطان وله حق محاسبة الوالي ومصادرة امواله، وارسال قدر مناسب من الاموال الى خزينة السلطان. وهناك المكتوبجي، وهو المسؤول عن تحريرات الولاية، والخزنة دار، أي امين الخزانة الخاصة. اما اغا الانكشارية فهو قائد الحامية العسكرية ويعين من قبل السلطان. وتسند الامور القضائية في الولاية الى القاضي الذي كان يعين باقتراح من شيخ الاسلام وبفرمان سلطاني، وتلحق به دار الافتاء ويرأسها مفتي المدينة، وكان للقاضي نواب في سائر انحاء الولاية، وهناك نقباء الاشراف في عواصم الولايات والمدن العربية الكبيرة . وكان الاشراف في العهد العثماني وقبله يقومون بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين من عامة الناس، وكانوا في اهم الامور موالين للسلطان مخلصين له، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدنهم. وقد حاول الاشراف في بعض الاحيان ان يحدو من جماح السلطة العثمانية، وكانت وسائل القيام بهذا العمل متاحة لهم، لأنهم كانوا يستطيعون تعبئة الرأي العام عن طريق استخدامهم الوعاظ ومشايخ الحارات وزعماء الطوائف الحرفية. بالإضافة الى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين اصحاب الوظائف الدينية على اختلاف درجاتهم في جميع انحاء الدولة العثمانية وفي مقدمتهم العلماء في اسطنبول. وقد انتظم الوالي وأغا الانكشارية والدفتر دار والقاضي في مجلس استشاري يرأسه الوالي ويطلق عليه الديوان .ومع انه انشئ ليكون الهيئة العليا القادرة على محاسبة الوالي، الا انه اهمل اهمالاً تاماً ولم يعد اداة من ادوات الحكم، واصبح مجرد هيئة استشارية تجتمع في المناسبات الرسمية لاستقبال كبار الزوار. اما التنظيم الاداري خارج الولاية فكان محدوداً، اذ لكل سنجق حاكم مسؤول عن

جميع النواحي العسكرية والاقتصادية، ويعين حسب رغبة الوالي. كما تركت ادارة العشائر لشيوخها حسب عرفها وما تتبعه من قوانين وتقاليد عشائرية وقد يرجع ذلك بدون شك الى عجز الدولة بأنظمتها وادواتها المعروفة حتى القرن التاسع عشر عن ان تبسط الحكم الفعال القوي في ولاياتها.

ثانيا: المؤسسة العسكرية العثمانية.

كانت الطابع العسكري هو السمة الغالبة على الدولة العثمانية منذ نشأتها، لذلك حظيت المؤسسة العسكرية العثمانية برعاية السلاطين العثمانيين، ويعد الجيش العثماني من اخطر المؤسسات للنظام العثماني كله. وقد بدأ نظام المؤسسة العسكرية العثمانية منذ بداية نشؤها، واعتمد على جمع اعداد من المتطوعين الذين يحاربون في سبيل نشر الاسلام، ويعود هؤلاء الى بيوتهم بعد الانتهاء من الحرب. وكانت من ابرز الانظمة العسكرية العثمانية هي:

1. نظام الدوشرمة/ ضريبة(الغلمان):

ضريبة ادمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتنقون مذهب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية، وكلمة الدوشرمة اصلاً يونانية تعني جمع الاولاد من العائلات المسيحية، وكان هؤلاء يمثلون خمس اطفال الدولة المهزومة في مقدونيا والصرب وبلغاريا والبانيا والمجر وغيرها كحصة بيت مال المسلمين. وكانت الدولة العثمانية تجمع اطفال الدوشرمة، وهم صغار وتحولهم الى الدين الاسلامي وتنظم لهم دراسات علمية مدنية وعسكرية، لتجعل منهم ادوات اسلامية للقتال والحكم في خدمة الدولة. وقد ملأ اطفال الدوشرمة بعد تعليمهم وتدريبهم صفوف فرقة الانكشارية وقوة الخيالة النظاميين ومنهم كانت تستقي نسبة كبيرة من موظفي الدولة، وباتساع الدولة كان الاتراك يشكلون الفئة المهيمنة فيها، على حين أن اطفال الدوشرمة كانوا يشكلون قمة جهاز الحكم ويسيطرون على الاتراك ذاتهم. وكانت الحكومة

العثمانية ترسل وكلاء الى المناطق المأهولة بالعائلات المسيحية، فيجتمع كل هؤلاء الوكلاء بقسيس القرية، ويطلب منه كشفاً باسم الاطفال الذكور الذين قام بتعميدهم. ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الطفل، بل كل ما في الامر أن الدولة تحدد لكل وكيل عدد الاطفال الذين يتعين احضارهم للسلطان. وكان العثمانيين يمارسون في العادة جمع الاطفال من الريف والقرى. وكانوا يأخذون اولاد المزارعين، ومما يجدر ذكره ان العثمانيين كانوا يستجيبوا لدواعي الرحمة، فلا يأخذون الطفل وحيد والديه ولا الاطفال في سن الرضاعة، لأن امثالهم يشكلون عبئاً ثقيلاً على الموظفين المختصين بتنشئة الاطفال وتربيتهم، وكانت الحكومة العثمانية لا تأخذ الاولاد الذين تجاوزوا الحلم لأنه يصعب فصل امثال هؤلاء الاولاد عن ماضيهم وعن اهلهم وعن بيئتهم الاولى، ولذلك كان وكلاء الدولة العثمانية يأخذون في معظم الاحوال الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين السابعة والعاشرة ومنذ أن يتحرك الوكيل بهؤلاء الاطفال الى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بين الاطفال و ذويهم. وكان الوكيل الحكومي يخرج من القرية بحصيلة مالية وبشرية تتمثل الحصيلة المالية في الرشوة التي يحصل عليها من بعض الاباء الموسرين في سبيل التغاضي عن جمع اولادهم. وكانت هذه الحصيلة تختلف قلة وكثرة تبعاً لثراء الاباء من ناحية ومدى جشع الوكلاء من ناحية اخرى. ومع ذلك فأن اغلب المؤرخين يقررون ان غالبية الاباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم ، ونظروا الى العملية كلها على انها امتياز لهم اكثر منها عبئاً نفسياً ثقيلاً ويؤكدون هذا الرأي بقولهم أن العائلات المسلمة كانت تطلب الى الاسر المسيحية أن تقدم اولادها الى وكيل الحكومة على انهم مسيحيون بدلاً من اولاد هذه الاسر المسيحية. وكانت مزايا نظام الدوشرمة واضحة امام اعين المسلمين من البوسنة الذين رتبوا لإرسال ألف من ابنائهم في سنة 1515 الى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الامبراطوري .وكذلك عمل اليهود على حشد اولادهم ضمن حصيلة الدوشرمة على انهم مسيحيون، وبذلك تسري في غفلة من الحكومة، على اولاد المسلمين واليهود الامتيازات التي تعود على ابناء الاسر المسيحية. ومن المرجح ان تطور الدوشرمة الى نظام دوري يقوم على جمع الاطفال المسيحيين لملأ الوظائف في القصر والادارة قد تم في عهد السلطان بايزيد الاول (1389-1402)

وطبق بوجه عام في عهد مراد الثاني ومحمد الفاتح. وفي اسطنبول كان يتحول اطفال الدوشرمة الى الاسلام وتجري لهم جراحة الختان ويتلقون تربية دينية ويحضرون دراسات في اللغة التركية والتاريخ الاسلامي العام والتاريخ العثماني فينشؤون على التمسك بالدين الاسلامي والتعلق بالدولة العثمانية وكانوا الى جانب ذلك يتلقون تدريباً عسكرياً خاصاً. وكان من تبدو عليهم صفات استثنائية من الناحيتين العقلية والجسمية يدربون باعتبارهم غلماناً في الخدمة الداخلية في القصور السلطانية، وكان يطلق عليهم ايج أوغلانات (مفردها ايج اوغلان) اما الباقون فكانت الدولة تعدهم لشغل الوظائف المدنية الكبرى، ويتلقون تعليماً عسكرياً ومدنياً خاصاً، ووصل بعضهم الى الصدارة العظمى اي رئاسة الوزراء، وكان بإمكانهم الانخراط في الخدمة العسكرية في جيش القبوقولو (عبيد الباب العالي). وهناك ما يدل على ان الموظفين العثمانيين الذين كانوا من(الدوشرمة) اصلا ظلوا يتذكرون طفولتهم عندما اخذوا صغاراً من ذويهم ويحنون الى ذوي القربى منهم. فإبراهيم باشا الصدر العظم في عهد السلطان سليمان القانوني كان من اصل يوناني وظل في منصبه مدة ثلاثة عشر عاماً قبل ان يشنق في عام 1536 لارتكابه اخطاء كثيرة من بينها انه كان يحمي اقربائه اليونانيين ويرعى مصالحهم ومحمد صرقوللو الصدر الاعظم(1564-1579) لم يكن يتصل فقط اتصالات خاصة بعائلته بل ساعد ايضاً اهالي الصرب من خلال محاولة اقناع السلطان بإعادة تأسيس اسقفية بيك في عام (1557)، بالاشتراك مع اخيه رئيس الاساقفة.

2. الانكشارية:

ان القوة الحقيقية للجيش العثماني في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي كانت تكمن في جماعة الانكشارية (المشاة النظاميين) والسباهية(الخيالة) فطبقاً للشريعة الاسلامية كان غير المسلمين من غير سكان دار الحرب هم وحدهم الذين يحل استرقاقهم، كما ان حكماً اخر من احكام الشريعة كان يخصص للإمام خمس الغنائم بما في ذلك الاسرى من غير المسلمين. وكان السلاطين العثمانيون أئمة بالدرجة التي تؤهلهم للتمتع بهذه الميزة، ومن

ثم امتلاكهم عدداً كبيراً مطرد الزيادة من الاسرى الارقاء الذين كان بيعهم امراً عادياً. وكان للسلطان حق الاختيار الاول في الغنائم وفضلاً عن ذلك كان السلطان يشتري الاسرى الصغار الاقوياء بأرخص الاسعار ويصنفون كأبناء بالتبني وعبيداً له. وقد اطلق عليهم السلطان(الفرق الجديدة) التي تسمى بالتركية يني شري. وبعد ان يتم ختانهم وتحويلهم للإسلام كان السلطان يقوم بتعيينهم حراساً له وكافأهم بالهدايا الكثيرة ويمنحهم المناصب العالية ويسمح لهم السلطان بمشاركته الطعام والشراب. ويذهب العثمانيون الى ان فرقة الانكشارية يرجع انشاؤها الى عهد اورخان(1326-1362) ابن السلطان عثمان وخلفه، وكانت الفرق الرئيسة عند العثمانيين قبل هذا العصر هي فرق الفرسان الذين يسمون قينجي (الفرسان الخفاف) يشد ازرهم الجنود المشاة الذين يسمون وبالتركية(يايا). ويرجح ان الذي اوحى الى الترك ان يعززوا فرسانهم بجنود مشاة مدربين هو ما شاهدوه من فرق الجيوش البيزنطية. وهنا نلاحظ انه لا يوجد دليل على ان فرقة الانكشارية كانت اداة للتحول القسري الى الاسلام عن طريق ادخال الاولاد المسيحيين الى الجيش العثماني قبل عهد السلطان مراد الاول (1362-1389). ولما كان المؤرخون يجمعون على الانكشارية لم يجندوا الا من مسيحيي اوروبا فلم يكن باستطاعة اورخان ان يفكر بالقيام بذلك، لأن المشكلة التي جرى حلها بهذه الكيفية لم تنشأ الا بعد وفاته. ويقال ان مصطلح انكشارية (اصلها: يني شرى) مصدره درويش هو الحاج بكتاش، وتتحدث رواية ان السلطان أورخان قد اصطحب الطليعة الاولى من هؤلاء المجندين الى مسكن الحاج بكتاش في أماسيا، ورجاه ان يباركهم ويخلع عليهم، اسما فوضع بكتاش كمه فوق رأس احد الواقفين في الصف الاول، ثم قال للسلطان: "ان القوات التي انشأتها ستحمل اسم يني شرى، وستكون وجوههم بيضاء وضاءة وستكون اذرعهم اليمنى قوية، وسيوفهم بتارة، وسهامهم حادة وسيوفقون في المعارك ولن يبرحوا ميدان القتال الا وقد انعقدت لهم الوية النصر"، وتخليداً لبركة بكتاش، كان الانكشارية يضعون على رؤوسهم قلنسوة من الصوف الابيض شبيهة بقلنسوة الدرويش من خلفها قطعة طويلة من القماش اسطوانية الشكل، باعتبارها رمزاً لكم

الحاج بكتاش الذي بارك به رقبة زميلهم. وهناك شك، حقيقي في صحة تلك الرواية على اساس ان الحاج بكتاش كان قد توفي قبل انشاء الانكشارية بقرن من الزمان ولكن الثابت تاريخياً الانكشارية كانوا ملتصقين التصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية. وبوصفهم عبيداً للسلطان فإن الانكشارية كانوا يربون في روح ولاء وانضباط مطلقين. وكان يجري انزال العقاب عن المخالفات التي يرتكبها اي انكشاري عن طريق الضرب بالعصي، او التنقل الذي ينزل بالمخالفين الى رجال حاميات عاديين في قلاع المقاطعات. وفي الاصل كان يحرم على الانكشارية الزواج طالما يقومون بالخدمة العسكرية، والغى هذا التحريم في عهد السلطان سليم الاول (1512-1520). ويتضح من السجلات العثمانية ان عدد فرقة الانكشارية في الاصل كان ستة الاف انكشاري ثم نمت وازداد عددها سنة بعد اخرى، ففي عهد السلطان مراد الاول وصل عددها الى عشرة الاف انكشاري، وفي عهد محمد الفاتح(12000)، وفي عهد سليمان القانوني(20000)، وفي عهد محمد الرابع منتصف القرن السابع عشر لم يزد عدد الفرقة عن(40000)، وخلال ثلاثمائة سنة قدر ان ما يزيد عن خمسة ملايين من الاطفال المسيحيين قد اصبحوا انكشارية. ولم يكن هناك لأحد سلطة على الانكشارية سوى قائدهم والسلطان العثماني، وكان معروفاً عنهم شهرتهم كمحاربين مهرة وولائهم للسلطان، وقد حاربوا كفرق مشاة. والانكشارية جعلوا الجيش العثماني من افضل جيوش العصر، ان لم يكن افضلها، حتى القرن السابع عشر. وفي حوالي سنة (1500) تم تسليح الانكشارية ببنادق يدوية، وكان رسوخ اقدامهم في القتال، وترابطهم في جماعات محاربة، ومهاراتهم في استخدام هذه الاسلحة قد تسبب في اندحار الجيوش المملوكية، وفي التعجيل بفتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر خلال عامي (1516-1517). كما شتت الانكشارية اخر محاولة يائسة لسلاح الفرسان المسيحي في معركة موهاكس الفاصلة التي انتهت بانتقال مملكة المجر لحكم السلطان سليمان القانوني في سنة (1526). وفي الاوقات التي لم تكن تستلزم قيام الانكشارية بمهام الحرب كان يعهد اليهم بالمحافظة على الامن في اهم مواقع الامبراطورية العثمانية. وفي اسطنبول كانوا يقيمون بحراسة الديوان اثناء اجتماعاته التي

يرأسها السلطان، كما كانوا يقومون في المدينة بمهام الشرطة وقوة المطافئ وبحراسة بوابات المدن الهامة والحصون، ويشكلون قوات الشرطة في الولايات. وقد زاد محمد الفاتح رواتب الانكشارية وامتيازاتهم الى حد كبير بعد فتح القسطنطينية. وحين اتسع ملك العثمانيين في اوروبا جرى اختيار غلمان الانكشارية من اوروبا بدلاً من اسيا، ولاسيما من بلغاريا والبانيا والبوسنة. على انهم ما لبثوا ان شكلوا قوة سياسية في الدولة، ففي أواخر القرن الخامس عشر قام الانكشارية بثورة امكن اخمادها. ومنذ عهد محمد الفاتح اصبح من المعتاد ان يقوم كل سلطان جديد بتوزيع(نقود الانكشارية) لضمان ولائهم. على اية حال، وجد السلاطين العثمانيون في الانكشارية ولاء واخلاصاً وشجاعة في القتال حتى صاروا مصدر وفزع لأوروبا المسيحية فهم الذين اقتحموا اسوار القسطنطينية سنة **1453** ولمدة قرنين بعد ذلك لم تستطع اي قوة حربية التغلب على الانكشارية. وفيما بعد تغيرت احوال الانكشارية فصاروا مصدر الاذى والخراب لحياة كل سكان تركيا بما فيهم السلطان العثماني نفسه الامر الذي جعل السلطان المستنير محمود الثاني يصدر امراً بالقضاء عليهم في سنة **1826**.

3. السباهية:

كانت قوة الفرسان التي يكونها السباهية اكبر قوات الدولة العثمانية العسكرية، وكانوا يقومون بما يوكل اليهم من مهام عسكرية مقابل الاقطاعات التي منحتها لهم الدولة مقدماً. اذ كان السلطان يمنح ارضاً زراعية لأفراد من الفرسان، ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يقومون بزراعتها بصفتهم مستأجرين، وكانت هذه الاراضي تسمى اقطاعيات، ويطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش العثماني عن طريق الاقطاع الحربي اسم (السباهية). وينسب الى اورخان (**1342-1362**) استخدام السباهية في الجيش العثماني لأول مرة وقاموا في بداية الامر بمهمة الحرس الشخصي للسلطان، وبتزايد عددهم أصبحوا يشكلون قلب الجيش وعصبه، وكان القوس والسهم

سلاحهم الرئيسي، او على الاقل السلاح الذي استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة. وما ان تنفذ سهامهم فأنهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة وكذلك الخناجر. ومن المعروف ان العثمانيين احتفظوا بمبدأ كان متبعاً ايام السلاجقة يقضي بأن تقسم الاراضي المفتوحة الى اقطاعيات متفاوتة المساحة والقيمة، تعطى اقلها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية ،وتعطى احسنها واكبرها بصفة (زعامت) للقادة الاكبر مركزاً وكفاية قتالية، بشرط ان يسلحوا عدداً من الجند يتناسب مع إقطاعاتهم. ولما كانت اراضي السباهية وراثية، فقد ولدت نوعاً من الارستقراطية الزراعية متينة الاسس. وكان الاقطاع الذي يمنح للسباهي يطلق عليه التيمار ويطلق على حائزه (تيمارجي) وكانت الارض ملكاً للسلطان، ولم يكن لورثة صاحب التيمار اي حقوق قانونية في وراثتها (وإن كان الميراث هو العرف المتبع). وكان اصحاب هذه الاقطاعيات ملزمين ان يتجمعوا ومعهم اسلحتهم وخيولها عندما يستعدون لأداء الواجب العسكري وكان عليهم ان يحضروا معهم جنداً اخرين ويدفعوا لهم اجورهم، بما يتناسب تناسباً طردياً مع مساحة الاقطاع الحربي ومع الايرادات التي تغلها هذه الاقطاعيات. وكان اصغر السباهية مركزاً يذهبون الى الحرب دون اتباع راكبين خيولهم ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم. وهكذا كان الاقطاع او التيمار يقوم مقام المرتب في مقابل استمرار السباهية في القيام بواجباتهم العسكرية واعالتهم لاتباعهم وامدادهم بالأسلحة والمؤن والطعام، مما تحتاج اليه الحملة العسكرية. وكان السباهية يعيشون في القرية التي توجد بها اراضي التيمار ويقومون بجباية الضرائب من الفلاحين، وهي في العادة ضرائب نوعية. وكان على الفلاحين ان يوفروا للسباهية نصف المحصول، بالإضافة الى كميات من العلف والخشب .وكان بإمكان الفلاح ان يشتغل في الارض طالما يقوم بزراعتها ودفع الضرائب المقررة عليها، كما كان بإمكانه ان يورث ابنائه حق شغلها. وفضلاً عن الدخول التي كان التيماري يستقيها من الضرائب التي يدفعها الفلاحون، كان بإمكانه ان يخصص لنفسه قطعة من الارض يقوم الفلاحون المأجورون او فلاحوا التيمار بزراعتها. الى جانب مسؤولية التيماري عن ضمان فلاحة الارض وتحصيلها،

وكان يضطلع بحفظ الامن في القرى في اوقات الحروب، وكان عشرة بالمائة من التيماريين يبقون في السنجق لحفظ الامن وجباية الضرائب. وكان الاقطاع العثماني من وجهة نظر الفلاحين ذا مزايا متعددة ذلك ان السيد الاقطاعي غالباً ما يكون غائباً في المعارك طوال فترة الصيف منكباً على جميع الغنائم والاسلاب يوليها اهتماماً اكثر من اهتمامه باغتصاب ما يملكه الفلاحون التابعون له. ومن مزايا هذا النظام انه ساعد على التوسع الافقي والرأسي في مساحات شاسعة من الاراضي داخل الاقاليم العثمانية في اوروبا واسيا واطمأنت الدولة الى ان جهوداً صادقة تبذل للنهوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الاتباع الاقطاعيين وبين الفلاحين. كما ان هذا النظام كفل للدولة الحصول في زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبلغ في بعض الاحيان مائتي ألف رجل دون تكاليف لأن التابع الاقطاعي كان يذهب الى الحرب ومعه جواده وسلاحه. وفوق كل هذه المزايا فقد امتاز السباهية بالمستوى الحربي العالي الذي كان يتمتع به الفرسان الاقطاعيون.

قائمة المصادر:

-ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، بلا.ت).

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-احمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع الى المواجهة 1516-1916، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، 2002).

-احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، (القاهرة: دار الشروق، 2003).

-احمد محمود علو السامرائي ومحمد حمزة حسين الدليمي، "الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 17، العدد: 44، لسنة: 2010.

-احمد بن يوسف القرماني(ت1019هـ/ 1610م)، اخبار الدول واثار الاول في التاريخ، دراسة وتحقيق: احمد حطيط وفهمي سعد، (بيروت: عالم الكتب، 1992)، ج3.

-اسماعيل احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997).

-اماني بنت جعفر بن صالح الغازي، دور الانكشارية في اضعاف الدولة العثمانية(الجيش الجديد)، (القاهرة: دار القاهرة، 2007).

-بثينة عباس الجنابي، "نظام الحكم والادارة العثمانية في الوطن العربي"، مجلة كلية التربية الاساسية، الجامعة المستنصرية، العدد: 71، لسنة: 2011.

-بيتر شوجر، اوروبا العثمانية 1354-1804، ترجمة: عاصم الدسوقي، (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1998).

-حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، (القاهرة: دار النهضة العربية، 1983).

-حيدر علوان حسين، "الادارة في الدولة العثمانية"، مجلة التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، العدد: 1، لسنة: 2012.

-خير الدين التونسي، اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك، تقديم: محمد الحداد، (القاهرة: دار الكتاب المصري، 2012).

-دونالد كواترت، الدولة العثمانية، ترجمة: ايمن ارمنازي، (الرياض: مكتبة العبيكان، 2004).

-ستيفان تسفايج، ساعات القدر في تاريخ البشرية، ترجمة محمد جديد، (بيروت: دار المدى للثقافة والنشر، 2005).

-سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2000).

-طالب محيبس حسن الوائلي، "هزيمة العثمانيين في انقرة: دراسة في مقدمات الصدام التتاري-العثماني ومجريات الحرب"، مجلة كلية التربية-جامعة واسط، المجلد: 4، العدد: 16، لسنة: 2008.

-عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1997)، ج4.

-عبد السلام عبد العزيز فهمي، السلطان محمد الفاتح: فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، (دمشق: دار القلم، 1993).

-عزتلو يوسف بك اصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011).

-علي خليل احمد، "جهود السلطان محمد الاول في اعادة بناء الدولة العثمانية"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 3، العد: 1، لسنة: 2008.

__________، "محنة العرش العثماني في عهد السلطان مراد الثاني 1421-1451"، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، المجلد: 2، العدد: 4، لسنة: 2010.

__________، "التوسع العثماني في الروميلي في عهد السلطان مراد الثاني"، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، المجلد: 7، العدد: 3، لسنة: 2012.

-عماد البحراني، "فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح 1453"، دورية كان التاريخية، العدد: 3، لسنة: 2009.

-فيصل شيخ الارض، نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون للمؤلف مرادجه دوسون سفير دولة اسوج في الاستانة المتوفى سنة 1807، (رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية، 1942).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

-محمود سعيد عمران، الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، (بيروت: دار النهضة العربية، 2002).

-محمود محمد الحويري، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2002).

-نيقولو باربارو، الفتح الاسلامي للقسطنطينية: يوميات الحصار العثماني 1453، دراسة وترجمة وتعليق: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2002).

-يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمود سلمان، مراجعة: محمود الانصاري، (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ج1.

-Albert Howe Lybyer, The Government of The Ottoman Empire In The Time Of Suleiman the Magnificent,(Cambridge,1913).

-Edwin Pears, "The Ottoman Turks to The Fall Of Constantinople", In: The Cambridge Medieval history,(Cambridge,1923),Vol:4,PP.653-705.

-Gabor Agoston and Bruce Masters(Editor), encyclopedia Of The Ottoman Empire,(New York,2009).

-Hans Joachhim kissling, "The ottoman Empire to 1774, In: The Last great Muslim Empires,(Leiden,1969).

-Herbert Adams gibbons, The foundation Of The ottoman Empire: A history Of the Osmalis Up to the Death Of Bayezid (1300-1403),(New York,1916).

-Paul Wittek, "The Rise Of ottoman Empire", Edited: Colin Heywood,2013.

-M. A. cook,(Editor), A History Of ottoman Empire to 1730,(Cambridge,1976).

-Mohammad Fuad Koprulu, The Origins Of The Ottoman Empire, Translated and Edited By: Gary Leiser,(New York,1992).

الفصل الرابع

الاحتلال العثماني الاول للعراق
(1514-1638)



ـ التوسع العثماني باتجاه العراق (1514ـ1534):

1. بدايات الصراع الصفوي العثماني

لقد تطورت العلاقات الصفوية-العثمانية مع مرور الزمن واتخذت شكلا تصاعديا، ووصلت الى القمة في معركة جالديران. ومن المعروف انه ساد العلاقة بين الطرفين هدوء نسبي بعد القضاء على دولة الاق قوينلو من قبل اسماعيل الصفوي، ذلك ان السلطان بايزيد الثاني الذي خلف اباه محمد الفاتح كان بطبعه ميالا الى المسالمة، فلم يفكر بإنجاز فتوحات اخرى لا في الجبهة الشرقية ولا في الجبهة الغربية، كما لم يكن على استعداد لمساعدة حاكم الاق قوينلو في حربه ضد الشاه اسماعيل الصفوي عدوهما المشترك، لكنه لكان حذرا على أي حال، فقد طلب من رستم بيك مكري كرد حاكم ديار بكر ان يوافيه بتقرير عن حقيقة نوايا الصفويين بالتوسع باتجاه الغرب، واستعدادات الشاه اسماعيل الصفوي العسكرية ومدى قوته بالمقارنة مع قوة سلطان الاق قوينلو، لكن هذا الطلب جاء متأخرا، فقد هزم الشاه سلطان الاق قوينلو، وهو على وشك اجراء مفاوضات مع المماليك في مصر بهدف التعاون ضد العثمانيين، وارسال حملة عسكرية الى ديار بكر ومرعش. ونتيجة لذلك بدأت العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية تسير نحو الاسوأ بعد القضاء على الاق قوينلو، بفعل تنافسهما على اقتسام ممتلكات هؤلاء التي تقع على حدودهما المشتركة، فكان من الطبيعي ان يتصاعد الخلاف السياسي بينهما، على ان هذا التنافس استمر مستترا طيلة عهد السلطان بايزيد الثاني بفعل الاضطرابات في بلاد العثمانيين الناتجة عن ثورات (القزلباش) والتنافس الاسري على العرش، ويبدو ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين العاهلين. وعندما استولى الشاه على العراق وضمه الى املاك الصفويين، ارسل اليه السلطان

العثماني رسولا هو محمد جاوش بالابان وحمله الهدايا الكثيرة ورسالة تهنئة غير متوقعة بفتح فارس واحتلال العراق، ويبدو انه كان يهدف الى تدعيم العلاقة الجيدة مع الشاه، من دون ان يدرك مدى ما يشكله من خطر على دولته. وعندما هاجم الشاه اسماعيل مرعش والبستان في حربه ضد علاء الدولة دلقادر(ذو القدر)، واضطر ان يعبر الحدود العثمانية عند قيصرية، امر جنوده بعدم التعرض لأرواح واموال الرعايا العثمانيين، واعتذر للسلطان عن اختراق الاراضي العثمانية، واعلمه بانه لا يفكر مطلقا في تعكير صفو العلاقة بينهما. ولكن في الوقت الذي كان فيه العاهلان يتبادلان الرسائل الودية، كان الامير سليم بن بايزيد الثاني يقاتل اتباع الصفويين في الاراضي العثمانية، ويتعقبهم خارج حدودها، ووصل في احدى حملاته ارزنجان واسر ابراهيم، شقيق الشاه اسماعيل، فارسل هذا رسالة احتجاج الى السلطان العثماني مع التذكير بالصداقة الصفوية-العثمانية، ولكن السلطان بايزيد الثاني لم يحسن استقبال السفير الصفوي، وعامل الشاه اسماعيل السفير العثماني الذي حمل اليه الرد بالمثل فأهانه بشدة، ومنذ تلك اللحظة تبدلت العلاقات الودية بين الدولتين الى مواجهة سافرة. ومما ساعد على هذا التحول عاملان اولهما: بروز الامير سليم كخليفة محتمل لوالده من واقع مساندة الانكشارية له وتفضيلهم اياه على اخويه احمد وقورقود. وثانيهما: نشاطات الشاه اسماعيل الذي يعمل على زيادة نفوذه في الاناضول، وقد نجح في كسب عشائر القزلباش الذين قاموا بأرسال الهدايا والنذور اليه. وقد بقيت التحركات الصفوية السياسية نشيطة في الاوساط التركمانية-الاناضولية التي وجدت من الدعاية الصفوية صدى بين العشائر التركمانية التي كانت متذمرة من التدابير المالية والادارة العثمانية بل وهيأت السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة في الاناضول. وازدادت العلاقات بين الدولتين سوءا في عام 1511 اثر الثورة التي فجرها شاه قولي بن حسن خليفة في ولاية تكة في الاناضول، أي قبل مجيء سليم الاول للحكم بأشهر، وهو رئيس عشيرة تكلو القزلباشية، الذي نجح في استغلال سخط العشائر التركمانية، ونجح في كسب العديد من المؤيدين له في الاناضول. وقد التف حوله عدد كبير منهم بوصفه ممثلا للشاه اسماعيل. وكان شاه قولي

قد ارسال دعاتـــــه الى قلب الاناضول مستغلاً، الانقسامات الاسرية في البيت العثماني الحاكم والنزاع الذي نشب بين ابناء بايزيد الثاني. لذا عمل السلطان بايزيد في بادئ الامر الذي ارتاب من نوايا الشاه المعادية بإرسال جيشا الى مناطق الحدود لرصد الموقف، واقدم في الوقت نفسه على تهجير العديد من السكان من مؤيدي الشاه الى المورة، ثم اغلق الحدود بين الدولتين بهدف عزل الشاه عن قاعدته في الاناضول الشرقي، الا ان هذا الاجراء لم يكن فعالا لان اتباع الشاه استفادوا من السماح للقوافل التجارية بالمرور عبر الاناضول فتغلغلوا في ربوعه. وقد تلقى الثائرون امدادات من القزلباش المنتشرين في مختلف انحاء الدولة العثمانية، فكانت النتيجة ان وقع معظم وسط وجنوب شرقي الاناضول بيد شاه قولي، فقد تمكن الثوار من قتل القائد العثماني الذي كلفه السلطان بإخماد ثورتهم، وعندما اشتدت قوتهم هاجموا منطقة قرمان وانتصروا على حاكمها قرة كوز باشا، واجتاحوا ولاية سيواس، مما دفع السلطان العثماني الى ارسال الصدر الاعظم خادم علي باشا على راس جيش كبير قوامه 8000 مقاتل، للقضاء على الثورة، فهزم الصفويين، وقتل شاه قولي وانهارت بذلك قوته وحركته السياسية وفرت بقايا القزلباش الى الشاه في ايران. وقد اكتفى السلطان العثماني الذي كان يعاني آنذاك من تدهور في صحته، ومن تنازع اسري على العرش بين اولاده الثلاثة احمد وقورقود وسليم، بان ارسل الى الشاه اسماعيل يؤنبه على تشجيعه لاتباعه في الاراضي العثمانية وتأييده لهم في انتفاضتهم ضد السلطة.

2. وصول السلطان سليم الاول لعرش السلطنة العثمانية:

ادى تفكك الاناضول المرتبط بالعجز الواضح للسلطان بايزيد الثاني الى تفجر ازمة سياسية، والى تنافس ابناء السلطان الثلاثة على العرش ما كان له اثر سيء على قدرات الدولة. وكان سليم الاكثر قلقا على مستقبل السلطنة، وبغضا للشاه اسماعيل، فطلب من والده ان يعينه حاكما على احدى ولايات اوروبا، فرفض طلبه، عند ذلك شق عصا الطاعة وتقدم على رأس جيش جرار الى بلاد الروملي، وظهر امام مدينة أدرنه في عام 1511م

واجبر والده على تلبية طلبه، فعينه السلطان واليا على سمندرية وفيدين والاجه حصار ونيقوبوليس، فوطد اقدامه فيها بهدف انشاء دولة جديدة له في الشمال على ما يبدو. وقد استغل سليم التمرد الذي حصل في تكة وغياب والده عن العاصمة فزحف من مقر اقامته الى أدرنه واعلن نفسه سلطانا على العثمانيين، وكان ذلك اكثر ما يمكن السكوت عليه، فارسل السلطان بايزيد الثاني اليه جيشا هزمه واجبره على الارتداد الى بلاد القرم. وبدا لأخيه احمد في هذا الوقت، ان باستطاعته التوجه الى العاصمة لإعلان نفسه سلطانا، لكن الانكشارية، الذين اتهموه بعدم الكفاءة، فتمردوا عليه وارغموه على الانسحاب. وبدأت الاحداث تسير لصالح الشاه اسماعيل الذي دبر في مطلع عام 1512 تمردا اخر قاده نور علي خليفة في توقات واماسيا، ويعد التمرد الوحيد ذا الصلة الوثيقة بالشاه الذي اداره بنفسه، مما اثار غضب الانكشارية الذين ازعجنهم خسارة سليم وانتصار الشاه، فالحوا على السلطان ان يعفو عنه، فاستجاب لطلبهم واعاد ابنه الى سمندرية. ولكن حدث اثناء انتقاله ان سانده الانكشارية الذين وضعوا ثقتهم به، فدخلوا العاصمة وضغطوا على السلطان للتنازل له عن العرش، فوافق مرغما وذلك في 25 نيسان 1512.

3. الصراع الصفوي ـ العثماني في عهد السلطان سليم الاول: عوامل الصراع.

ـ العامل السياسي:

شكل وجود الدولة الصفوية عائقا سياسيا امام العثمانيين، فمن المعروف ان الاناضول التركي يعد امتدادا طبيعيا للأراضي الايرانية واراضي اسيا الوسطى، بفعل ان العنصر التركي ذا الاصول الاسيوية، قد سيطر في وقت من الاوقات على مجمل اراضي اسيا الوسطى حتى البحر المتوسط، واقام دولة واسعة في هذه المناطق. وقد ظل السلاجقة ومن بعدهم العثمانيون، يعتمدون على المهاجرين التركمان القادمين من الشرق، في بناء المجتمع التركي ونموه في الاناضول أو في البلقان. وقد شكل قيام الدولة الصفوية في ايران حاجزا

سياسيا قطع الاتصال بين العثمانيين وبين اصولهم الشرقية، مما كان دافعا لهم لهدم هذا الحاجز واعادة الاتصال مع الشرق. كما ان السلطان سليم ادرك ان الشاه اسماعيل يشكل عاملا خطرا من عوامل تفكك الاناضول العثماني، واثبتت احداث التمرد التي قامت في اواخر عهد السلطان بايزيد الثاني ذلك، وان حل المشكلة الاناضولية يمر عبر القضاء على الدولة الصفوية. يضاف الى ذلك ان المواجهة الصفوية-العثمانية يمكن النظر اليها على ضوء العلاقة المتعارضة لكل من الطرفين مع المماليك والاوزبك وحكام الهند المغول من جانب، ومع اوروبا من جانب اخر من واقع الصراع على مناطق اسيا الوسطى حتى البحر المتوسط. وشكل نجاح الشاه اسماعيل في تأسيس الدولة الصفوية خطرا على العثمانيين والمماليك الامر الذي زعزع الاستقرار في هذه المنطقة واستغله الصفويون لتنفيذ اهدافهم. وكان واقع المواجهة العثمانية-الصفوية مزدوجا، فهو من جهة رد فعل عثماني على طموحات الشاه اسماعيل السياسية، ومن جهة اخرى فهو مواجهة مذهبية. ويبدو ان العلاقة بين العثمانيين والصفويين كان يسودها الفتور في هذه الفترة بالذات اي في بداية تولي سليم الاول السلطنة، اذ انه بعد اعتلائه العرش وصله سفراء البندقية والمجر ومصر وسورية لتقديم التهاني له بهذه المناسبة ولم يصله سفير من ايران وادرك الجميع في هذا الوقت بالذات ان الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه اسماعيل. فضلا عن ذلك كانت تحركات الشاه في الوقت الذي اعتلى فيه سليم العرش العثماني، قد طالت المناطق الشرقية والجنوبية المجاورة لدولته في اقليم الجزيرة، فاخذ ينظر بعين الريبة لأنها تستهدف السيطرة على المواقع الاستراتيجية، ولاسيما بعد ان تهاوت المناطق التي تربط ايران بالأناضول عبر العراق والتي يسكنها الاكراد بيد القزلباش. ومن اجل ان يتصدى السلطان لطموحات الشاه كان عليه ان يثبت اقدامه في الحكم، وان يتفاهم مع الدول الاوروبية الفاعلة لتهدئة الجبهة الغربية، وكانت النزاعات الاسرية لا تزال ناشطة وكذلك حركات التمرد، وكان الشاه قد التزم بشكل علني جانب الامير العثماني احمد الذي ثار على السلطان سليم فيما بعد، كما جعل قصره ملجأ للأمراء العثمانيين المعارضين لسلطنة سليم. ولكن السلطان العثماني

تمكن من التخلص من اخويه احمد وقورقود اللذين نافساه على السلطة، واخمد حركات التمرد المدعومة من الشاه، لذا قام بمذبحة شنيعة في شرقي الاناضول وراح ضحيتها اربعون ألف من القزلباش دون ان يراعي السن او الجنس وبهذا قضى على اي محاولة للتمرد قد تحدث في المستقبل. ثم التفت السلطان سليم بعد ذلك الى تهدئة الجبهة الغربية، فعقد معاهدات سلام مع البندقية والمجر وروسيا، فاتحا بذلك عهدا جديدا من العلاقات السلمية مع اوروبا، مما شكل انتصارا سياسيا له. وحتى يشتت قوى الشاه، كتب الى عبيد الله خان الاوزبك في عام 1514 يعلمه بنواياه في التحرك الى غربي ايران، ويطلب منه ان يهاجم خراسان، في الوقت نفسه للانتقام لمقتل عمه محمد شيباني خان على يد الشاه اسماعيل الصفوي. وكان هدف سليم من ذلك ان يجعل ايران بين شقي الرحى بهجومه من الغرب وهجوم خان الاوزبك من الشرق، فيضطر الشاه الى القتال على جبهتين. وقد وافق خان الاوزبك على طلب سليم الاول، فهاجم سمرقند وانتصر على القوات الصفوية. وازاء ذلك كان من الطبيعي ان يرد الشاه اسماعيل على تدابير السلطان المعادية، فشرع في ايواء الفارين من الاتراك الى ايران ومنحهم المساكن، لاستغلالهم بعد ذلك في اشعال التمرد في الاناضول، كما سعى للتحالف مع بعض الدول الاوروبية لتكوين جبهة موحدة ضد العثمانيين، ولم يكتف بهذا بل وسعى الى اقامة تحالف مع الخصم الثاني للعثمانيين وهو السلطان المملوكي في مصر، فسارع الى ارسال وفد ضخم اليه لإبلاغه عن هذه الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم، كما سعى للتحالف مع علاء الدولة حاكم امارة ذي القدر في اسيا الصغرى. ويبدو ان السلطان الذي لم يكن غافلا عن تحركات الشاه اسماعيل كان يسعى لعزل الشاه اسماعيل دولياً وافشال اي تحالف قد يقيمه مع الدول المجاورة فأرسل هو الاخر وفداً الى المماليك دعاهم الى التحالف. وبعد مباحثات طويلة اثرت الدولة المملوكية التزام الحياد، وبغية مواجهة الموقف المستجد جراء التصعيد الخطير بين الدولتين العثمانية والصفوية رأي المماليك انه من المناسب ارسال قوات الى اطراف حلب لمرابطتها هناك.

ـ العامل الاقتصادي:

لقد سعى السلطان سليم الى الوصول للهند وتحقيق سيطرة عثمانية على طرق التجارة الشمالية بفعل احتكار البرتغاليين تجارة التوابل، وسيطرتهم على الطرق التجارية الجنوبية مع الهند. هذا وقد شهد بداية عهده تطورا في الحرف والاعمال التقنية السائدة في البلاد آنذاك، مما جعل متطلبات الدولة تزداد مع تطور هذه الاعمال. ثم استمرار زيادة ارتفاع اسعار الحبوب في اوروبا في ذلك الوقت، وهو ما يشكل اساسا لازدهار تصدير الحبوب من الاناضول، وزيادة عدد السكان في اسيا الصغرى، مما يحملنا على الاستنتاج بانه رافقه توسع في الانتاج الزراعي. يضاف الى ذلك الاستهلاك المتزايد في اوروبا للمنتوجات الشرقية ولاسيما التوابل والحرير، مما دفع السلطان الى السيطرة على الطرق التجارية الشمالية واحتكار التجارة بين الشرق والغرب. فضلا عن ذلك رغبة السلطان سليم من منع الصفويين من الاستفادة من المواد الخام الخاصة بصنع الاسلحة والذخائر مثل النحاس والحديد التي اشتهرت بها الاناضول، كما فرض حصارا تجاريا على الدولة الصفوية، ولاسيما على تجارة الحرير التي تمر عبر الاراضي العثمانية عن طريق حلب-الاسكندرونة في طريقها الى اوروبا الذي يقوم بمقايضتها بالذهب، مما خفض ايرادات الصفويين بشكل ملحوظ. وخطا السلطان خطوة اخرى، حين اخذ يصادر البضائع الايرانية من جميع التجار لشحنها من الجانب الاوربي في الروملي، ما اثر على حركة التجار الذين تحولوا نحو الجنوب عبر العراق. واخيرا قرر الاستيلاء على الطرق التجارية الشمالية مع الهند، ولما كانت الدولة الصفوية تقوم حجر عثرة في سبيل ذلك فقد قرر القضاء عليها.

ـ العامل الاسري:

فضلا ن العاملان السالفي الذكر كان من عوامل الصراع ايضا العامل الاسري، فقد كان سليم الاول حفيد من ناحية امه عائشة خاتون لعلاء الدولة بك حاكم امارة دلقادر(ذو القدر)الذي احتل اسماعيل الصفوي امارته، كما كان السلطان مراد اخر سلاطين الاق قوينلو

متزوجا من عمة السلطان مراد. لذا يبدو ان عاملا شخصيا كان محركا لسليم الاول ضد الدولة الصفوية.

4. مراحل الصراع الصفوي العثماني:

- المرحلة الاولى: (1514)...معركة جالديران.

تقدم سليم عبر ارزنجان وارضروم الى اعالي الفرات ، ولم تكن قوة الجيشين العثماني والصفوي متكافئة، لا في العدد ولا من حيث التسليح والتجهيز. فقد بلغ عدد افراد الجيش العثماني 140.000 مقاتل، في حين لم يتعد عدد افراد الجيش الصفوي العشرين الف. وكان الجيش العثماني مجهزا بقوات الفرسان والمشاة والمدفعية وتسانده قوة بحرية كبيرة، في حين افتقد الجيش الصفوي الى وسائل التسليح المتطورة كالمدفعية، وكان في جهل تام بالسلاح الناري الذي استخدمه العثمانيون. لذا تجنب الشاه اسماعيل القتال هرباً من تفوق قوات سليم، عازماً على سحبه الى اراضي شمالي ايران الجبلية حيث تمكنه طبيعة الاراضي ومشاكل التموين من موازنة قوة الجيشين. وفي اواسط اب 1514 قرر السلطان سليم الزحف على تبريز لإرغام الشاه اسماعيل على خوض القتال دفاعاً عن عاصمته. وكان اسماعيل يفضل التراجع لولا ضغط قبائل القزلباش التي غضبت بسبب اتهام العثمانيين لها بالجبن وطالبت بخوض غمار القتال. واخيراً وقعت الموقعة الفاصلة في سهول جالديران في منتصف الطريق بين ارزنجان وتبريز في 23 اب 1514، وكانت المعركة بمنتهى الضراوة الى درجة وصفت من قبل المؤرخين الاتراك بيوم القيامة أو يوم الفناء. وقد انتصر السلطان سليم بفضل اسلحته النارية المتطورة الجديدة وذلك بعد ان قتل الافاً من رجال قبائل القزلباش، وتمكن الشاه اسماعيل من النجاة بصعوبة كبيرة بعد ان اصابته بجروح. وبعد الموقعة ضم سليم الى دولته ولايتي ديار بكر وكردستان واحتل تبريز ونقل ألفاً من أبرز تجارها وحرفيها وعلمائها الى الاستانة. ورغم ذلك فقد قرر اخلاء المدينة خشية تناقص التموين خلال فصل الشتاء، وتراجع الى قره باغ في القوقاز على امل أن يعود في العام القادم

لاستكمال احتلال ايران. ولكن استرجاع الصفويين لتبريز واستمرار مشاكل التموين وهبوط الروح المعنوية في جيش سليم ارغمه في النهاية على سحب جيوشه إلى الاناضول حيث أدى الشتاء القارص الى موت عدة الاف من قواته، مما ادى الى عجز سليم الاول على معاودة قتال الصفويين خلال الربيع وفقاً لما كان قد قرره. وقد ترتب على معركة جالديران نتائج عدة اهمها:

1. ان معركة جالديران او بالأحرى الانتصار العثماني الحاسم على الصفويين شكل منعطفاً في تاريخ الاناضول الشرقي، وكان الحاق الهضاب المرتفعة هناك بعد المعركة مهما من الناحية الاستراتيجية للدولة العثمانية فقد تم ادخال الاناضول دائرة الامان تجاه الاخطار القادمة من الشرق وفضلاً عن هذا فان ارضروم ووان وديار بكر اي الاقاليم التي تشكل الاناضول الشرقي ستستخدم قواعد عسكرية للعمليات المزمع القيام بها في كل مكان من ايران والعراق والقوقاز في القرن السادس عشر الميلادي. فضلا عن ذلك كان الحاق المنطقة بالدولة العثمانية له اهميته من الناحية الاقتصادية لا تقل شأناً عن الناحية الاستراتيجية. اذ سيطر العثمانيون بهذا وبشكل كلي على طريق تبريز- حلب وتبريز - بورصة اي على طريق الحرير، كما ان المدن الغنية الواقعة على الطريق التجاري اصبحت تدر اموالا طائلة لخزينة الدولة العثمانية .واهم من ذلك كله ارتباط امراء الاقاليم الواقعة في المنطقة بالدولة العثمانية بعد ان غيروا ولائهم من الدولة الصفوية.

2.اخذ الامراء الاكراد في شمال العراق الذين كانوا خاضعين للسيطرة الصفوية بالانضواء تحت لواء العثمانيين، فبعد هذه المعركة بدأ العد التنازلي لالتحاق هذه المناطق او الاجزاء المتبقية منها الى الدولة العثمانية، اذ اصبح الطريق مفتوحاً امام العثمانيين للتقدم نحو مراكز الاقاليم والقلاع لضمها الى ممتلكات الدولة العثمانية، بل اصبح الطريق امامهم ممهداً لاحتلال كل العراق والمنطقة الشرقية للجزيرة العربية فيما بعد.

3.خمود المشكلة الصفوية مدة عشرين عاما تقريبا، ذلك ان الضربة التي تلقتها الدولة الصفوية لم تكن قاضية، وتعذر على العثمانيين ان يسقطوا الحكم الصفوي.

- المرحلة الثانية:(1515-1516).

كانت ديار بكر من اهم القلاع والمدن الواقعة في جنوب شرق الاناضول وكانت كغيرها من القلاع واقعة تحت الحكم الصفوي .وبعد معركة جالديران مباشرة جند السلطان المؤرخ الكردي المشهور إدريس البدليسي لإخضاع المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية من الاناضول للدولة العثمانية. وكان البدليسي يعمل كاتبا في ديوان الاق قوينلو قبل ان يسيطر عليها الصفويون. وبعد معركة جالديران دخل في خدمة الدولة العثمانية، وسعى ادريس بكل ما اوتي من قوة للقيام بهذه المهمة. في بادئ الامر تمكن من اقناع امراء بعض الاقاليم بالخضوع للسلطان العثماني. ثم التقى بحاكم صوران الامير سيد بن شاه علي واخضعه للسلطان ورغَبه بتخليص بلاد اربيل من ايدي الصفويين . كما كسب الامير سيف الدين حاكم العمادية وابنه الامير سلطان حسين الى العثمانيين وقدم له الهدايا التي ارسلها السلطان اليه. وتمكن ادريس في نهاية المطاف من كسب 25 اميراً من امراء الكرد وبضمنهم امراء جزيرة ابن عمر وحسنكيف وسعرد وبتليس وحيزان واخضعهم للدولة العثمانية. ولم يكتف الامراء الاكراد بإعلان الولاء للسلطان العثماني بل سعوا الى تصفية الحكم الصفوي في المنطقة واستبداله بالحكم العثماني. فعلى سبيل المثال قام حاكم بوختي بأخذ الجزيرة والموصل من ايدي الصفويين وغنم اموالهم، كما خلَّص حاكم صوران سيد بيك اراضي اربيل وكركوك من الصفويين وخطب باسم السلطان العثماني. وفي هذه الاثناء اعلن وجهاء ديار بكر ولائهم للسلطان العثماني بعد ان حثهم الملا ادريس على ذلك وطردوا الصفويين من قلعتها وقتلوا رجال محافظها الصفوي اوستالجو محمد خان ونهبوا اموالهم وحلوا محلهم لحماية القلعة، ثم ارسل امراء ديار بكر رسائل بواسطة الملا ادريس الى السلطان سليم يعلنون فيه ولائهم وخضوعهم له. وبالمقابل قدَّر السلطان ما قاموا به وذلك في مناشير ارسلها لهم. ولكي يكون لهذه المناشير وقع مؤثر فقد تم توزيعها من قبل الملا ادريس نفسه، كما كتب السلطان رسالة الى ادريس اثنى عليه لما قام به ورفع شأنه وارسل اليه الهدايا. ويعود سبب نجاح الملا ادريس في هذا الصدد الى التأثير العام لمعركة جالديران، فالعثمانيون

حققوا النصر وانهم سيتوجهون لا محالة نحو المناطق الكردية التي تعاني من التفكك السياسي ولن يكون اما الاقاليم الصغيرة خيار غير الخضوع للقوي المنتصر وفضلاً عن هذا كان ادريس ذا اطلاع واسع على الظروف السياسية والاجتماعية في تلك الارجاء وهو ابن المنطقة ومن بدليس (بتليس) بالذات ودخل في خدمة دولة الاق قوينلو قبل ان يسيطر الصفويون على ممتلكاتها. وعلاوة على هذا كان عالما فاضلاً معروفا بين الاكراد بشخصيته الفذة وقدرته على الاقناع ومن هنا جاء اعتماد السلطان سليم عليه في تنفيذ ما عهد اليه. ويبدو ان الحكم العثماني لم يترسخ في منطقة ديار بكر والقسم الشمالي الشرقي من العراق في هذا الوقت بالذات، اذ كان هذا الامر مرتبطا بوجود السلطان سليم الاول وجيشه في المنطقة وزوال الحكم الصفوي منها. ويبدو من مجريات الاحداث ان العثمانيين على الرغم من خضوع امراء الاقاليم الكردية للدولة العثمانية لم يرابطوا بأي قوة عسكرية في المنطقة، ولم يأخذوا في الحسبان ان خضوع هذه المناطق مرتبط بالوجود الفعلي للقوات العثمانية فيها. فبعد مغادرتهم المنطقة اختل التوازن من جديد لغير صالحهم. فبانسحاب السلطان العثماني سليم الاول من تبريز عاد الشاه اسماعيل الصفوي اليها. وبدأ بإصلاح ما خربه العثمانيين فأعاد تنظيم جيشه وشرع في اعادة نفوذه المنهار الى المنطقة من جديد. ثم سعى الى استعادة ديار بكر واعادة الامراء الذين غيروا ولائهم الى حظيرة دولته. وعهد هذه المهمة الى قرة خان شقيق اوستالجو محمد خان والي ديار بكر السابق الذي قتل في معركة جالديران وارسله على راس قوة عسكرية لاستعادة ديار بكر. وحاصر قرة خان مع جيشه المتكون من خمسة الاف مقاتل ديار بكر وحاول اقناع امرائها بتسليم المدينة من غير فائدة. وقد استمر حصار الصفويين لديار بكر سنة كاملة ولم يتمكنوا من اقتحامها، وابلغ ادريس الوضع للسلطان وطلب منه ارسال قوات لإنقاذ آمد دون تأخير. واثر هذا امر السلطان سليم بيقلي محمد باشا الذي تقلد ادارة مناطق ارزنجان وبايبورد بالسير الى ديار بكر على رأس قوة عسكرية، ولم يكن الملا ادريس غائبا من هذه المهمة، اذ سعى الى حشد الامراء الاكراد والانضمام الى القائد العثماني. كما انضم شادي بيك والي اماسيه وسيواس مع خمسة الاف فارس اليهم. وادرك الوالي الصفوي قرة خان امام هذا الحشد الهائل من المقاتلين والقوات

المحلية، عدم تمكنه من مواجهتهم فترك ديار بكر الى ماردين التي كانت تحت سيطرة الصفويين . وفتح امراء ديار بكر ابوابها الى القوات العثمانية والمتطوعين الاكراد في 10 ايلول 1515، الا ان القائد العثماني بيقلي محمد باشا لم يدخل المدينة بل سار نحو ماردين لمقابلة القوات الصفوية بقيادة قرة خان، الذي خاف من البقاء في ماردين وانسحب نحو سهل سنجار. ودخلت القوات العثمانية الى ماردين بعد ان فتح أمراؤها الابواب لهم بسعي من الملا ادريس. وحدث بعد ان فتح ماردين مباشرة ان دب الخلاف بين بيقلي ومحمد باشا وشادي بك ، وتمخض هذا عن انسحاب القوات العثمانية من ماردين، الامر الذي استغله قرة خان الى اعادة السيطرة عليها وطلب التعزيزات من تبريز. وعندما علم السلطان سليم بكل ذلك ارسل خسرو باشا والي قرمان على رأس قوة كبيرة الى ديار بكر، كما ارسل الشاه اسماعيل الصفوي هو الاخر تعزيزات عسكرية الى قرة خان.

انظمت التشكيلات العسكرية للقادة الثلاثة خسرو باشا وبيقلي باشا والشيخ البدليسي، وتوحدت فصائلهم، فكان جيشاً عثمانياً اثمرت عملياته عن نتائج مهمة في حسم الموقف الاقليمي لصالح سليم. وفي بداية الامر ارسلت قوات مؤلفة من 4000 مقاتل، فالتقت بالصفويين، ودارت معركة ضروس لم يسلم فيها من الجند العثماني الا الف رجعوا منهزمين امام الصفويين. وربما اراد العثمانيين اختبار قوة الصفويين. وبدأ فصل المواجهة بين القوات العثمانية وجيش الصفويين في تلك الاقاليم بقيادة قرة خان وعلى مقربة من قوج حصار الواقعة بين اورفة ونصيبين من شهر نيسان 1516. كان الجيش العثماني يتألف من قوة خسرو باشا على الميمنة، وقوات البدليسي على الميسرة وقوات البيقلي في القلب، فدارت رحى معركة عنيفة عرفت غاية في الضراوة وهي الثانية في مواجهة قرة خان الذي اصيب برصاصة اردته صريعاً، فوهنت قواته، وانهزم جنوده شر هزيمة وقد سميت هذه المعركة بمعركة (قره غين دده) نسبة الى المكان الواقع في جنوبي ماردين. واثر هذه المعركة استسلمت بعض المواقع الحصينة في المنطقة الى العثمانيين كما فتحت مدينة ماردين ابوابها للقوات العثمانية، الا ان قلعة ماردين التي كانت في عهدة سليمان بك اخي قره خان

لم تستسلم فحاصرتها القوات العثمانية. وفي هذه الاثناء كان السلطان سليم الاول يقود حملته العسكرية في بلاد الشام وارسل الى بيقلي محمد باشا الذي عين والياً على ديار بكر وامره بالالتحاق به ولهذا فأن الاستيلاء على هذه القلعة قد تأجل الى اجل غير مسمى. وبعد ان انجز السلطان سليم الاول المرحلة الاولى من حملته الى بلاد الشام ومصر والتي توجها بتحقيق النصر على المماليك في معركة مرج دابق، اصدر أوامره الى بيقلي محمد باشا لأخذ القوات التي كانت تحت امرته والتوجه نحو ماردين وفتح قلعتها. وعاد محمد باشا الى المنطقة وفتح قلعة ماردين على اثره تمت السيطرة على القلاع الموجودة هناك. وعلى الرغم من هذه العمليات العسكرية وما رافقها من انتصارات وخضوع قلاع ومراكز واماكن كـ ديار بكر وماردين للحكم العثماني الا ان كل ذلك لم يكن كافياً لإخضاع كردستان واقامة الادارة الفعلية للعثمانيين فيها طالما بقيت مواقع حصينة كـ الرها (اورفة) والرقة والموصل لم تخضع للدولة العثمانية. وبالفعل لم يكتف بيقلي محمد باشا بفتح ماردين بل واصل فتوحاته وسيطر على الرها ثم توجه نحو الموصل، وكان حاكمها الصفوي احمد بك الافشاري يدافع عن قلعتها، الا ان محمد باشا تمكن وبدعم من بدر بك حاكم جزيرة ابن عمر من أخذها. وسرعان ما وقعت الموصل بيد العثمانيين ولا نعرف مصير القوات الصفوية المرابطة فيها، ويبدو انها انسحبت من المنطقة برمتها بعد ان اخلت القلاع والمراكز. وذكر وبعد الحاق محمد باشا الموصل بالحكم العثماني انضوت كل من قلاع سنجار وتلعفر وارغني وسيوه رك وبيره جك بالكامل تحت الادارة العثمانية وعدت كل الاراضي الكردية جزء من الدولة العثمانية. فضلا عن ذلك كانت البلاد التي تسكنها قبائل بكر ومضر وربيعة التي كانت تشكل سناجق ديار بكر والرها والموصل قد خضعت للدولة العثمانية بفضل الكفاءة العسكرية لبيقلي محمد باشا وبفضل المفاوضات الناجحة التي اجراها البدليسي مع امرائها وكان ادريس يسعى لتنظيم الادارة الداخلية لهذه البلاد واشاعة الامن والنظام فيها بكل التدابير المتاحة وتعزيز روابط الامراء الذين اخضعهم لأوامر الدولة العثمانية. واقر السلطان جميع هذه الاجراءات وابلغ ادريس بذلك في فرمان ارسله اليه. ولكي يكمل ادريس المهمة التي باشر بها بشكل موفق، قسم ديار بكر الى بضعة سناجق (الوية) وذلك لتيسير الادارة فيها،

وفي السنة التالية، تم قبول حكومتي الرها والموصل فيها ايضاً. الا انه لم يكن بالإمكان اطلاق حكومة مطلقة في المنطقة وذلك لأن كردستان كانت تضم امراء بعدد قلاعها ويغلب على افكار امرائها اي رؤساء عشائرها نزعة الاستقلال. واخضع ادريس هذه البلاد بمساعيه المتواصلة وكان لابد من استخدام اللين والاستمالة معها. وقد اعلن زعماء الاقاليم والعشائر وامراء المقاطعات ولاءهم للدولة العثمانية، ولكنهم اشترطوا على البدليسي استمرارهم في حكم اقطاعاتهم، وقد قطع الشيخ البدليسي لهم جميعا مواثيق سياسية يبدأ العمل بها من خلال ما تنص عليه من مواد قانونية هي:

1. الاحتفاظ بعائدية تلك الاقطاعات واستغلالها.
2. يجري حكم الوراثة من انتقال الاقطاع الى اولاده الذكور، واذا اراد التصرف بها حسب الاعراف المحلية السائدة، فيستوجب آنذاك اصدار فرمان سلطاني بالموافقة على ذلك.
3. تقوم هذه الاقطاعات بتقديم المساعدات للدولة في جميع حروبها.
4. تحافظ الدولة على هذه الاقاليم ضد الاعتداءات الخارجية.
5. دفع الصدقات والرسوم الشرعية لبيت المال الخاضع لسلطان الدولة.

وقد ارسل السلطان سليم خلعاً كثيرة الى الامراء الاكراد وعلى رأسهم ادريس للخدمات التي اسدوها في فتوح المنطقة كما ارسل منشوراً الى ادريس أثنى فيه على الجهود التي بذلها والخدمات التي اسداها الى الدولة العثمانية.

ـ المرحلة الثالثة: حملة بيري محمد باشا الى غربي العراق والسيطرة العثمانية على منطقة عانه هيت (1518).

يبدو ان العثمانيين اكتفوا بما حققوا من انجازات عسكرية في جنوب شرق الاناضول وشمال العراق وتوجهت جهودهم نحو تعزيز وجودهم السياسي والعسكري في المناطق الجديدة، لكن السلطان سليم الذي كسر شوكة الصفويين وانهى الحكم المملوكي في مصر

وبلاد الشام كان عليه ان يواصل عملياته العسكرية ويؤرق بها الشاه اسماعيل الصفوي، ولهذا نراه بعد عودته من مصر الى حلب، يرسل الوزير الاعظم بيري محمد باشا على رأس حملة الى شمال العراق. وانطلق الوزير الاعظم على رأس قوة من ألفي مقاتل من الانكشارية وعددا من جنود الاناضول والروملي وتوجه على امتداد نهر الفرات في 19 ايار 1518 اي الى غربي العراق وتوّج بيري محمد باشا حملته بالاستيلاء على مدينتي عانه وهيت الواقعتين الى الشمال الغربي من بغداد وعلى الشاطئ الايمن من نهر الفرات وبهذا امن وضعاً هدد فيه بغداد التي كانت تحت الحكم الصفوي . اي انه لم يواصل تقدمه وبقي مدة من الزمن على شاطئ نهر الفرات ورأى انه لم يصدر اي رد فعل من الشاه اسماعيل الصفوي، ولهذا عاد الى أدرنه تنفيذاً لأمر تلقاه من السلطان. ويرى بعض المؤرخين العثمانيين ان قيام السلطان سليم بأرسال الصدر الاعظم بيري محمد باشا من حلب الى الحدود الايرانية لم يكن الهدف منه ان يجعله يواجه الشاه اسماعيل الصفوي واشعال الحرب بينهما، بل استدراج الشاه الى داخل الاراضي العثمانية للقيام بحملة جديدة والحاق شمال العراق بالكامل بالدولة العثمانية . وقد افصح السلطان سليم عن نيته هذه الى بيري باشا. ويبدو ان حملة الصدر الاعظم بيري محمد باشا الى منطقة عانة وهيت كانت اخر حملة عثمانية الى العراق في هذه الفترة، اذ لم تورد هذه المصادر العثمانية اي عملية عسكرية اخرى، وتلتها فترة كانت بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. وانهت حملة بيري محمد باشا المرحلة الاخيرة من الحملات العسكرية الاولى التي حققت للعثمانيين السيطرة على اجزاء واسعة من منطقة الجزيرة تشمل منطقتي سنجار والموصل في الشمال وحتى تكريت جنوباً وتمتد من تكريت شرقاً الى الجنوب الغربي اي منطقة حوض الفرات الممتدة من الحدود العراقية-السورية الحالية الى مدينة هيت مشتملة مركزين مهمين هما عانة وهيت. ويستشف من هذا التحديد ان المنطقة الشمالية الشرقية من العراق ظلت خارجة عن نطاق هذه المناطق المحتلة من قبل العثمانيين.

لقد شكلت منطقة الجزيرة ولاية متميزة في السلطنة العثمانية، وظلت مدن الموصل وعانة ومناطق اخرى في شمال العراق سناجق من تلك الولاية حتى عام 1524. وعلى

حدود مناطق الدولة الصفوية رابطت حاميات عثمانية قوية، واقام في مختلف القرى قرابة عشرة الاف فارس عثماني، كما طبق النظام الزراعي الاقطاعي المشروط بالخدمة العسكرية. وقد ساهمت السلطة العثمانية هناك في انتعاش الحياة الاقتصادية لهذه المنطقة الغنية بالأراضي الزراعية، وقد استصلحت الاراضي المهجورة من جديد على ايدي المزارعين الاشوريين الذين تركوا المناطق الجبلية الصعبة واخذوا ينزحون بكثافة الى سهول الجزيرة. وطبقت القوانين العثمانية لاستغلال الاراضي في مختلف المناطق، ونظمت لذلك دفاتر خاصة. وقد الغى العثمانيون الضرائب الجائرة وعمليات ابتزاز الاموال التي كانت تمارس على الفلاحين في عهد الاق قوينلو والصفويين. وفي عام 1518 ظهرت اولى القوانين-نامه لديار بكر واورفة وماردين وغيرها من سناجق منطقة الجزيرة.

5.التوسع العثماني اتجاه العراق عام 1534 : حملة السلطان سليمان القانوني:

ـ الاحداث التي سبقت حملة سليمان القانوني:

لم تمض على المعركة العظمى التي وقعت بين الدولتين العثمانية والصفوية والتي قادها زعيما الدولتين اي معركة جالديران إلا 19 او 20 سنة كانت بمثابة هدنة غير موقعة بين الطرفين رغم حدوث بعض المعارك التي قادها قادة ميدانيون، وتمخض عنها تثبيت الحكم لعثماني في القسم الاكبر من شمال العراق. وفي هذه الفترة توفي السلطان العثماني سليم الاول عام 1520 وتقلد العرش ابنه سليمان الذي تلقب بالقانوني، كما توفي الشاه اسماعيل الصفوي عام1524 واعتلى ابنه طهماسب الاول عرش الدولة الصفوية، التي اتسمت السنوات العشر الاولى من عهده بالاضطرابات والصراع على النفوذ بين زعماء القزلباش. ولم ينته الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بل ساد جو من العداء على العلاقة بينهما، ولم يتوقف العثمانيون من اتهام الصفويين بالقيام بنشاطات معادية ضدهم وبخاصة في الاناضول. وتنتهي هذه الفترة بالحملة السلطانية الثانية الى المنطقة، والتي قادها السلطان

سليمان بنفسه، وتسمى في التاريخ العثماني (عراقين سفري) اي الحملة على العراقين عراق العرب وعراق العجم.

لقد سبق قيام السلطان سليمان القانوني بحملته على ايران ثم العراق بعض الاحداث التي سرعت في اندلاع الصراع مجددا. فقد شهدت تخلي الامير الكردي شرف خان امير بتليس عن تبعيته للعثمانيين ولجوئه للصفويين، وتلقيه دعماً عسكرياً منهم، وكان شرف خان من الامراء الاكراد الذين يحكمون في المنطقة منذ القرن الثامن، وكان قد خضع للحكم العثماني في عهد السلطان سليم وعهد اليه بحكم بتليس. ولا نعرف دوافعه لهذا العمل، وربما تأثر بالدعاية الصفوية التي تزايدت في المنطقة. بالمقابل نعرف عن لجوء الوالي الايراني أولامه تكلو خان الى الدولة العثمانية، اذ عينه السلطان سليمان القانوني والياً على حصن كيف (حسنكيف) وجميع اراضي بتليس اي الاراضي التي كانت تحت عهدة شرف خان، ومنح له 400 الف دوقة (مليوني آقجه) كمخصصات سنوية. ويبدوا ان اولامه لم يتمكن من الدخول الى بتليس رغم محاصرته لها، واضطر الى التراجع بعد وصول قوة ايرانية بقيادة شرف بك (وربما شرف خان حاكم بتليس الذي التجأ الى الصفويين) وقد وصلت اخبار هذه الهزيمة الى مسامع السلطان سليمان. من جانب اخر نجد ان الشاه طهماسب شجع الثورات الي قامت في الاناضول ضد العثمانيين، منها تلك التي قام بها بابا ذو النون عام 1526، وقلندر جلبي عام 1527. ولعل ابرز الاحداث التي سبقت حملة 1534 هي اعلان ذو الفقار خان تبعيته للدولة العثمانية بعد قيامه بحركته الاستقلالية ضد الدولة الصفوية. فقد استغل احد الزعماء الاكراد من قبيلة موصلو وهو ذو الفقار بن علي بك ضعف النفوذ الصفوي في العراق الاوسط والجنوبي، فقام في صيف 1527 بحركة بارعة اغتال فيها ابراهيم خان والي العراق الصفوي اثناء توجهه للقاء الشاه طهماسب . وانضمت القوة التي كان يقودها ابراهيم خان على الاثر الى اتباع ذو الفقار وتوجه على رأس تلك القوات الى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ثم استولى عليها واعلن استقلاله عن الدولة الصفوية. وتشير رواية تاريخية اخرى ان ذو الفقار كان الوالي الصفوي المعين من قبل الشاه طهماسب وقد

لقب بـ(خليفة الخلفاء) ولا يعرف السبب الذي دفعه الى تغيير ولائه للدولة العثمانية. لقد ادرك ذو الفقار منذ بداية حركته ان امكاناته لا تقارن ازاء سطوة الصفويين. ولهذا بادر الى الاستعانة بالدولة العثمانية، فأظهر ولائه لها وامر بذكر اسم السلطان سليمان القانوني (1520-1566) في الخطبة ونقش اسمه على النقود، وبعث اليه بسفارة للإعراب عن ولائه له. ويبدو ان ما اقدم عليه ذو الفقار لقي ترحيباً كبيراً عند العثمانيين اذ لم يتأخروا في الاقرار بالأمر الواقع واصدار السلطان سليمان القانوني اوامره بتقليد ذو الفقار لواء بغداد وذلك في 12 نيسان سنة 1529. ولكن يظهر ان الخطوة العثمانية تجاه ما قام به ذو الفقار لم تتجاوز ارسال كتاب التقليد والهدايا اليه، وذلك لأن وضع الدولة العثمانية لم يكن يسمح بأن تقوم بأكثر مما قامت به لأسباب قد يأتي في مقدمتها انشغالها في الحروب في اوروبا وعدم امكانية توجيه قسم من ثقلها العسكري نحو المنطقة، لأن ذلك يعني المواجهة مع الصفويين، الامر الذي يتطلب تدخل السلطان شخصياً في المسألة وقيادته حملة عسكرية وهذا ما حدث بالفعل ولكن بعد خمس سنوات. لذلك جهز الشاه طهماسب الذي تولى العرش في 1524 جيشاً كبيراً تقدم به الى بغداد وفرض عليها الحصار. وفشلت هجمات الجيش الصفوي كافة امام صلابة المقاومة، التي قادها ذو الفقار، غير ان اخوين من اقرباء ذو الفقار قاما باغتيال الثائر غدراً عام 1530 فانهارت المقاومة وعادت سيطرة الصفويين الى العراق مرة اخرى. وعين الشاه طهماسب واليا جديدا على بغداد هو محمد خان تكلو. كما عين عدداً آخر من الشخصيات الفارسية حكاماً على عدد من مدن العراق وامر بتعزيز دفاعات بغداد ثم عاد الى قزوين. وفي الوقت الذي سقطت فيه بغداد بيد الصفويين، تعرضت البصرة الى الحملة البرتغالية. فقد بدأ الاهتمام البرتغالي بالبصرة منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وقد جاءتها اول حملة برتغالية في عام 1529 عندما استعان راشد بن مغامس امير البصرة بالبرتغاليين ضد خصمه امير الحويزة، فبعث نائب الملك في الهند حملة بقيادة تافرز دي سوزا غير ان خلافا دب بين القائد البرتغالي وامير البصرة فقام بتدمير بعض القرى التابعة للبصرة ثم عاد ادراجه الى هرمز. وقد كان سبب الخلاف هو رفض راشد بن مغامس مساومة

البرتغاليين له حول بعض شروط التجارة. وقد لفت هذان الحدثان: عودة الاحتلال الايراني الى العراق والتهديد البرتغالي لرأس الخليج العربي، نظر السلطان سليمان القانوني الى خطورة الحالة التي تهدد ظهر الدولة العثمانية نظراً لسلسلة المحالفات السياسية والعسكرية بين الصفويين والقوى الاوربية، في وقت كانت الدولة فيه منصرفة الى قتال الامبراطورية الرومانية المقدسة في شرق اوروبا والبحر المتوسط وشمال افريقيا. ولهذا بدأ السلطان يفكر جدياً في مدة سلطانه الى العراق. واخذ بالاستعداد لأرسال حملة كبيرة الى ايران قدر لها الاستيلاء على بغداد وبقية العراق في نهاية عام 1534.

ـ اسباب حملة السلطان سليمان القانوني:

1. السبب الاقتصادي:

ان رغبة العثمانيين في السيطرة على طريق الحرير الوارد من تبريز نحو ارضروم وطوقاد الى الاناضول ومنها الى بورصة كان من اهم الدوافع لشن حملة جديدة على الدولة الصفوية. والحقيقة ان هذا الطريق اصبح سالكاً امام التجار منذ حملة سليم الاول، الا ان محاولة الصفويين استعادة ما فقدوه في هذه الحملة جعل الطريق في خطر، الامر الذي تطلب من القانوني التدخل العسكري لتأمين بقاء هذا الطريق سالكاً، وفضلاً عن هذا كان العثمانيون يسعون السيطرة الفعلية على طريق التوابل الواردة عن طريق البصرة-بغداد-حلب. وان هذا الطريق كان يداهمه خطران في آن واحد: الخطر البرتغالي في خليج البصرة والخطر الصفوي الذي مازال يسيطر على الاجزاء البرية منه. لكل ذلك اصبحت السيطرة على طريق بغداد-البصرة والرغبة في تأمين السيطرة على الطرق التجارية الممتدة من البصرة الى بلاد الشام والاناضول من اولويات الاهتمام العثماني. وينبغي ان لا ننسى هنا ان ايصال النفوذ العثماني الى البصرة، أي الثغر الشمالي للخليج العربي سيضع العثمانيين في مرحلة جديدة وهي السيطرة على الطريق البحري بين الهند والشرق الاوسط.

2.السبب السياسي:

اثناء انهماك العثمانيين بالحرب مع النمسا، جرى اتصال سري بين الصفويين والمجريين، اسفر عن تعاون الطرفين ضد العثمانيين، العدو المتكافئ لكليهما، كما تمكن الشاه طهماسب من تحقيق تحالف مع الامبراطور شارل الخامس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي كان في حالة حرب مع العثمانيين، وقد ارسل الامبراطور موفدين الى بلاط الشاه في عام 1529 لتعزيز علاقات الصداقة. زيادة على ذلك ان حوادث الحدود بين الدولتين الصفوية والعثمانية، الناجمة عن تحركات القبائل الكردية كانت احدى الاسباب المباشرة لإذكاء الحرب بينهما، فضلا الى الاوضاع المضطربة التي تحكم الاقاليم الصغيرة الواقعة على الحدود بين الطرفين والسياسة المتقلبة لحكامها. بل كان هناك نزاع مستمر بين اتباع الصفويين في الحدود الشرقية من الاناضول وبين امراء الحدود العثمانيين. واتُهم الشاه اسماعيل الصفوي بأنه بعد وفاة السلطان سليم عام 1520 استغل انشغال السلطان سليمان القانوني في حملاته في بلغراد ورودس واعطى زخماً لنشاطاته الدعائية في الاناضول وسعى الى شن الغارات على الحدود العثمانية في شرقي الاناضول واقامة النفوذ على العشائر في المنطقة. كما استاء العثمانيون من محاولات الشاه طهماسب اثارة القزلباش في الاناضول، مقتفيا خطى والده اسماعيل، فعلى الرغم من قيام السلطان سليم الاول بمذبحته المشهورة تجاه القزلباش في الاناضول الشرقي لم يؤد الى استئصالهم في المنطقة. ومهما يكن من امر هذه الدوافع فلم يكن بإمكان العثمانيين التخلي عن فكرة الوصول الى الخليج العربي والامتداد الى مسلمي الهند وتحجيم دور الصفويين في المنطقة، ولتحقيق هذه الغاية كان لابد من السيطرة على الطريق البري المؤدي الى الخليج العربي عبر بغداد ثم البصرة. والا لو كانت المسألة تتعلق بالصفويين وما يشكلونه من تهديد في الجزء الجنوبي الشرقي من الدولة العثمانية لاقتصرت العمليات العثمانية على ردع الصفويين او القضاء عليهم بالتوغل الى اعماق اذربيجان وايران وليس الاكتفاء بالمناطق الحدودية ثم التوجه نحو العراق وليس متابعة السير نحو الشرق واحكام السيطرة العثمانية على العراق ومد نفوذهم الى البصرة لتكون منفذاً لهم الى الخليج العربي.

ـ حملة السلطان سليمان القانوني لاحتلال العراق:

شهدت العلاقات العثمانية-الصفوية ازمة كبيرة في عهد السلطان سليمان القانوني، وكان العثمانيون منشغلين بعملياتهم العسكرية في اوروبا، ولم يكن بوسعهم فتح جبهة ثانية ضد الصفويين في نفس الوقت، فكان لا بد من تعليق العمليات العسكرية في اوروبا للتفرغ من اجل التعامل مع الامر الواقع في الجبهة الجنوبية الشرقية للدولة طالما اصبحت الحرب مع الصفويين حالة لا يمكن العدول عنها .وبالفعل قام السلطان سليمان القانوني بحل المسائل العالقة في اوروبا وذلك عندما تبوء الشاه طهماسب عرش بلاد فارس.

كانت بداية الحرب العثمانية-الصفوية عندما خاض اولامه تكلو وهو احد المنشقين عن الدولة الصفوية، معركة ضد شرف خان المنشق عن السلطنة العثمانية وتمكن من التغلب عليه وقتله في 21 تشرين الاول سنة 1533، وأثر هذا حشد ابنه شمس الدين قواته وتقابل مع اولامه تكلو الا انه ادرك انه لن يتمكن من مقاومته فاتصل بالوزير الاعظم ابراهيم باشا معلنا طاعته للعثمانيين ولهذا عهد اليه ابراهيم باشا بتليس ووعد اولامه باشا بتقليده وظيفة اخرى وكان الاجراء الذي اتخذه الوزير الاعظم صائبا وفي محله، اذ لو قام بتوجيه ادارة بتليس الى شخص اخر من غير الاسرة التي تديرها بالوراثة ، فان الامراء الاكراد الذين كانوا يديرون اقاليمهم بنفس الطريقة سيفقدون الثقة بالحكومة العثمانية ويوجسون خيفة ويستغلون بالتالي اية فرصة سانحة لإعلان تبعيتهم وولائهم للدولة الصفوية.

كان شاه ايران طهماسب قد ورث عن ابيه اسماعيل عداءً مستحكماً مع قبائل الاوزبك في اقصى الشرق وكان يقودهم عبيد خان(1539-1540) من بلاده من جهة ومع العثمانيين المتاخمين له في الغرب من جهة اخرى، فبادر اولاً الى محاربة الاوزبك ، الا ان السلطان العثماني سليمان القانوني (1524 - 1566) استغل حرب الشاه مع الاوزبك واراد السيطرة على طريق تبريز التجاري لذا ارسل اولامه تكلو، على رأس قوة صغيرة الى اطراف اقليم أذربيجان لاستطلاع الاوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الاقليم الى جانب الدولة العثمانية قدر المستطاع. ثم اصدر السلطان اوامره الى صدره الاعظم ابراهيم باشا في

تشرين الاول 1533 بالتوجه هو الاخر على راس جيش كبير قدر بـ 100.000 مقاتل للالتحاق باولامه. وكان الصدر الاعظم ابراهيم باشا قد انطلق من اسطنبول صوب المنطقة ووصل الى حلب في كانون الاول 1533 وامضى فصل الشتاء فيها وقبل ان يخطو ابراهيم باشا اية خطوة قام بجمع المعلومات المتعلقة بتحركات الشاه والاوضاع السائدة في بغداد وارجائها وكلف بهذا سليمان باشا الذي ربما عين في ايالة الاناضول بعد عام من عزله من ولاية ديار بكر 1532م. وبعد ان اجمع سليمان باشا بعض المعلومات، ارسل رسالة غير مؤرخة الى ابراهيم باشا اشارت الى ان محمد خان تكلو عين حاكماً على بغداد بعد ذو الفقار خان وجمع مؤناً تكفيه لمدة 3-4 سنوات ويسعى الى تحصين موقعه. وان علاقته مع العشائر العربية في ارجاء بغداد غير جيدة وعدائية وهو يقيم في داخل بغداد نفسها. كما اورد سليمان باشا في رسالته انه طلب من امير سنجق الموصل احمد بك ومن حسين بشري (وهو عربي كان يدير اقطاعاً للسلطان دون ان يذكر محل اقامته) طلب منهما احاطته علما بالوضع في ارجاء بغداد. وقام حسين بشري بالتوجه مع جمع من الرجال الى ارجاء تاووق (داقوق) في كركرك واغاروا على الصفويين المتمركزين هناك وتغلبوا عليهم واسروا واحدا منهم وارسلوه اليه. وازاء هذا الوضع اوصى سليمان باشا القائد العثماني ابراهيم باشا، بالتاني والتريث لحين تمكنه (أي سليمان باشا) من الذهاب الى الموصل والحصول على اصح الاخبار ليتسنى له اتخاذ التدابير اللازمة على ضوئها. وكان سليمان باشا يرى ان بغداد قلعة حصينة جداً وينبغي فتحها عن طريق بذل الامان لأهاليها وإلاّ ينبغي تجهيز الجيش بمعدات من 3000-4000 فأساً ومثلها معولاً وهناك احتمال كبير ان ابراهيم باشا امضى الشتاء في حلب اثر هذا التقرير. وقد قرر ابراهيم باشا عقب ذلك، بالتوجه الى بغداد مثلما كان مقررا في السابق الا انه وباقتراح من الدفتر دار اسكندر باشا قصد ديار بكر (ايار 1534)، وقد وصل الصدر الاعظم الى مدينة (آمد) اذ مكث فيها ستة اسابيع للتموين اتجه بعدها الى قلعة (اونيك) ثم الى قلعة (وان) ثم الى (عادل جواز) ومن هذه الاخيرة توجه الى اطراف اذربيجان حيث امر فيها اولامه وجيشه بالتقدم الى اردبيل، في الوقت الذي زحف هو على

مدينة تبريز. ولما سمع الشاه طهماسب بتوغل اولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا باقتحام تبريز، بادر الى عقد صلح مع الاوزبك وارسل فرقة من (القزلباش) لمواجهة الحملة العثمانية ولما علم ابراهيم باشا بالأمر بعث الى السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لعجزه على مواجهة الشاه طهماسب لوحده وقد استجاب السلطان لطلب صدره الاعظم واعد جيشاً في ايار 1534 قاصداً به تبريز، وفي تشرين الاول 1534وصل مصيف (اوجان) في اذربيجان فهب ابراهيم باشا فيه لاستقباله ولما كان في نية السلطان سليمان مواجهة طهماسب وجها لوجه فانه غادر مصيف اوجان في طريقه الى (سلطانية) ليزحف منها الى قزوين عاصمة الدولة الصفوية آنئذ لدحر الشاه في عقر داره، الا ان الامطار الغزيرة التي هطلت والثلوج الكثيرة التي تراكمت في الطرقات ادت الى هلاك عدد كبير من رجال الحملة العثمانية وولدت تذمراً بين افراد الجيش ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوين وقد نشرت انباء زحفه الهلع في صفوف الجيش الصفوي ولاسيما أولئك المتمردين منهم حيث مال فريق منهم الى تأييد السلطان سليمان، كما اعلن بعضهم العصيان في وجه الشاه الا ان سوء الاحوال الجوية خدمت الشاه فالشيء الذي لم يستطع فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعله الطقس، حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكمت خلفت الاوحال في الطرقات وادت الى غوص العربات والمدافع فيها فأثر هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وزاد في قلقه وتذمره واضطرابه لدرجة ان فريقاً منه تجرأ وطالب بالعودة الى الوطن ونتيجة لذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية ولما كان الرجوع الى اذربيجان في ذلك الفصل يعني مواجهة القحط والمجاعة لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لقضاء فترة الشتاء والعودة بعدها الى مواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع. في اثناء ذلك وصله وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة علما ان حاكم بغداد محمد خان كان قريبا لاولامه تكلو. ومن المعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطربت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث كانت اخبار الجيش العثماني تتوارد الى العراق عن طريق رسائل كان يبعثها باستمرار اولامه تكلو

والصدر الاعظم العثماني الى بغداد بقصد اضعاف معنويات حاكمها، وقد ادت تلك الرسائل الى انقسام ابناء قبيلة تكلو في بغداد الى مجموعتين احداهما تؤيد الشاه والثانية تروم التعاون مع الدولة العثمانية، وقد حاول محمد خان اقناع الفريق الثاني بالعدول عن موقفه والتعاون معه لصد الهجوم المتوقع والدفاع عن بغداد وقلعتها بعد ان وصلته رسائل سليمان القانوني وهي تتضمن الاغراء والتهديد، الا ان هذا الفريق أبا ذلك. وفي هذه الاثناء وصله رسول من الشاه يدعوه حاميته للتوجه الى قزوين، ولما عرض الامر على قبيلته رفضت الدعوة بل تحصنت في المدرسة المستنصرية، واعلنت التمرد ضده وجاهرت بالولاء للدولة العثمانية ولما لم يكن في استطاعته الدفاع عن بغداد، كما لم يكن في مقدوره مغادرتها وحده اتصل بقادة المعارضين وتظاهر امامهم بأنه قد غير رأيه واخبرهم بموافقته على تسليم بغداد الى السلطان وطلب منهم تنظيم وفد من زعمائهم للذهاب اليه واستقدامه فرحب القادة المعارضون بقراره وهرعوا الى السلطان فرحين لاستدعائه، وعندئذ انتهز خلو المدينة منهم فجمع ماله وحاشيته وعبر نهر دجلة ليسلك الطريق البري فاراً الى البصرة. وقد تسلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد من قبيلة تكلو وكان آنذاك على مشارف سهل ماهي دشت بالقرب من كرمان في طريقه الى العراق، لذا تحرك على الفور بهدف الوصول الى بغداد. لقد فتح السلطان سليمان بغداد دون قتال في كانون الاول 1534، وقد دخل بصحبة حاشيته فقط الى المدينة ومن الامور الهامة التي يجب الاشارة اليها، ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفاً من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافياً لأعمال النهب، ولو اخذ بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من مجاعة عبر الطريق الشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعنا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها، لذا سلمت المدينة من السلب والنهب والهدم، وهذا ما لم يعهده سكانها في تلك الايام من المحتلين. ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي 150 برج وفيه اربعة ابواب يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم، والجنوبي يسمى الباب المظلم، والشرقي الباب الابيض، اما الباب

الغربي فاطلق عليه باب الجسر، الذي كان يؤدي الى قلعة لطيور في الجانب الغربي من (الكرخ) وكان يحيط السور خندق عميق، اما المدينة فأنها كانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السالفة، فالمدرسة المستنصرية مثلاً كانت قد تحولت الى مخزن للبضائع في الوقت الذي اصبحت المدرسة النظامية اثراً بعد عين. وخلال مكوث السلطان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدرسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله ووضع حامية بقربه لحماية زواره ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وامر المعمار العثماني سنان باشا بتشييد قبة للمسجد، فانجز هذه القبة البيضاء ودار السبيل، وفي اطراف بغداد زار السلطان مراقد الائمة والمشايخ والاولياء كما قصد العتبات المقدسة في الكاظمية وكربلاء والنجف. ومن اعماله الهامة محاولة تعميقه نهر الحسينية الذي يروي مدينة كربلاء وبساتينها. فضلا عن امره ببناء سدة ترابية لإنقاذ المدينة من الغرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات، ولا تزال هذه السدة تسمى باسمه روف السليمانية. ومن كربلاء سلك الطريق الصحراوي الى النجف لزيارة مرقد الامام علي ابن ابي طالب(ع) ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة ومنها عاد الى بغداد وخلال مكوثه فيها امر بإصلاح اسوار وابراج المدينة وقلعتها، ولكن مع الاسف قام باستبدال باب السلطان الاثرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالمسامير الحديدية وبيض واجهتها بالجص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية. ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفاً في المقاطعات الاخرى من دولته، ومنح التيمار والزعامات الى الجنود والقادة الذين اظهروا البطولة في الحملة الخيرة على بلاد فارس والعراق كما نظم سجلات للأملاك الخاصة والاوقاف واوكل ولاية بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للديوان وزود الحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالأسلحة النارية والف فارس وتموين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام هجمات الشاه طهماسب المتوقعة في المستقبل.

لقد اخضع الجهاز الاداري بعد احتلال السلطان سليمان القانوني للعراق لعملية اعادة تنظيم شاملة. فاستحدثت ولايات بغداد والموصل بعد فصل الاخيرة عن ولاية ديار بكر عام 1534. كما تطلب الامر اقامة نظام حقوقي جديد وسن قوانين-نامه محلية في الموصل وتكريت وبغداد وغيرها من المدن بهدف القضاء على الظلم والاستبداد. وفي نيسان غادر سليمان القانوني العراق وبقيت في البلاد قوات عثمانية بلغ عددها نحو 22000 تضم الفرسان-الخيالة(السباهية). ولو اضيفت اليها الفصائل المسلحة التابعة للأمراء الاكراد والبدو لبلغت هذه الجيوش درجة عالية من القوة. لقد تحول العراق في النصف الاول من القرن السادس عشر الى اقوى رأس جسر للقوة العسكرية العثمانية في الشرق.

في نهاية عام 1534 عاد السلطان الى اسطنبول، وعندما وصل الى مكان يدعى كوك تبه سمع بان الشاه طهماسب الاول قد بعث برسالة الى امير اربيل عز الدين شير، مما اثار شكوك السلطان العثماني فامر بقتله، وعهد بحكم اربيل الى الامير اليزيدي حسين بك الداسيني، ثم اضاف السلطان العثماني امارة سوران بكاملها الى اربيل وسلم ادارتها الى الامير اليزيدي المذكور. في فرمان 14 شباط 1537 ثبت السلطان سليمان قانون-نامه بغداد، اعلن انه لا يسمح لاحد بعد هذا القانون ان يعامل سكان المدن والقرى خلافا للقانون والشريعة. وكلف قاضي وبكلر بكي بغداد اعلام الجميع بذلك. وللتأكد من ذلك امر السلطان بقراءة قانون-نامه في جميع المدن والقرى ومناطق التجمعات السكنية. ووضعت في الوقت ذاته مبادئ لفرض الضرائب واستغلال الارض كما اجري مسح تفصيلي ونظمت الدفاتر سجلت فيها كل التفاصيل المتعلقة بالمقاطعات والاملاك.

ـ احتلال العثمانيون لبقية انحاء العراق:

1. خضوع البصرة الى الدولة العثمانية:

لا شك ان بغداد لم تكن تعد مركزا للمنطقة فحسب بل شرياناً حيوياً يتحكم بكل العراق، وهذه الخصوصية لا تجدها في المراكز الاخرى كالموصل والبصرة، فبعد خضوع الموصل للعثمانيين ظلت بغداد تحت الحكم الصفوي ولم تتأثر من الناحية الاستراتيجية. كما لم تعد الموصل مفتاحا لاحتلال بغداد، بل تم احتلال المدينة بوصول القوات السلطانية اليها من الناحية الغربية اي عبر خانقين. وبهذا كان احتلال بغداد على ايدي العثمانيين ايذاناً بدخول المناطق المتبقية من العراق تحت حكمهم. ويبدو ان حكام هذه المناطق يعرفون هذا الامر جيداً ولهذا نجدهم يعلنون ولائهم للسلطان العثماني ولاسيما بعد ان لمسوا التفوق العثماني على الدولة الصفوية ولم يكن بمقدور هؤلاء التحرك خلاف هذا الامر. فكما حدث شمال العراق حيث اعلن الامراء خضوعهم للدولة العثمانية في عهد سليم الاول وبهذا حافظوا على اماكنهم، نجد ان الامراء في جنوب العراق اتخذوا نفس الموقف. ويأتي على رأس هؤلاء الامراء بلا شك امير البصرة الذي لم يتأخر في اعلان ولائه للسلطان سليمان. وكانت البصرة تابعة للصفويين اخذها الشاه اسماعيل الصفوي في عام 1508 من دولة الآق قوينلو. الا ان هذه التبعية لا تعني حكماً صفوياً مطلقاً بكل معنى الكلمة، اذ وقعت المنطقة تحت سيطرة بعض القبائل العربية ولهذا لم تشهد الاستقرار في الادارة. وكانت البصرة ومنذ مدة طويلة تدار من قبل عائلة راشد بن مغامس وتقرأ الخطبة باسمهم وتسك النقود باسمهم ايضاً، وربما كان النفوذ الصفوي فيها اسمياً. وعند وصول السلطان سليمان القانوني الى بغداد كان يدير البصرة راشد ابن مغامس، وعندما علم بما آل اليه الامر في

بغداد، قصد السلطان سليمان واعلن خضوعه له، وفضلاً عن هذا قام رؤساء العشائر العربية في منطقة البصرة وفي الغراف والحويزة بإعلان ولائهم للسلطان، كما ورد الرسل من القطيف والبحرين يعلنون ولاء حاكمهم للسلطان. وفي عام 1538م ارسل الامير راشد بن مغامس وفداً برئاسة ابنه مانع وضم وزيره وقائد جنده مع هدايا كثيرة الى السلطان وسلمه مفاتيح مدينة البصرة واعاد اعلان خضوعه للدولة العثمانية، وإثر هذا عهد السلطان اليه بالبصرة على ان يقوم بضرب النقود وقراءة الخطبة باسم السلطان، ويعود سبب اتصاله بالسلطان الى خشيته من تحركات البرتغاليين في ارجاء المحيط الهندي ومضيق هرمز. وقد عهد السلطان بحكومة البصرة اليه تحت اسم (إيالة البصرة). وقد قام راشداً بسك النقود في البصرة باسم السلطان العثماني كما قرأ الخطبة باسمه ايضاً وذلك في 1538م . لقد تجسدت سلطة الباب العالي في هذه المرحلة وبشكل رئيس في تكريس خطبة الجمعة للسلطان ونقش اسمه على النقود. وفي افضل الحالات كان العثمانيون يرسلون السلاح ويبنون الحصون ويركزون الحاميات الصغيرة. وكان ينبغي على راشد بن مغامس طالما عد اميرا عثمانيا ان يدير ايالته وفق القوانين الشرعية وبشكل ينسجم مع اوامر بكلربكي بغداد. ولكننا لا نمتلك معلومات عن كيفية ادارة راشد للبصرة، والذي نعرفه انه وبعد راشد حل محله ابنه مانع، غير انه اضطر الى التنازل عن موقعه ليحيى شيخ بني امان. ويستشف من نوايا وتوجهات العثمانيين في هذا الوقت بالذات انهم كانوا يعدون العدة او يستهدفون الوصول الى سواحل خليج البصرة. وبمعنى اخر الوصول الى بوابة الدخول والخروج المهمة للمحيط الهندي، ولهذا فان وجود كيان مستقل في البصرة كان من شأنه عرقلة وصولهم الى هناك. ولم يمر وقت طويل حتى ظهر الدافع الذي يوجههم في الحركة نحو البصرة . ففي سنة 1546 طالب السلطان سليمان الشيخ يحيى بإعادة بعض الاشخاص المطلوبين من قبل العثمانيين والذين فروا الى البصرة، الا ان يحيى لم يكترث بهذا الطلب، وبهذا اصبح كمن يدعو القوات العثمانية للتحرك نحوه . وبعد ان تلقى إياس باشا بكلربكي بغداد امر التحرك نحو البصرة قام بتسيير اسطول مكون من 120 سفينة سلم قيادته الى سنجق بكي (امير سنجق) الموصل، كما ارسل القوات البرية تحت امرة علي الذي ينتسب الى اسرة

ذو القدر. لقد سعى القائد العثماني في خلال تقدمه الى اخضاع القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة، ونجح في الحاق هزيمة بشيخ مشايخ ال قشعم الذي يلقب بشيخ العراقين أي شيخ الكوفة والبصرة. وعندما وصلت هذه القوات الى القرنة وحاول ابن عليان حاكم منطقة الجزائر(شمال البصرة) صد هذه القوات اذ سار على راس ثلاثة الاف من اتباعه المقاتلين الى العثمانيين الا انه انهزم كما انهزمت امام العثمانيين القوات الواردة من اطراف البصرة. وهذه القوات هي بالتأكيد كانت تحت امرة الشيخ يحيى الذي كان يتحكم بالبصرة، الامر الذي ادى الى هروب المدافعين عن البصرة. فبقيت المدينة دون دفاع فدخلها العثمانيون بقيادة إياس باشا في كانون الاول سنة 1546. وعين إياس باشا في ايالة البصرة بشكل مؤقت بلال محمد باشا واصبحت البصرة تحت السيطرة المباشرة للدولة العثمانية وفقدت ميزتها في الحكم المحلي الذاتي، ثم عين بلال محمد باشا بكلربكي فيها بساليانه (مخصصات سنوية) مقدارها مليون آقجه سنويا ويكون بذلك اول والي عثماني يتولى ادارة البصرة بشكل مباشر. لقد تحول جنوب العراق الى ولاية تابعة للسلطنة العثمانية، وقد خفض الوالي العثماني الضرائب والغى ابتزاز الاموال غير القانوني الذي كان يمارسه راشد بن مغامس، وادخل النظام العثماني العام للأراضي والضرائب، كما نشر بين الشعب قانون-نامه البصرة. وما اتسم بالأهمية البالغة ان والي بغداد حول جمارك البصرة التي كانت تتقاضى مبالغ طائلة من الرسوم المفروضة على البضائع الهندية المستوردة الى ممتلكات عامة تابعة للحكومة. وفي عام 1551 استكمل تحضير الدفتر العثماني الاول الذي سجلت فيه تفاصيل املاك الحاكم الخاصة والمقاطعات ونظام لإقطاع في ولاية البصرة.

على الرغم من السيطرة العثمانية فان الاستقرار الاداري لم يتحقق دائما في البصرة وارجائها بل اصبحت مسرحا للاضطرابات او سيطرة العشائر العربية عليها، فسرعان ما ثارت القبائل العربية بزعامة علي ال عليان كبير مشايخ الجزائر عام 1549، فكلف السلطان والي بغداد تمرد علي باشا لإخماد الثورة، واصدر اوامره الى والي سيواس محمد باشا البالطه جي للتقدم على رأس قوة من الانكشارية للمساعدة في انهاء الثورة. وقد تقدمت القوات العثمانية الى واسط ومنها توجهت الى المدينة وتقع بالقرب من القرنة مركز ال

عليان. وبعد معارك شديدة بين رجال القبائل والقوات المهاجمة، فشل العثمانيون في تحقيق نتيجة حاسمة، وبسبب طبيعة المنطقة غير المواتية للحروب النظامية، وامام شدة المقاومة، وجد القائد العثماني تمرد علي باشا نفسه مجبرا على الانسحاب، وقد كلفه فشله منصبه، اذ صدر الامر بعزله وتعيين محمد البالطه جي باشا لمنصب والي بغداد. ولكن الدولة العثمانية، نظرا لأهمية جنوب العراق لاسيما البصرة من الناحيتين الاستراتيجية والتجارية، وخوفا من استغلال البرتغاليين وحلفائهم الصفويين المتربصين عند مداخل الخليج، استمرت في سياستها الهادفة الى اخضاع القبائل واتباع سياسة قمعية شديدة. لكن كان لفشل الاسطول العثماني في صراعه مع البرتغاليين بين عامي(1551-1553) اثر في اضعاف هيبة العثمانيين في المنطقة، فاستغلت القبائل العربية ذلك لمعاودة الثورة على العثمانيين، واستطاع ال عليان في عام 1553 من صد حملة عثمانية ارسلت لقمع ثورتهم. وتزايدت على اثر ذلك جرأة القبائل واخذت تهاجم الحامية العثمانية في البصرة بشكل متواصل. وقد اشتدت ثورة ال عليان خطورة في عام 1566-1567، فنظمت حملة كبرى اشتركت فيها حاميتا شهرزور والموصل، كما ارسلت 450 سفينة مزودة بـ 200 مدفع عن طريق بيره جك عبر الفرات، وانيطت قيادة الحملة بوالي بغداد اسكندر باشا. وقد استطاع العثمانيون تحقيق بعض النجاح، ولكن رجال القبائل واصلوا المقاومة بأسلوب حرب العصابات، وكبدوا القوات العثمانية خسائر كبيرة. فلم يكن من اسكندر باشا الا ان يواصل ضغطه العسكري، ولكنه فشل في احراز نصر حاسم على رجال القبائل، فامر بقطع اشجار النخيل واتلاف المحاصيل التي تعيش عليها القبائل، مما اضطر ال عليان الى طلب الصلح لقاء دفع ضريبة الى خزينة البصرة، وتسليم احد اولاده رهينة لدى السلطان.

2.خضوع المنطقة الشمالية الشرقية الى الحكم العثماني:

كانت المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من العراق فقد خضعت للحكم العثماني باستثناء منطقة شهرزور الواقعة في الشمال الشرقي منه. ومن المعروف ان قلاع الحلة وشهربان

ولورستان وواسط ومشعشعة والقطيف الحقت بالدولة العثمانية في الوقت الذي كان السلطان سليمان القانوني ما يزال في بغداد، اي ان الحاق هذه المناطق تبع احتلال بغداد مباشرة . اما منطقة شهرزور الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية من العراق فقد كان يسكنها الاكراد على شكل عشائر. وقبيل الحكم العثماني خضعت المنطقة الى الصفويين الذين اقروا امرائها المحليين في ادارة المنطقة. والمعروف ان انضواء منطقة شهرزور تحت الحكم العثماني تحقق خلال حملة ابراهيم باشا التي كانت مقدمة لحملة القانوني وخلال هذه الحملة وكذلك بعدها قامت القوات العثمانية بفتح الكثير من القلاع الواقعة على الطريق وسيطرت على حوالي خمسة وعشرين قلعة في منطقة شهرزور وحدها وذلك حوالي اواخر سنة 1534 وبداية سنة 1535، وبعد مغادرة القانوني بغداد بعد احتلالها متوجهاً نحو اذربيجان سيطرت القوات العثمانية التي كانت تتقدم في منطقة شهرزور على قلاع كثيرة فيها، كما اعلن بعض رؤساء العشائر المشهورة في المنطقة ولائها للدولة العثمانية. غير ان التحكم العثماني في المنطقة كان مرهونا بالوجود الفعلي للقوات العثمانية في المنطقة ولهذا اصبحت هذه المنطقة مسرحاً للنزاع العثماني-الصفوي، ولم يكن للزعماء المحليين الا الخضوع لأحد الطرفين المتخاصمين. ويبدو ان قلعة ظالم مقر ولاية شهرزور كانت اهم القلاع في المنطقة قاطبة.

- البصرة قاعدة بحرية للصراع العثماني-البرتغالي:

شهد العراق في العهد العثماني صلات كبيرة ربطت ما بينه وبين اقطار الخليج العربي الاخرى، وكانت هذه الصلات تتفاوت مدا وجزرا وتختلف من وقت الاخر. وكان لظهور الخطر البرتغالي اثر كبير في توجه العثمانيون نحو البصرة ثم الخليج العربي.

بدأ الاهتمام البرتغالي بالبصرة منذ نهاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وقد جاءت اول حملة برتغالية في عام 1529 عندما استعان راشد بن مغامس امير البصرة

بالبرتغاليين ضد خصمه امير الحويزة فبعث نائب الملك البرتغالي في الهند حملة بقيادة تافرز دي سوزا، غير ان خلافا دب بين القائد البرتغالي وامير البصرة فقام بتدمير بعض القرى التابعة للبصرة ثم عاد ادراجه الى هرمز. وقد كان سبب الخلاف هو رفض راشد بن مغامس مساومة البرتغاليين له حول بعض شروط التجارة

لقد اتخذ العثمانيون من البصرة نقطة انطلاق لهم نحو التقدم في مياه الخليج العربي لضم اقطاره الواحدة تلو الاخرى الى إمبراطورتيهم الشاسعة، وكانوا بهذا يصارعون الزحف الاوروبي من جهة والامبراطورية الفارسية من جهة اخرى. لقد كانت تلك المحاولات في البداية بطيئة وضعيفة ذلك لان العثمانيين عجزوا عن تثبيت نفوذهم في البصرة نفسها وما حولها، فبقي ال عليان حكام المدينة في حالة تمرد مستمر، وقد فشل الاسطول العثماني عام 1553 من احتلال حصونهم، ولاقى العثمانيون فشلا مماثلا في الحويزة، وبقيت عشائر المنتفك مصدر ازعاج مستمر للولاة. اما الحالة في البصرة نفسها فهي لا تختلف عما كان يجري من حولها، فمرة كانت تتعرض لغزو ايراني، ومرة تنفصل عن بغداد وهكذا. وكان من العسير على ولاة بغداد ان ينقذوها من متاعبها، وان الاسطول الذي انشاءه العثمانيون فيها كان ضعيفا مهلهلا ومفككا، لذا فانه لم يوفق في احراز أي نصر يذكر. وفشلت جميع المحاولات التي بذلت للسيطرة على بعض اجزاء الخليج العربي، ذلك انها جوبهت بمقاومة اوربية شديدة: برتغالية-هولندية-انكليزية من جهة، ومقاومة فارسية على ضفة شط العرب اليسرى من جهة ثانية، وبمجابهة العصبيات المحلية من جهة ثالثة. وكانت القوات البحرية العثمانية في كل هذا بعيدة عن مراكز تموينها في البحر المتوسط، قبل فتح قناة السويس. ومع هذا فأن العثمانيين بذلوا مساعي كبيرة من اجل جعل البصرة قاعدة لعملياتهم البحرية في الخليج العربي ضد البرتغاليين. واولى تلك المحاولات كانت عام 1552 اذ جعلها بيري بك ريس نقطة تجمع لأسطوله، بعد فشله في الاستيلاء على هرمز. وقد بقي قسما من اسطوله في البصرة وعاد الى السويس بالقسم الباقي. وتكررت المحاولة عام 1554 اذ قاد حاكم القطيف وهو مراد بك ريس اسطول البصرة متوغلا في الخليج العربي، ولكنه عاد من

حيث انطلق بعد فترة قصيرة. على ان ما اصاب الاسطول العثماني بعدئذ على يد سيدي علي ريس عام 1554 كان ضربة قوية وجهت الى الاسطول العثماني في البصرة جعلته لا يستطيع ان يفيق منها فترة طويلة. فقد بدأ قائد الاسطول مغامرته قاصدا القطيف، وليتتبع خطوات الاسطول البرتغالي الذي فاجأه عندما اتجه جنوبا مجتازا هرمز، وكانت خسارة كبيرة لا تعوض للعثمانيين عندما اضطر سيدي علي الى بيع قطعات اسطوله التي نجا بها بعد ان قذفته الامواج الى الساحل الهندي. وقد فشل العثمانيون في اخراج البرتغاليين من الخليج العربي، وحتى عندما ضعف الاخيريين عند انضمام بلادهم عام 1580 الى اسبانيا، كان العثمانيون بدورهم قد وهنوا وبرزت قوتان جديدتان هما هولندا وبريطانيا. ولم يلاحظ على العثمانيين انهم قاموا بأي نشاط يذكر في الخليج العربي باستثناء محاولتهم في احتلال البحرين عام 1559. وكانت حصيلة العثمانيين هو احتلالهم بمساعدة قبائل المنتفك مقاطعة الاحساء، الا ان هذا الاحتلال لم يتم عن طريق البحر، وانما حققه جيش من المشاة عن طريق البر عام 1592 بقيادة فتحي باشا.

ـ الادارة العثمانية في العراق:

1. التقسيمات الادارية :

بادرت الدولة العثمانية على اثر الاستيلاء على بغداد في 1534م، والحاق البصرة على نحو مباشر بالدولة في 1546، الى وضع تقسيم اداري منظم للعراق لكونه احد اهم ولاياتها من ناحية ولأنها لم تجد تقسيما اداريا واضحا له، من ناحية اخرى، وقد روعيت في التقسيم الاوضاع الخاصة بالبلاد، ولا سيما ما يتعلق بالعشائر العربية والكردية التي تؤلف نسبة كبيرة من السكان. وقد طبق العثمانيون على العراق نظام الايالات المعمول به في بقية انحاء الامبراطورية. والايالة او الولاية هي اكبر وحدة ادارية وتقسم الى وحدات ادارية اصغر تعرف

بالسناجق ومفردها سنجق اي لواء وحاكمها يعرف بالسنجق بك اي امير اللواء. وقسم العراق اول الامر على اربع ولايات اخذت شكلها المنتظم في اوائل القرن السابع عشر الميلادي وهي بغداد والموصل والبصرة وشهرزور (كركوك)، ثم اضيفت ولاية الاحساء.

من الصعوبة وضع حدود دقيقة للولايات العراقية وذلك لعدم الثبات الذي اتسمت به، اذ كانت عرضة لتغيرات مستمرة حيث تم نقل قسم من السناجق من ولاية الى اخرى، او زيادة عدد سناجق الولاية نفسها، ولنا مثال جيد هو اربيل وشهرزور، فقد جعل العثمانيون اربيل سنجقا تابعا لولاية بغداد، واستمرت كذلك طيلة القرن السادس عشر، ثم التحقت في القرن السابع عشر بولاية شهرزور التي كان مركزها مدينة كركوك، وقد ادى بروز وتنامي قوة الامارة البابانية منذ اواخر القرن السابع عشر وسيطرة حاكمها بابا سليمان(1669-1699) على مدينة كركوك عام 1660 واستمرارها تحت حكم البابانيين حتى عام 1701، الى دفع العثمانيين الى الغاء ولاية شهرزور من التقسيمات الادارية للعراق منذ بداية القرن الثامن عشر. ويبدو ان هذا الالحاق شمل توابع كركوك ايضا ومنها اربيل التي استمرت تبعيتها لولاية بغداد. وتشير المصادر التاريخية الى مثل هذه التبعية، ففي عام 1804 كان حاكم اربيل هو سليمان بك ابن اخت والي بغداد المملوكي علي باشا(1802-1807)، وفي عام 1821 عين الوالي المملوكي داوود باشا(1816-1831) اخاه احمد باشا حاكما على اربيل. ونجد مثالا اخر لهذا الاضطراب الاداري، فقد كان سنجق السليمانية تابع اداريا لإيالة شهرزور التي اعيد تشكيلها عام 1849، بعد ان كان تابعا لبغداد، ويعود سبب هذا التغيير الى بعد سنجق السليمانية عن بغداد، مما جعل هناك صعوبة في تامين الامن والنظام فيها. ولكن في عام 1851 الحقت ايالة شهرزور نفسها بإيالة بغداد، بعد ان قررت الدولة العثمانية اقامة ادارة موحدة وموسعة في العراق بغية تسهيل حل مشاكل البلاد. وكذلك نجد الحالة ذاتها في كربلاء فقد عدت هذه المدينة قضاء تابعا لإيالة بغداد وشهرزور عام 1845 قبل ان تفرد الاخيرة بإيالة مستقلة، ثم اتخذت الدولة العثمانية قرارا عام 1858 بإعادة تشكيل ايالة بغداد واصبحت كربلاء سنجقا، وفي عام 1874 أُنزلت الى درجة قضاء.

كانت السناجق تقسم على وحدات ادارية صغيرة يطلق على كل منها قضاء. والاقضية تقسم على نواح وقرى صغيرة. ويدير الاقضية على نحو عام القاضي والصوباشي والسباهية الموجودون في القضاء. في حين يدير النواحي والقرى شيوخها الذين يسمون كتخذا، يعاونهم نائب القاضي الموجود في الناحية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، طبق على العراق نظام (تشكيل الولاية) الذي اصدرته الحكومة العثمانية عام 1864. وقسم العراق بموجبه على ولايات ثلاث هي: بغداد والبصرة والموصل. وقسمت كل ولاية على عدد من الالوية وهذه بدورها قسمت على وحدات ادارية اصغر تدعى كل منها بالقضاء، والقضاء قسم على النواحي، وهذه انقسمت على اصغر الوحدات الادارية التي هي القرية. وتدار هذه الوحدات حسب تسلسلها من قبل: الوالي، المتصرف، القائم مقام، مدير الناحية، المختار.

2.الولايات العراقية في العهد العثماني:

بـــغـــداد:

اهم واكبر ولايات العراق، بل تعد من اهم المدن الخاضعة للسلطان العثماني، ويطلق عليها احيانا كما اشار رحالة ايطالي في منتصف القرن السابع عشر باسم بغداد المقدسة. وكانت المدينة قاعدة مهمة للعمليات العسكرية ضد ايران، ولكونها هدفاً مستمراً لكل الحملات الايرانية. وباشا بغداد اعلى باشوات العراق رتبة ، وغالبا ما يعهد اليه الاشراف على الولايات الاخرى وحمايتها مما قد تتعرض له من خطر. وفيها ثمانية عشر سنجقاً او لواء. وولاية بغداد من النوع الذي يطلق عليه في نظام الادارة العثماني مصطلح (ساليانة) وكانت وارداتها مع سناجقها تعطى بالالتزام (بروجه تخمين) وترسل وارداتها بعد استقطاع مصاريف الولاة والسنجق بكيه وبقية الموظفين واحتياجات الولاية الاخرى الى خزانة الدولة تحت اسم (مال ارساليه). وبمقتضى هذا النظام، كانت الدولة تعهد الى شخص من ذوي النفوذ والثراء بجباية الضرائب المقررة على منطقة معينة مدة زمنية محددة

اول الامر. وكان عليه قبل مباشرة عمله ملتزما (مقاطعجي) ، ان يدفع مبلغا من المال يعادل ضريبة سنة من الضرائب المقررة على المنطقة التي تسمى (دائرة الالتزام) التي يمارس فيها اختصاصاته، يسدده الى دائرة تعرف باسم ديوان الروزنامة (المسؤول عن تحرير وضبط الحسابات في الدفاتر الرسمية) ليحمل لقب (ملتزم) مع المستندات الرسمية التي توضح منطقة التزامه ومقدار الاموال المقررة عليها. وكان ديوان الروزنامة يصدر في الوقت ذاته (تذاكر ديوانية) الى سكان المنطقة المعينة يحدد فيها اسم الملتزم ومقدار المال الواجب دفعه، وذلك من قبيل الرعاية لمصالح السكان، فلا يطالبهم الملتزم بأكثر مما هو مقرر عليهم. ومع ذلك كان الملتزم يحقق في ظل هذا النظام ارباحاً مادية مختلفة منها حصوله على (الفائض) وهو الفرق بين ما دفعه وحصيلة ما يجبيه فعلاً من السكان في دائرة التزامه. وبالرغم من اشتراط الدولة على الملتزم عدم الحصول على اكثر من النسبة المحددة، الا ان تدهور مؤسساتها شجع الملتزمين على استغلال مناصبهم وجمع ما يزيد على المبالغ القانونية كثيراً، فأساءوا الى الفلاحين واقتصاد الريف اساءة بالغة. وتسلل نظام الالتزام الى مختلف نواحي الدخل الحكومي، فكانت المدن والقرى تمنح بموجبه، كما كان شيخ العشيرة يلتزم بجمع الاموال الاميرية من افراد عشيرته. وقد الغى هذا النظام بموجب مرسوم الاصلاح (خطي كولخانة) الذي صدر في 3 تشرين الثاني 1839م . وفي شهر كانون الاول من السنة نفسها، صدر قانون تقرر فيه ان يجمع حكام الولايات ابتداءً من اول اذار 1840م الضرائب القانونية فقط، وان يتولى جمعها جباة مدنيون يتقاضون رواتبهم من الدولة. الا ان تطبيق ذلك ظل متعثراً، وبقي الالتزام ساري المفعول بالرغم من صدور مرسوم سلطاني اصلاحي اخر في 18 شباط 1856م عرف باسم (خطي همايون) منع فيه الموظفون واعضاء المجالس المحلية من الاشتراك في اي (التزام) كخطوة اولى للقضاء على هذا النظام نهائياً. وقد ظل نظام الالتزام مطبقاً على العراق على الاراضي العشائرية والاميرية، حيث كان يسند الى الشيوخ التزام ديرة عشائرهم وساد هذا الاسلوب طويلاً حتى توقف في اواخر القرن التاسع عشر.

الموصل:

وهي اولى مناطق العراق التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية منذ عام **1516**، وقسمت الى سناجق في عهد السلطان سليمان القانوني كما توضح ذلك سجلات الدولة العثمانية الخاصة بولاية الموصل. وطبق عليها منذ منتصف القرن السادس عشر نظام الاقطاع الحربي العثماني وبموجبه كان السلطان يمنح ارضاً لأفراد من سلاح الخيالة يستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين. وكانت هذه الاراضي تسمى اقطاعات. ويطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الاقطاع الحربي اسم (السباهية الاقطاعية). وهم لا يتقاضون مرتبات نقدية من الحكومة بل يعتمدون على واردات اقطاعاتهم التي يطلق عليها المصطلح التركي (مال مقاتلة)، وفي مقابل ذلك كان على هؤلاء الفرسان ان ينضموا الى الجيش حالما تشتبك الدولة في حرب ومعهم عدد من الاتباع بخيولهم واسلحتهم. وكان عدد هؤلاء الفرسان الاقطاعيين يتناسب مع مساحة الاقطاع ومع الايراد الذي تغله هذه الارض الاقطاعية التي كانت على ثلاثة انواع رئيسة هي :

1. اقطاع مساحته صغيرة نسبيا يسمى (تيمار) يغل على صاحبه ايراداً يبلغ ثلاثة الاف اقجة (عملة فضية لا يزيد وزنها على ربع مثقال من الفضة وقيمتها لم تكن مستقرة)، وكان عليه ان يقدم الى الجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح ما بين اثنين واربعة بخيولهم واسلحتهم.

2. اقطاع اكبر مساحة يسمى (زعامت) يمنحه السلطان الى الفارس الذي اظهر كفاية قتالية، ويغل على صاحبه دخلاً يصل الى مئة الف اقجة، وعليه ان يقدم للجيش وقت الحرب عدداً من الفرسان يتحدد بنسبة فارس واحد عن كل خمسة الاف اقجة. وهذان النوعان (تيمار وزعامت) يخضعان لنظام التفتيش الذي يقوم به (الدفتر داريون).

3. اقطاع اكبر مساحة من النوعين الاولين اسمه (خاص) لا يخضع للتفتيش، ويمنح عادة للولاة الذين يكونون في الخدمة الحكومية، ويتجاوز وارده مائة الف اقجة. وبجانب هذه الاقطاعات الحربية، كانت هناك بعض الاقطاعات التي هي من نوع (خاص) ملكاً للسلطان ويطلق عليها (خواص همايون) وهي اكبر واهم الاقطاعات. وكل مجموعة من هذه الاقطاعات كانت تشكل وحدة ادارية يطلق عليها (سنجق او لواء) على رأسها (سنجق بك) وهو مسؤول عن ادارة الشؤون المدنية في لوائه، فضلاً عن مهامه العسكرية.

كانت حدود الموصل تتوغل قليلاً في كردستان شرقاً، وفي تكريت جنوباً الا ان تلك الحدود لم تكن واضحة تماماً. وتختلف المصادر حول عدد سناجقها وعلى الارجح كانت ستة سناجق.

البصـــرة:

لقد كان موقع البصرة منحها خصوصية بالنسبة للدولة العثمانية، نظرا لقيامها بالوظيفة الدفاعية بدلا من السلطة العثمانية، فالبصرة في موقعها على رأس الخليج العربي تحيطها مخاطر انية واخرى دائمة، فمن ناحية الشرق فان لإيران دور مهم في تأجيج الصراع من خلال هجماتهم على المدينة، اما من ناحية الغرب فان متاعبها متأتية من القبائل المتنقلة في الصحراء.

صنفت من ولايات الساليانة، وهناك خلاف تاريخي حول تقسيم البصرة الى وحدات ادارية، فبعض المصادر تشير الى ان البصرة لم تقسم على سناجق بسبب تركيبها العشائري، ومع ذلك تشير مصادر اخرى ان البصرة مؤلفة من ثمانية سناجق، وكانت تجبى ضرائبها بالالتزام وعدت وحدة ادارية واحدة يتسلم الوالي المعين لإدارتها راتباً سنوياً على شكل ساليانة في حين ان هناك ما يدل على ان ولاية البصرة قسمت على ثمانية سناجق وغالبيتها

عبارة عن قلاع حربية فيها حاميات عسكرية لمواجهة انتفاضات القبائل وتهديدات حكام ايران. ويبدو ان عدد سناجقها ارتفع الى سبعة عشرين سنجقاً في الربع الاخير من القرن السادس عشر. ومن العسير تحديد مواقع السناجق والقلاع كافة بدقة لاندثار الكثير خلال مدة لا تزيد على القرن ، بفعل الحروب والكوارث الطبيعية. استمرت البصرة ولاية مستقلة يحكمها وال مثل غيرها من الولايات، الا انها الحقت بولاية بغداد في 1733 حيث اصبح والي بغداد يعين عليها متسلماً ينوب عنه في حكم المدينة. وظل الوضع الاداري في البصرة على هذه الصورة حتى منتصف القرن التاسع عشر حينما صارت ولاية قائمة تحت ادارة (باشا) شبه مستقل وقد ضمت الاراضي الواقعة على شط العرب والفرات الى السماوة، وعلى دجلة الى العمارة التي ادخلت ضمن حدودها و تشمل الحي وشط الغراف. وقد منح والي البصرة صلاحية الاتصال المباشر مع الباب العالي، ولكن في الشؤون العسكرية والمالية ظل يتبع والي بغداد. على ان الوضع الاداري للولاية لم يستقر كلياً، فأحيانا تلحق بولاية بغداد ثم تنفصل عنها فيلحق بها او تنتزع منها مناطق تقع بين المدينتين. ولكنها على نحو ما تبقى حتى في حالة انفصالها ولاية مستقلة تابعة لولاية بغداد التي يتمتع واليها بصلاحيات واسعة في ادارتها. فعلى سبيل المثال غدت البصرة عام 1869 لواء تابعاً لولاية بغداد ، وفي عام 1875 م رفعت مرتبتها من لواء الى ولاية، وفي عام 1880، انزل درجتها مرة اخرى من ولاية الى متصرفية (لواء) عام 1884، واستمرت حتى الاحتلال البريطاني عام 1914.

شهرزور (كركوك):

طبق فيها نظام الاقطاع الحربي، وقسمت على عشرين سنجقاً خلال القرن السادس عشر، ارتفع الى اثنين وثلاثين في منتصف القرن السابع عشر. وغالبية تلك السناجق قلاع تتحكم بالممرات المهمة، بسبب طبيعة المنطقة العشائرية، والتهديد الايراني المستمر لها، وغالب اسمائها لا تعرف اليوم.

الاحســـــاء:

استولى العثمانيون على الاحساء سنة 1550 ولم تقسم الى سناجق، بل ظلت وحدة ادارية واحدة، فقد اصبحت ايالة الاحساء من الايالات العراقية في عهد السلطان مراد الرابع (1623 ـ 1640).

3. الجهاز الاداري:

استهدف العثمانيون من وراء تنظيم ولاياتهم عدم تركيز السلطات بيد مسؤول واحد تلافياً لظهور النزعات الانفصالية التي تراود ذلك المسؤول. ولهذا كانت هيئة الادارة في كل ولاية تتألف من الوالي وموظفيه: الكتخدا، المتسلم، رئيس الكتاب، الخزنة دار، والدفتر دار (المسؤول المالي) واغا الانكشارية الذي يترأس قوات الدولة النظامية الموجودة في مركز الولاية وقلاعها المختلفة، والقاضي والى جانب هؤلاء يقوم ديوان استشاري يظم ابرز موظفي الولاية ووجوهها من السكان والمفتي ونقيب الاشراف.

ـ الوالي:

وهو راس الجهاز الاداري للولاية وارفع منصب واهمه فيه. فهو ممثل السلطان وسلطاته غير محدودة، بل يوصف احيانا بانه حاكم مطلق مستبد، لا يخضع الا لسيده السلطان العثماني، وقد اتخذ بعض ولاة بغداد مثل سليمان باشا الكبير(1780-1802) لقب الخليفة باعتبار ان بغداد مدينة الخلفاء. وكان للوالي القيادة العليا على القوات المتواجدة في بغداد، بحيث كان الولاة الاقوياء يتجاوزون في كثير من الاحيان على اختصاصات الموظفين الكبار الاخرين في الولاية كالقاضي وآغا الانكشارية، وله حق مصادرة اموال الاشخاص الذين يرتاب بولائهم. ويتم تعيين الوالي او تجديد ولايته سنوياً بفرمان (مرسوم) سلطاني يكتب بنسختين، ترسل الاولى اليه وتحفظ الثانية في العاصمة اسطنبول. ومنذ اواخر القرن السادس عشر، اصبح الوالي يحمل رتبة وزير ولقب باشا. ولم

تكن هناك قاعدة ثابتة لتعيين الولاة او نقلهم فقد يقلد شخص معين المنصب كوسيلة من وسائل المكافأة او التكريم او يحصل عليه لقاء رشوة معينة. وعلى نحو عام كان الوالي لا يظل في ولايته مدة تزيد على ثلاث سنوات مع استثناءات نادرة. فقد حكم بغداد ما بين عام 1639-1704م اربعة وثلاثون والياً. والهدف من وراء عملية التنقلات المستمرة، منع استقرار الوالي وتقوية علاقته بالسكان والقوى الموجودة داخل ولايته خوفاً من ان يتعزز مركزه مما قد يدفعه طموحه الى التفكير في الانفصال. ولتغطية نفقات الوالي في الولايات المطبق فيها اسلوب الاقطاع الحربي، منح اقطاعاً من درجة (خاص) مثل الموصل وشهرزور. اما في ولايتي بغداد والبصرة، فكان الوالي يتقاضى راتبا سنوياً (ساليانه). اكتسب ولاة بغداد اهمية خاصة تفوق ولايات العراق الاخرى وتتوضح هذه الاهمية من جعلهم مسؤولين عن المناطق الكردية والبكوات الاكراد كما كان لهم حق تعيين الموظفين دون الرجوع الى الباب العالي، فضلا عن ذلك كان يسمح لوالي بغداد ان يستعمل سفنا شبيهة بتلك السفن التي يستعملها السلطان العثماني. وسلطة الوالي ودرجة اهميته كانت تعتمد على شخصيته وقوته داخل الولاية وعلاقته المؤثرة فيها. واهم واجبات الوالي المحافظة على الولاية وضمان ولائها للسلطة العثمانية وضبط الامن والنظام والعدل، والاشراف على تطبيق القوانين، وحماية ارواح الناس وممتلكاتهم والعناية بتحصين القلاع والمدن، وارسال الاموال المفروضة على الولاية الى العاصمة سنويا والمشاركة الفعلية في الحروب التي تنشب بين الدولة واعدائها من الدول الاخرى. كما كان الوالي في اوقات الفيضانات يشرف على اعمال الصيانة الخاصة بالسدود، ويذكر الرحالة الامريكي فوك ان رديف باشا والي بغداد بعد فيضان بغداد عام 1874 قام بإصدار امر بأغلاق جميع الاسواق والدكاكين، واوجب على كافة الذكور من السكان باستثناء الاجانب ان يعملوا اربعة ايام في اصلاح السدود، وارسل نصفهم للعمل شمال النهر، وظل الباقون يعملون تحت اشراف الرجال الرسمين لإصلاح السدود المحيطة بالمدينة، وكان الباشا بنفسه في موقع العمل، محاطا بحاشيته يقوم بالإشراف على عمليات الاصلاح، وكانت هذه التدابير الحيوية سببا في انقاذ المدينة.

كان على الوالي ايضاً ولاسيما في ولايتي بغداد وشهرزور مراقبة تطورات الاوضاع في ايران وارسال تقارير منتظمة الى الباب العالي حول ذلك. ولما كان من واجبات الوالي المحافظة على الاوضاع الراهنة في الولاية فمن غير المتوقع منه احداث تغييرات اقتصادية واجتماعية لإصلاح الامور العامة.

كانت الحكومة العثمانية تطلع على شؤون الولايات عن طريق ارسال مبعوثين عنها في اوقات مختلفة لمراقبة احوالها وكتابة التقارير عن الاوضاع العامة فيها ومركز الوالي والتزامه بتنفيذ واجباته. على ان سلطات الوالي اخذت بالتقلص في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد حصرت وزارتا الداخلية والمالية بموجب اوامر اصدرتها في عام1885م الشؤون المالية كافة في الولاية بيد مدير مالية الولاية (الدفتر دار). كما قلصت سلطات الوالي على كثير من الدوائر التي كانت تدار من اسطنبول مباشرة، واقتصرت واجباته على التنسيق فقط . وكانت تلك الدوائر تضم: دائرة العدلية ودائرة تسجيل الاراضي ومصلحة الصحة ومصلحة التعليم ودائرة الدين العام ودائرة الجمارك ودائرة الاوقاف وادارة الاملاك السَنية. فكان رؤساء تلك الدوائر يرفعون تقاريرهم الى الحكومة المركزية مباشرة كما كانوا يتلقون اوامرهم منها.

ـ الكتخدا او الكهية:

وهو مساعد الوالي ومعاونه في الشؤون الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية المختلفة، او اي امر من الامور التي يكلفه بها. وله مقر خاص يعرف بدار الكتخدائية، ومصيره مرتبط بمصير الوالي. ويلاحظ انه كثيرا ما تختلط اختصاصات الكتخدا باختصاص رئيس ديوان الانشاء او بمهام المتسلم. حيث حل الاخير محله بشأن النيابة عن الوالي عند غيابه او وفاته، واخذ الاول مكانه في المجالين الاداري والعسكري، فكتب الرسائل وقاد الجيوش حتى غدا كلا المنصبين واحداً. وسلطات الكتخدا ترتبط بشخصية الوالي، فاذا كان قوياً تضمحل سلطته اما اذا كان الوالي ضعيفاً فان قوته تزداد. والمنصب بمثابة الدرجة

الاخيرة في السلم للوصول الى مرتبة الوالي، فصاحبه مؤهل بصورة عامة للتعيين بذلك المنصب. وتعرض هذا المنصب الى تغيرات مستمرة في القرن التاسع عشر ، حيث الغي عام 1872. واعيد عام 1880 والغي مرة اخرى بعد سنة واحدة، وظل ملغياً حتى عام 1907 ، حينما صدر مرسوم سلطاني بإعادته، وحددت واجبات معاون الوالي بالنظر في المراسلات التي ترد الى الوالي من دوائر الولاية وغيرها من المراسلات التي يخوله الوالي النظر فيها، وتقديم خلاصة بتلك المراسلات.

ـ المتسلم:

نائب الوالي واشبه ما يكون بوالي مؤقت، ويقوم (بتسلم) مهام ادارة الولاية عند غياب واليها لأي سبب، وتعيينه يأتي من الوالي نفسه دون الرجوع الى سلطة اعلى. وقد يعين لحكم منطقة او سنجق نائبا عن الوالي اي بمثابة قائم مقام مثل متسلم البصرة الذي كان يعينه والي بغداد حينما تحولت البصرة الى (متسلمية) تابعة لبغداد. والمتسلم شخص عادة يتولى مقاليد الامور بين عزل الوالي ووصول الوالي الجديد. وفي هذه الحالة اما ان يرسله الوالي الجديد او ان يقوم وجوه الولاية واعيانها باختيار متسلم حتى وصول وال جديد.

ـ رئيس الكتاب (ديوان افنديسي):

وهو بمثابة امين سر الوالي للشؤون الكتابية ويرأس ما يعرف بديوان الانشاء، وهو جهاز يتبع الوالي مباشرة ويضم مجموعة من الكتاب والمترجمين، ويختص بتحرير كتب الوالي ورسائله باللغات المتداولة وتسجيل الاوامر الحكومية الواردة للولاية وحفظها. واشتملت واجباته في القرن التاسع عشر على مراسلات الولاية، واعداد (السالنامات) وهي القرارات التي كانت تصدرها الحكومات المحلية في الولايات سنوياً. واصبح يطلق عليه اسم (مكتوبجي) او مدير مراسلات الولاية.

- الخزنة دار:

وهو الموكل بخزانة الوالي وضبط اداراتها ومصروفاتها، ويشرف على امور شتى منها تسجيل الفرمانات الواردة للولاية، وتسجيل مقدار الضرائب الواردة الى الولاية، وتسجيل مقدار الضرائب المفروضة على القرى وتثبيت مقدار ما استحصل منها.

- الدفتر دار:

وهو المسؤول عن ادارة المالية في الولاية وعصب النظام المالي القائم على الالتزام. ووظيفته منفصلة عن سلطة الوالي، ويعين مباشرة من الباب العالي بفرمان سلطاني شأنه شأن الوالي أو القاضي. وكان للدفتر دارية في الولايات العراقية دائرة خاصة تعرف بـ (الدفتر خانة) مستقلة عن سراي الوالي. ويوجد في ايالة بغداد ثلاثة انواع من الدفتر دارية هي دفتر دار خزينة، ودفتر دار تيمار، وكتخدا دفتر دار، علما انه لا توجد في الموصل هذه الانواع من الدفتر دارية، في حين كانت ولاية شهرزور فيها نوعين فقط من الدفتر دارية اذ لا يوجد فيها دفتر دار خزينة. ويعد الدفتر دار ممثلاً للسلطان في الشؤون المالية للولاية، واجبه ضبط حساباتها. ولهذا يحتفظ بالدفاتر والسجلات التي تبين الموارد المالية للولاية سواء كانت اموالاً سائلة او عينية، ومقدار الاموال الحصلة والمنتظر انفاقها والفائض والاحتياطي، وكيفية الحصول على موارد مالية اخرى في حالة حدوث عجز في ميزانية الولاية. ولكن الى جانب التخصص المالي نجد بعض الدفتر دارية يشاركون في العمليات العسكرية. وبما ان الدفتر دار مسؤولا عن احوال الولاية، لذا لم يكن يسمح للوالي المعزول أو أي موظف اخر ان يغادر الولاية الا بعد ان يثبت براءة ذمته. وان استقلال سلطة الدفتر دار عن الوالي لم تكن تراعي دوما، حيث تمكن بعض الولاة من السيطرة على الامور المالية في الولاية جميعاً، حتى لم يبق للدفتر دار دور مهم يقوم به مثلما حدث في ولاية الموصل خلال حكم اسرة آل الجليلي (1726-1834) الذين اخذوا على عاتقهم مسؤولية جمع الضرائب وارسال الاموال المطلوبة الى العاصمة سنوياً ويساعد الفتر دار موظف يسمى (روزنامجي) واجبه مسك السجل الخاص بالوارد والمصروف، انه

بمثابة كاتب حسابات الدفتر دار. وفي القرن التاسع عشر، اصبح مدير مالية الولاية (الفتر دار) مسؤولاً عن حسابات الولاية كافة، وكان من واجباته ان يبلغ الوالي عن اية مخالفة مالية يرتكبها موظفو الولاية وان يعرض في الامور التي تتعلق بتعيين او عزل المحاسبين ومدراء المالية. وغدا الدفتر دار هو المرجع الوحيد لكل مل يتعلق بالشؤون المالية في الولاية.

- مجالس الادارة:

من التطورات المهمة التي حدثت في الجانب الاداري في أواخر القرن التاسع عشر تشكيل مجالس ادارية في الولايات العراقية ووحداتها الادارية السنجق (اللواء) والقضاء. وتألف مجلس ادارة الولاية من اعضاء طبيعيين واعضاء منتخبين. والاعضاء الطبيعيين في مجلس ادارة الولاية هم: القاضي، مدير المالية، مدير مراسلات الولاية، المفتي، ونقيب الاشراف واحياناً معاون الوالي. اما الاعضاء المنتخبون فكان يتم انتخابهم من لجان خاصة تعرف بلجان التفريق، ومن بين الرجال الحائزين على ثقة المواطنين، على ان لا يكونوا من اقارب اعضاء مجالس الادارة الطبيعيين. وكان عدد هؤلاء يتراوح ما بين اربعة الى ستة اعضاء في المجلس. وتنعقد مجالس الادارة اربع مرات سنوياً برئاسة رئيس الوحدة الادارية . واشتملت اعمالها على اجراء المبايعات والمقاولات الحكومية، وتدقيق واردات الولاية ومصروفاتها، والنظر في امور الضرائب ومتابعة الخدمات العامة، والنظر في الشكاوى التي يقدمها المواطنون ضد تصرفات الموظفين. والى جانب تلك المجالس المحلية يقوم مجلس الولاية العمومي في مركز كل ولاية ويتألف من اربعة اعضاء منتخبين من كل سنجق (لواء) ويعقد دورة واحدة سنوياً تدوم اربعين يوماً برئاسة الوالي او من يخوله من كبار الموظفين في حالة غيابه. واهم واجباته النظر في وسائل تحسين الاوضاع الاقتصادية في الولاية ونشر الثقافة فيها والنظر في امور الضرائب وانشاء ابنية الخدمات العامة واصلاحها وصيانتها، وفتح الطرق وتشييد الجسور. مع ان وظيفة المجلس استشارية، الا ان الوالي المسؤول عن نقل توصياته الى الحكومة العثمانية لاستحصال الموافقة عليها.

ـ السلطة القضائية:

نظرت الدولة العثمانية الى مرفق القضاء نظرة موضوعية لغير المؤهلين علمياً بتقلد مناصبه ووضعت نظاما دقيقاً لتعيين القضاة وترقياتهم وتنقلاتهم ومتابعة اعمالهم. بل جرت محاولات لم يقدر لها الاستمرار من اجل اجراء امتحانات للقضاة عند كل تعيين جديد. ويمكن القول استنادا الى ذلك، ان القضاء كان اكثر نفاذاً وبقاء في الولايات العثمانية من النفوذ السياسي او العسكري للدولة في تلك الاقاليم. كانت المحاكم تنظر انواع القضايا المختلفة، سواء كانت مدنية او جنائية . وكان القضاة يفصلون في القضايا في ضوء ثلاثة مبادئ اساسية هي :

أ. الشريعة الاسلامية.

ب. القانون نامة (ملخصات الفرامين واوامر السلاطين التي تتعلق كل منها بحادثة او قضية معينة) وهي مجرد تذييل للشريعة وليست بديلاً عنها.

جـ. العرف

وكان القضاة يحصلون على دخلهم من مصدرين الاجور اليومية التي تمنحها الدولة للقضاة في اثناء خدمتهم الفعلية كل حسب درجته، والرسوم القضائية على مختلف القضايا التي تعرض عليهم وتعرف باسم اجرة صكوك، والغرامات التي يحكمون بها، وكلا المصدرين يدران ايرادا وفيراً. وكان منصب قاضي بغداد اعلى المناصب القضائية وارفعها في الولايات العراقية، وتصنف مرتبته ضمن المراتب القضائية العليا في الدولة المعروفة التي يطلق عليها (المولويات الصغار)الذين كان قضاتها من خريجي المدارس الدينية العليا الموجودة في اسطنبول، ولم يكن يمنح هذا المنصب الا لمن قضى مدة طويلة في الدراسة واثبت كفاية ونزاهة في اصدار الاحكام. وكانت صلاحية تعيين قضاة بغداد وعزلهم تعود الى قاضي عسكر الاناضول، ويقترن بصدور فرمان سلطاني يحدد فيه صلاحياتهم وواجباتهم كافة. وكانت خدمة القاضي دورية ومحددة بسنة واحدة قانونا،

حيث ينقل بعدها الى محل اخر بدرجته نفسها ، او يرقى الى مرتبة اعلى. الا ان هذه القاعدة لم تكن مطلقة كلياً حيث تولى بعض قضاة بغداد مناصبهم بضعة اشهر، في امضى قضاة اخرون في مناصبهم مدة تزيد على السنة. على انتهاء مدة خدمة القاضي في الولاية ، لا تعني عدم عودته الى الخدمة ثانية، حيث يمكن للقاضي ان يعين اكثر من مرة في المنصب ذاته. وكان قضاة الولايات العراقية الاخرى (الموصل والبصرة وشهرزور) من فئة القضاة العاديين الذين يشكلون الغالبية العظمى من عدد قضاة الهيئة التشريعية، وحددت مدة بقائهم بسنة واحدة ايضاً. اما في المدن الصغيرة فيشغل المنصب القضائي مسؤول يطلق عليه نائب القاضي، وينظر في القضايا باسم القاضي الذي انابه. علماً بانه كان هناك نواب قضاة الى جانب القاضي في مراكز الولايات يساعدونه وينوبون عنه ويصدرون احكامهم في قضايا شتى عند مرضه او تغيبه. والنائب لا يتقاضى مرتباً من الحكومة ولكنه يحصل على ايرادات كبيرة من حصيلة الغرامات المالية التي يحكم بها على المخالفين. والجدير بالذكر ان حصول النائب على منصبه يتم بواسطة نظام الالتزام ، كما ان على القاضي الحصول على مصادقة قاضي العسكر عند اختياره لنوابه. وطريقة الالتزام في تعيين نواب القاضي اثرت سلبياً في هيكل النظام القضائي، حيث اصبح النائب الذي حصل على منصبه بالالتزام لا يفكر الا بالحصول على اكبر قدر من المال، ويتم ذلك في كثير من الاحيان على حساب العدالة . وكانت سلطات القاضي واسعة جداً في منطقته القضائية، فهو المكلف بتطبيق الاحكام الشرعية بين الناس، بل وكان من المفترض فيه ان يراقب اعمال الوالي نفسه والنظر في مطابقتها للشريعة. وكان عليه النظر في الدعاوى والفصل فيها ومعالجة القضايا الشرعية الاخرى مثل تقسيم التركات وعقود الزواج وتنفيذ الوصايا، ويشرف على امور الضرائب ومدى مطابقتها لما هو مسجل في سجل المحكمة الشرعية. ولهذا نلاحظ ان معظم المراسيم التي تخص الشؤون المالية كانت توجه باسم الوالي والقاضي والدفتر دار. ومن واجباته المهمة تسعير السلع والمواد الغذائية في الاسواق ومراقبة التقيد بها. كما كان يمارس نوعا من الاشراف على الامور الادارية في الولاية او

السنجق، الذي يعمل فيه وكان عليه حال انتهاء خدمته في الولاية تقديم تقرير الى المسؤولين في اسطنبول يبين فيه اوضاع المنطقة التي انهى خدمته فيها.

ـ المفتي:

شكل المفتون قطاعاً مهماً في الهيئة التشريعية الاسلامية، ويقومون بمهام منصبهم بجانب القضاة ولكنهم ادنى منهم درجة. ويظل المفتي في منصبه مدى الحياة، ولا تحاط وظيفته باي نوع من انواع المظهرية التي كانت تحاط بها المناصب الاخرى في الولاية . ومهمة المفتي اصدار الرأي القانوني في المسائل التي يطلب منه بحثها. فيعكف على دراستها، ثم يسجل رأيه كتابة على ورقة معدة ومختومة من قبل. والرأي الذي ينتهي اليه يسمى(فتوى) ومع ان غالبية المفتين يعملون في المدن الرئيسة مع القضاة، نجد بعضاً منهم الى جانب رجال الحكم في الولايات مستشارين مدنيين.

ـ الصوباشي:

لقب حربي قديم، وقد شاع استعمال هذا اللقب في الاناضول منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وقد اصبح لقب صوباشي من اشهر الالقاب الحربية المستعملة في سلك الشرطة في الدولة العثمانية التي اقتبسته من السلاجقة الحاكمين في اسيا الصغرى. ثم اصبح للصوباشية اقطاعاتهم (تيمار)، وكان لهم ايضاً الاشراف على السباهية في الولايات، وقد اصبح الصوباشي في الولايات من كبار ضباط الشرطة الذي يعاون (الجاوش باشي) رئيس الشرطة، في اعماله اليومية، ثم اصبح لقب صوباشي يستعمل للدلالة على رتبة عسكرية خاصة في سلاح فرسان. وكان للصوباشي مهام اخرى منها التجوال في الاسواق والمحلات ومراقبة نظافتها، واخبار رئيس المعمارين بما هو متداع من الابنية وكذلك التجوال ليلاً والقبض على الذين يعكرون صفو الامن. فوظيفة الصوباشي في زمن السلم ضبط الامن في الولاية.

4. القوات العسكرية:

تكونت قوات الولايات العراقية من ثلاث اصناف:

القوات النظامية: وتعرف باسم قبو قولي وهي مرتبطة بالحكومة المركزية في الاستانة، حيث مقر قيادتها العليا، ولكنها تصبح بأمرة الوالي في حالات الحرب والحملات العسكرية. وهذه القوات تأتي للخدمة العسكرية في مركز الولايات دوريا، أي انها في الحالات الطبيعية تبقى ثلاث سنوات في مكان معين حتى تحل مكانها قوة اخرى. وتقسم القوات النظامية الى:

-**الانكشارية(المشاة):** وتشكل العنصر الرئيس من القوات النظامية في الولايات العراقية، وتمثل السلطة المركزية اذ انها ترتبط بشخص السلطان والقيادة العليا في العاصمة وليس للولاة. وتخدم هذه القوات دوريا مدة معينة وعند انتهائها تعود الى مقراتها في العاصمة لتحل محلها القوة البديلة. ويتحتم على القوات الانكشارية الموجودة في الولاية الا تترك مواقعها الى حين وصول القوات البديلة، وقد هيأت الدولة سجلات خاصة لتنظيم الخدمة الدورية عرفت باسم قيشلاق دفتري. وقسمت هذه القوات الى مجموعات تعرف كل واحدة باسم اورطة على رأس كل واحدة منها ضابط برتبة جورباجي، يساعده ستة من الضباط اقل مرتبة هم: الاورطة باشي أي رئيسة الثكنة، ووكيل خرج، وهو المشرف على الانفاق والمؤونة، والبيرقدار أي حامل العلم، والباش اسكي وهو رئيس الحرس وهو اكبر افراد الاورطة سنا واقدمهم خدمة، وهناك الاشجي باشي أي رئيس الطهاة، والسقا باشي رئيس السقائين، يضاف اليهم كاتب يحفظ سجلات الثكنة. ولم يكن هناك عدد ثابت لجنود الاورطة الواحدة، اذ يختلف العدد حسب المكان والزمان والحالة السياسية، لكنه يتراوح بشكل عام ما بين 50-500، فعلى سبيل المثال بلغ عدد الانكشارية في بغداد عام 1605 من مجموع كل القوات المخصصة لحماية المدينة البالغ عددها اربعة عشر الف حوالي1500 انكشاري، وفي عام 1678في بغداد 3800 موزعين على 19 اورطة، أي بمعدل 200 رجل لكل واحدة، بينما بلغ عدد انكشارية البصرة في العام نفسه 1200 رجل. اما في كركوك مركز

ولاية شهرزور فتوجد اورطة واحدة تتألف من حوالي 150 رجلا. وكان القائد الاعلى لقوات الانكشارية في كل من الولايات العراقية عرف بلقب اغا الانكشارية يساعده الكتخدا. والاغا يرتبط بالسلطة المركزية في العاصمة، ولا يتسلم الاوامر من الوالي الا حين تشترك قواته في الحملات العسكرية المهمة التي يقودها الوالي. وتشمل سلطة اغا الانكشارية كافة القوات النظامية الاخرى. وقد اختلف عدد افراد الانكشارية من ولاية الى اخرى حسب وضعها الخاص ووضع الدولة عامة. ولكن بغداد تضم عددا اكبر من اية ولاية عراقية اخرى، وقد تراوح عددهم ما بين 7000-10000، بعد نجاح السلطان مراد الرابع(1623-1640) من استعادة بغداد من ايدي الصفويين عام 1639. ولكن العدد انخفض الى 5000 عام 1648، وزاد على 5500 عام 1670، لينخفض الى ادنى حد عام 1685 وهو 2202، بسبب الكارثة التي حلت بالجيش العثماني امام اسوار فينا عام 1683. وعند منتصف القرن الثامن عشر ارتفع العدد مرة اخرى فوصل الى 4914 انكشاريا، بسبب التهديدات الايرانية للعراق في عهد نادر شاه. اما ولاية الموصل فيتوزع الانكشارية فيها على ثلاث اورطات، عدد افرادها حوال 800 رجل، ثم ارتفع العدد في النصف الاول من القرن الثامن عشر الى خمس اورطات. وفي البصرة اعلى رقم وصلته اعداد الانكشارية في النصف الثاني من القرن السابع عشر هو 1800 انكشاري. تتوزع القوات الانكشارية في مراكز الولايات، وعلى مختلف سناجق الولاية وقلاعها المهمة. وكان واجبها الدفاع عن الولاية والحفاظ على الامن والنظام فيها وحراسة اسوار وابواب المدن. وفي حالة الحرب تتحشد اورطات الانكشارية تحت قيادة اغا الانكشارية الذي يتبع الوالي في اثناء الحملات العسكرية. ويحصل الجندي الانكشاري على راتب من الدولة يحسب بالأجر اليومي، ويوزع على اربعة اقساط سنويا. والى جانب الراتب يحصل الانكشاري على مخصصات خدمة اضافية بدل وجوده خارج العاصمة. اما اسلحة الانكشارية فكانت البنادق والسيوف والرماح والاقواس والسهام، ومن الجدير بالملاحظة ان الانكشاري يسمح له باختيار السلاح الذي يروق له.

-**الجبه جيه(صناع ومصلحو الاسلحة)**: يطلق على الصنف الثاني من المشاة النظامية المرتبطة بالعاصمة ويخدم افراده على نحو دوري في الولايات، ومهمتهم صناعة وصيانة اسلحة الانكشارية ونقلها الى ميدان الحرب وتوزيعها عليهم قبل المعركة. وبعد انتهاء الحملة العسكرية يتسلم الجبه جيه الاسلحة مجددا، ويتم ايداعها في الجبه خانه أي المستودع، لحفظها واصلاحها. ومن مهمات هذه الفرقة ايضا الاهتمام بالحيوانات الخاصة بالنقل والعربات المخصصة لنقل السلاح. ونظرا لأهمية هذه المهمة، ووجود الاسلحة والذخيرة بحوزتهم، فقد جرت العادة على وجودهم مع الاسلحة في مؤخرة الجيش، عندما يعسكر في موقع معين. ويجدر التنويه هنا ان افراد هذا الصنف دربوا كجنود مشاة يستخدمون الاسلحة النارية اليدوية. وتوزع هذه الفرقة على اورطات غير ثابتة العدد، وهي تحت امرة قائد يعرف باسم جبه جي باشي يساعده جبه جيلر كاتبي. اما القيادة العليا فبيد اغا الانكشارية. ويصنف الجنود حسب اختصاصهم فمنهم من تخصص في صناعة وصيانة الدروع، والاسلحة النارية، أو الرماح، والملابس، وهناك مختصون بالحبال والفتائل والبارود. ويلاحظ ان عددهم كان قليلا نسبيا، نظرا للكفاءة الفنية التي يجب ان يتصف بها المنتسب الى هذا الصنف، فقد كان مجموعهم لغاية عام 1574 بحدود 625 رجلا، لكن العدد اخذ بالارتفاع بشكل سريع بعد ذلك التاريخ، كجزء من ظاهرة تزايد اعداد الفرق العسكرية، وتدهور المستوى النوعي والانضباط الذي ميز الجيش العثماني في عصر التدهور. وكانت اعداد الجبه جيه تتبع اعداد الانكشارية، فتزيد وتنقص تبعا لها. وكانت (جبه خانه) انكشارية بغداد في (ايج قلعة) حيث يخزن البارود. وليست هناك معلومات دقيقة عن اعداد الجبه جيه في الولايات العراقية، ولو ان احدى الوثائق الرسمية العثمانية ذكرت ان عددهم في بغداد عامي 1647-1648 كان 160 رجلا.

-**الطوبجية(صنف المدفعية)**: على غرار الانكشارية كانت هذه الفرقة مرتبطة بالعاصمة، وكان رجال المدفعية يخدمون دوريا في ولايات الدولة وقلاعها مدة ثلاث

سنوات، ويراس الصنف ضابط يسمى طوبجي اغاسي أو سر طوبجي أي رئيس المدفعية، وهو يتبع اغا الانكشارية. وكان عدد المدفعيين يختلف من ولاية الى اخرى حسب موقعها ومتاخمتها لأراضي العدو، وعدد قلاعها الحدودية التي تتطلب وضع المدافع لتحصينها. وقد بلغ عدد الطوبجية في بغداد عام 1647-1648، سبعة وستين رجلا. وارتفع العدد الى 219 عام 1685، وفي العام نفسه كان عددهم في البصرة 182، وفي كركوك كان 50. وليس لدينا رقم دقيق لعدد المدافع، ولو ان بعض التقديرات قدرت العدد في بغداد في منتصف القرن السابع عشر بحوالي 60 مدفعا كبيرا، و150 مدفعا صغيرا على اسوار بغداد. وقدر العدد في النصف الاول من القرن الثامن عشر بـ 70 مدفعا. وقد اهتمت الدولة ببناء دور لصب المدافع وصيانتها(طوب خانه) في معظم الولايات المهمة، فكانت هناك طوب خانه في قلعة كلعنبر بالقرب من حلبجة في ولاية شهرزور في القرن السادس عشر، واخرى في بغداد الى جانب البارود فيها(البارود خانه). ولما كان نقل المدافع والقذائف يؤخر من سرعة وحركة الجيش فقد تم تشكيل تنظيم عسكري اضافي، وهو كتائب عربات المدافع(طوب عربجية) مهمة رجاله نقل المدافع والقذائف والبارود خلال الحملات العسكرية، وصناعة وصيانة عربات النقل وتم توزيع رجال هذا الصنف في ولايات الامبراطورية الى جانب رجال المدفعية.

قوات الوالي: ترتبط بالولاة مباشرة وهم يولونها اهتماما شخصيا لتعزيز مراكزهم في ولاياتهم ومساعدتهم على الوقوف بوجه القوات الاخرى في حالات العصيان والتمرد، أو الاستعانة بهم في ضرب الحركات القبيلة. وابرز الفرق التابعة لقوات الوالي هي: الجند الخيالة (اللاوند) -الفرسان الفدائيون (الدالاتية) -المتطوعون المشاة (السكبان) -حملة البنادق(التفنكجية).

القوات المحلية(برلي قولي): وتتكون من قوات حرس الحدود والقلاع من المتطوعين والفرسان الاقطاعيين(السباهية).

5.القوات البحرية:

بدأ اهتمام العثمانيين بالقوة البحرية في البصرة منذ منتصف القرن السادس عشر، حيث شهد هذا الوقت ذروة الصراع العثماني-البرتغالي في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي، وذلك من خلال الحملات البحرية العديدة التي وجهها العثمانيون الى تلك المناطق بقيادة كل من بيري ريس ومراد ريس وسيدي علي ريس. لكن العثمانيين لم يكتب لهم النجاح في تلك الحملات بسبب تفوق القوة البحرية البرتغالية. وفي غضون ذلك حاول العثمانيون جعل البصرة قاعدة لعملياتهم العسكرية في الساحل الشمالي للخليج العربي، ووضعوا مسؤوليات كبيرة على عاتق حكام البصرة، الذين كان عليهم آنذاك ان يقوموا بتزويد الاحساء والبحرين بالمؤن والمعدات وحماية حركة الملاحة في الخليج. ولكن خلال القرن السابع عشر لم تعد القوة البحرية العثمانية في البصرة تحرز تقدما مساويا مع ما احرزته الاصناف العسكرية الاخرى. وينقل لنا الرحالة البرتغالي تخيرا صورة عن السفن في اوائل هذا القرن، ففي البصرة هناك دار لصناعة السفن، وعدد كبير من المدفعية جيدة الصنع، وبعض القوادس القليلة المصنوعة من قطع الخشب الصغيرة، وهي رديئة الصنع. وهذه القوادس لم تكن معدة ضد البرتغاليين بل ضد العرب. ويمكن ان يعزى سبب تدهور البحرية العثمانية الى:

1. ان الوجود العثماني في البصرة قد انتهى في اواخر القرن السادس عشر، وذلك على اثر قيام حكومة ال افراسياب في هذه المدينة، وممارستها سياسة عربية مستقلة بعيدا عن أي شكل من اشكال التبعية المباشر للسلطة العثمانية ما بين 1596-1668، ولهذا لم يعد للعثمانيين أي اتصال بالخليج العربي.
2. نظرا لابتعاد العثمانيين عن الخليج العربي انصب اهتمام العثمانيين على بناء السفن الحربية الصغيرة واستخدامها في انهار العراق، ومن ناحية اخرى يبدو ان ال افراسياب في البصرة قد نهجوا الاسلوب نفسه فاكثروا من استعمال السفن النهرية الصغيرة لا البحرية، ذلك لانهم احتاجوا للأنواع الاولى لصد

الهجمات الفارسية المتكررة على مدينتهم، أو استخدامها للسيطرة على القبائل العربية في منطقة الجزائر.

3. لم يعد هناك حاجة الى السفن البحرية بعد انتهاء المواجهة مع البرتغاليين في منتصف القرن السادس عشر، وعدم الاصطدام بقوة بحرية اخرى خلال القرن السابع عشر.
4. استمر تركيز العثمانيين على بناء السفن الحربية الصغيرة واستخدامها في البصرة حتى بعد عودة نفوذهم اليها في نهاية القرن السابع عشر.

في القرن الثامن عشر استمر انخفاض عدد السفن البحرية الكبيرة بشكل واضح، اما السفن الصغيرة فهناك تأكيدات كثيرة على تزايدها طوال القرن الثامن عشر، وقد استمر الضعف ملازما للقوة البحرية الموجودة في البصرة حتى نهاية حكم المماليك في العراق، ولم نعد نسمع بوجود أي دور لهذه القوة في منطقة الخليج العربي.

كان القبودان باشا على رأس العاملين في القوة البحرية في البصرة، والذي تسميه المصادر المحلية باسم رئيس المراكب البحرية، أو ناظر البحرية. وكان القبودان باشا من الشخصيات المهمة ذات النفوذ الكبير في البصرة، وذلك لأنه كان يعين مباشرة من السلطان العثماني في اسطنبول، ولم يكن خاضعا للوالي أو المتسلم. ولكن منذ ان اصبح العراق تحت حكم المماليك وعقب اندماج البصرة ببغداد في مطلع القرن الثامن عشر، اصبح القبودان باشا يعين من قبل والي بغداد وتناقصت سلطاته الى حد كبير. وكان مقر القبودان باشا في البصرة في قرية المناوي الواقعة على شط العرب، ما بين نهري العشار والخورة، حيث تصطف قطعات الاسطول عادة هناك. والى جانب القبودان باشا فقد كان هناك البحارة الذين كان اغلبهم من اليونانيين والايطاليين العاملين في خدمة الاسطول العثماني، اما المقاتلين الموجودين على ظهر السفن في البصرة فقد كان اكثرهم من الاتراك، ويبدو ان هناك بعض المتطوعين من السكان المحليين. وعلى الرغم من ان رواتب العاملين في الاسطول كانت تدفع من قبل الخزينة المركزية لتبعيتهم المباشرة للسلطان، الا ان الامر قد تغير عندما اصبح

يخصص للقبودان والعاملين معه واردات بعض المقاطعات الكبيرة في كل من بغداد والبصرة، وذلك لتأمين نفقات الاسطول كاملة. كانت مهمة السفن العسكرية العثمانية في البصرة بشقيها البحرية والنهرية هي حماية سواحل العراق وانهاره الرئيسة. ويبدو ان القوة العسكرية النهرية كانت ذات دور فعال اكثر من القوة البحرية. وتاريخ العراق مليء بالحملات العثمانية النهرية التي استخدمت فيها سفن عسكرية صغيرة للقضاء على انتفاضات العشائر العربية، او لحماية الحركة التجارية في انهار العراق. اما ابرز انواع السفن في العهد العثماني في العراق فهي:

1. **الغراب**: وهي من السفن الحربية التي كانت معروفة في البحر الاحمر والخليج العربي، وعرفت في العراق خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، واستعملت هناك باعتبارها احدى السفن الحربية الصغيرة.
2. **فرقاطة**: تحتوي هذه على عدد من المقاعد يتراوح بين 10-17 مقعد ويبدو بان هناك نوعين من هذه السفن منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير.
3. **القاليتة**: وهي سفن حربية، تحتوي على 20-24 مقعدا، وهي تحمل حوالي 220 مقاتل في الحرب، وتسير بالمجاذيف والاشرعة. وهناك نوع اخر من هذه القاليتة من النوع الكبير تسمى باشتردة تحتوي على 26-36 مقعدا.

ـ الصراع الصفوي ـ العثماني على العراق:

ان الحالة السياسية في العراق اثناء الاحتلال العثماني الاول 1534م كانت غير مستقرة، اذ تميزت بكثرة الثورات والتمردات التي كان بعضها تُغذى من لدن الدولة الصفوية، وقد تعاقب على حكم بغداد ولاة كان لا يهمهم الاصلاح سوى اشباع رغباتهم المادية عن طريق فرض ضرائب جائرة واستعمال القسوة في جبايتها. وكان البعض منهم لا يقف عند حد اشباع رغبته المادية بل يعمد الى الانفراد بحكم الولاية في اطار التبعية الاسمية للسلطان العثماني.

ان الاحتلال العثماني للعراق لم يقض نهائيا على الصراع الصفوي-العثماني، وظل الجانبان يتنافسان من اجل السيطرة النهائية على هذا البلد، واضحى الصراع بينهما ظاهرة سائدة في القرن السادس عشر. اذ سرعان ما اندلعت الحرب مجددا بين الدولتين عام 1548-1549، ثم استؤنفت عام 1553-1555، والتي انتهت بعقد معاهدة اماسيا في 29 ايار 1555 التي انهت الحرب بين الدولتين، وفيما يخص العراق منها انها اكدت تبعية العراق للدولة العثمانية، كما تم الاتفاق على تخطيط حدود ولاية شهرزو، منعا لوقوع حوادث معكرة لصفو السلام بين الطرفين، كما تعهد العثمانيون بتحقيق امن وسلامة الحجاج الايرانيين. ولكن في الواقع كانت معاهدة اماسيا تمثل سلاما هشا بين الدولتين نظرا لكثرة المسائل التي يمكن التنازع عليها والتي يمكن لأي من الطرفين ان يتذرع بها واهمها:

1. النزاع بين عشائر الحدود وامرائها ولاسيما في منطقة كردستان التي كانت تحكمها العشائر المحلية والتي تتمتع بشبه استقلال عن الدولة، وكثيرا ما تنازع امراء العشائر ولجأوا الى الجانب الايراني أو بالعكس.
2. هجوم عشائر البدو على القوافل سواء التجارية منها أو قوافل الحج.

والحقيقة ان صلح اماسيا تعرض لأول اختبار حقيقي، عندما اندلع نزاع اسري بين ولدي السلطان سليمان القانوني بايزيد وسليم عام 1560 وقد ساند السلطان سليم، مما دفع بايزيد الى الالتجاء للبلاط الصفوي مع جنده البالغ عددهم عشرة الاف واربعة من ابنائه. وقد استغل الشاه طهماسب الاول الصراع بين الاخوة من اجل الضغط على الدولة العثمانية لتعديل بنود معاهدة اماسيا. وقد دخل العثمانيون في مفاوضات مع الشاه لتسوية الامر استغرقت عامين، وارسل خلالها السلطان مبعوثيه علي باشا حاكم مرعش وحسن اغا جاشني كرباجي مه هدية الى قزوين تحت عنوان المحافظة على معاهدة اماسيا وتجنب وقوع حرب بين الجانبين. فرد الشاه بسفارة تحمل كتابا يتضمن طلبا بحكومة بغداد مقابل ذلك، لكن السلطان رفض طلبه. فارسل سفارة ثانية حملها رسالة طلب فيها ان توضع النجف وكربلاء تحت ادارة اولاده، فرفض السلطان ايضا طلبه هذا. وفي عام 1562 انتهت

الازمة بين الدولتين عن طريق اجراء تعديلات طفيفة على معاهدة اماسيا. استمرت حالة الصراع الصفوي-العثماني قائمة بعد وفاة كل من السلطان سليمان القانوني والشاه طهماسب الاول وقد استغل كلا من الطرفين المشاكل الداخلية التي تنتاب الدولة الاخرى للتدخل في شؤونها أو التوسع على حسابها. وفي عام 1580 تمكن الصفويون من تحقيق نصر اخر على العثمانيين بالقرب من بغداد. ثم عقدت معاهدة اسطنبول الاولى أو معاهدة فرهاد باشا بين الدولتين في 21 اذار 1590 لتسوية المشاكل الحدودية بينهما. ولكن الدولة العثمانية في مطلع القرن السابع عشر اصابها الضعف، فقد اصيب البلاط العثماني والدوائر الحاكمة في الدولة بفساد شديد، وقد حكم الدولة العثمانية عدد من السلاطين لم يكن احدهم على مستوى يؤهله لان يمارس الحكم الا بوساطة وزراء كانوا احيانا مثالا للفساد. وبالمقارنة مع مرحلة القرن السادس عشر المجيدة فان الفترة الممتدة على مدار القرن السابع عشر اتخذ مظهرا اقل روعة، على الرغم من ظهور عدد من الشخصيات القيادية عملت على صون هيبة الدولة. وكانت الانتكاسات التي لحقت بالعثمانيين، في اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر، في المجر والبلقان والكرج واذربيجان، وحركات التمرد التي نشبت في الاناضول، ولاسيما الثورة التي قام بها اصحاب الطريقة الجلالية الذين سيطروا على بعض الاقاليم الشرقية في اذربيجان، وتلقوا مساعدة من الشاه عباس الكبير(1588-1629)؛ كل ذلك كان بمثابة شواهد واضحة على ما اصاب الدولة العثمانية من ضعف، فضلا عن ذلك الانتصار الكبير للبحرية الاوروبية على البحرية العثمانية في معركة ليبانت عام 1571. ولم تكن اوضاع العراق الداخلية بأفضل حالا من السلطنة نفسها، فضعف الادارة والفساد كانا مسيطران عليه، فضلا عن التهديدات الايرانية والتمردات العسكرية، ففي عام 1604 هاجمت قوة صفوية العراق بقيادة علاء وردي خان وزير الشاه عباس الكبير، وقد اسر 300 جندي في احدى المعارك الصغيرة بالقرب من اسوار بغداد مما ادى الى نشر الذعر في داخلها، ولكن القوة الصفوية انسحبت بسرعة خاطفة، بعد ان ترك علاء وردي خان امتعته وراءه، من غير معرفة سبب هذا الانسحاب. ثم حوصرت المدينة حصارا جزئيا في العام التالي. وفي عام 1605 اندلعت حركة تمرد قادها القائد الانكشاري محمد بلوك باش بن

احمد الطويل، الذي نجح في السيطرة على بغداد، وعبثا حاولت القوات العثمانية التي ارسلها السلطان احمد الاول(1603-1617)، بقيادة نصوح باشا والي ديار بكر ان تفعل شيئا اذ هزم بسبب خيانة الجند المرتزقة. وقد استتب الامر لمحمد بلوك، لكنه اغتيل فجأة عام 1607 من قبل كاتب ديوانه، ونصب اخاه مصطفى بيك مكانه. لذا عملت الحكومة العثمانية على القضاء على الانقلابيين، اذ ارسل محمود باشا بغية اقصاء مصطفى بيك، ومن ثم يتولى باشوية بغداد، وبلغ الموصل، ودخل في مفاوضات سرية انتهت بتوليه باشوية بغداد في حين نصب ابن الطويل واليا على الحلة عام 1608.

ويبدو ان الصفويين لم يكونوا غافلين عن تلك الاوضاع السيئة التي تمر بها الدولة العثمانية لذا وسرعان ما اندلعت الحرب مجددا بين الدولتين، انتهت بعقد معاهدة اسطنبول الثانية في 20 تشرين الثاني 1612 نصت على اعتماد الحدود التي كانت تفصل بين الدولتين في عهد السلطان سليمان القانوني وفيما يخص العراق منها هو:

1. تتعهد الدولة العثمانية بعدم منع المسافرين الايرانيين من المرور بأراضيها، وتسمح لهم بسلوك طريق بغداد-البصرة.
2. لقد اكدت المعاهدة تبعية منطقة شهرزور الواقعة بين اربيل وهمدان للدولة العثمانية، في حين تعهد الشاه بعدم حماية حاكمها هلو خان، وهذا يعني ان الدولة العثمانية ارادت ان ترفع يد الصفويين عن هذه الولاية نظرا لأهميتها السياسية والاقتصادية.

ورغم المعاهدة المعقودة بين الطرفين الا ان ذلك لم يمنع الطرفين من استئناف الحرب، اذ هاجمت القوات العثمانية الاراضي الايرانية عام 1615، اما الصفويين فقد هاجموا العراق عام 1616 ونهبت قوات صفوية مدينة مندلي، غير ان باشا بغداد استعادها بشدة وسرعة. وسرعان ما تم توقيع معاهدة جديدة بين الدولتين عرفت بمعاهدة سراب في 29 ايلول 1618 التي اكدت بنود معاهدتي اماسيا واسطنبول الثانية.

بدت العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية اثر اتفاقية سراب وكأنها تسير نحو الاحسن، لكن الشاه الذي يبدو انه لم يكن راضيا تماما على هذه المعاهدة، ظل يتحين الفرص للانقضاض على الدولة العثمانية، وسرعان ما سنحت له الفرصة لتنفيذ سياسته. فقد سعى الشاه الى اضعاف الدولة العثمانية من خلال فرض حصار اقتصادي عليها ضمن مشروع اتفق على تنفيذه مع انكلترا، ويقضي بضرب البرتغاليين في هرمز وطردهم من الخليج العربي، وقد تم ذلك عام 1623، فسيطر الشاه على هرمز واخذ يصدر الحرير منه الى اوروبا، على سفن تابعة لشركة الهند الشرقية الانكليزية، مما حرم الدولة العثمانية من الاستفادة من ضريبة المرور(الترانزيت). وصادف ذلك اضطراب الاوضاع داخل الدولة العثمانية، فقد حدثت اضطرابات داخلية انتهت باغتيال السلطان عثمان الثاني، واعادة تنصيب السلطان مصطفى الاول مرة اخرى عام 1623. ولكن كانت الفرصة السانحة للشاه عباس الكبير لاستعادة العراق عندما حدث تمرد بكر صوباشي.

لقد كان بكر صوباشي احد قواد الانكشارية في بغداد والذي كان تحت امرته عدد كبير من السكبانية وهم من فرق المشاة المحلية من رماة البنادق، فضلا عن 1000 من العزب، وهم من فرق المشاة غير النظامية التي تتقدم الجيش العثماني اثناء الهجوم، كما كان تحت امرته 4000 من الانكشارية، وقيل ان عدد القوات التي كانت تأتمر بأمره بلغت 12000 رجل. وقد كان الصوباشي هو الحاكم الحقيقي بينما لم يكن ليوسف باشا والي بغداد من السلطة الا الاسم وقد بدأ نفوذ كر صوباشي بالتزايد منذ 1619. وقد ادى طغيان نفوذ بكر الصوباشي الى نقمة كبار الانكشارية عليه، والذين كانوا ينتظرون الفرصة السانحة للتخلص منه، ووجدوا تلك الفرصة عام 1621 عندما خرج بكر الصوباشي على رأس ثلة من اتباعه الى منطقة الفرات الاوسط، بعد ان اناب ابنه محمد اغا بلوك بدلاً عنه في بغداد. لقد تضاربت اراء المؤرخين حول سبب توجه بكر الصوباشي الى منطقة الفرات الاوسط فالبعض يعتقد انه توجه الى الحلة لجباية الضرائب من الفلاحين الذين امتنعوا عن دفعها الى السباهية. في حين يرى فريق اخر من المؤرخين انه خاض صراعاً عنيفاً مع بعض كبار

الانكشارية الذين لجأوا الى السماوة فأخذوا يحرضون الفلاحين في التمرد على السباهية. واي كان السبب فقد ادى ببكر صوباشي الى ان يخرج بجيش قوامه خمسة الاف من الانكشارية. فوجد المعارضون لبكر صوباشي ان غياب خصمهم خير فرصة لهم للإطاحة به او ابعاده عن بغداد، وكان على رأس هؤلاء محمد اغا قنبر الذي اجتمع مع كبار الانكشارية واشراف المدينة ووضح لهم نوايا الصوباشي وانفراده بالسلطة ثم اعلن عن عزمه على التخلص منه ولكن انباء المؤامرة وصلت الى مسامع بكر صوباشي فاسرع في العودة الى بغداد واول عمل قام به ان فرض حصاراً شديداً على القلعة، وامر بقصفها من جميع الجوانب ، وقتل اثناء الحصار والي بغداد يوسف باشا، اذ اصابه برصاص عندما كان يصدر اوامره العسكرية الى المدافعين عن القلعة التي اخذت تعاني نقصاً في الذخيرة والعتاد. ولم يبق امام محمد اغا قنبر ازاء هذه الحالة الا طلب الامان والاستسلام لبكر صوباشي. فسلم نفسه لخصمه الذي عامله بمنتهى القسوة والكراهية اذ وضعه واتباعه في قارب وامر بصب الكبريت والقار عليهم فاحرقوا جميعاً. لقد اصبح بكر صوباشي بعد القضاء على التمرد الاخير سيد بغداد بلا منازع، فكتب الى الباب العالي ان ينعم عليه بباشوية بغداد لقضائه على التمرد الاخير وقبل ان يتلقى جواباً، وزع منشوراً مزوراً اعلن فيه انه اصبح والياً على بغداد. لكن الصدر الاعظم قره حسين باشا رفض طلب صوباشي ومنح حكم بغداد الى سليمان باشا والي ديار بكر فارسل هذا الى متسلمه علي اغا لاستلام الولاية. الا ان بكر صوباشي رفض مقابلة المتسلم، ولم يتورع بالرد عليه بقسوة ثم اخبره بان اهل بغداد ليسوا بحاجة الى وال جديد. فرجع علي اغا الى الباب العالي واخبر الصدر الاعظم بأمر صوباشي، فاصدر هذا امراً الى حافظ احمد باشا والي ديار بكر قيادة حملة عسكرية الى بغداد لتأديب الثائر صوباشي. فتوجهت الحملة التي ضمت قوات من مرعش وسيواس والموصل وكركوك نحو بغداد ووقف الصدر الاعظم في الموصل قليلاً منتظراً وصول قطعات عسكرية جديدة من اورفة وبيكات الاكراد في العمادية وامراء سوران ثم توجه الى كركوك، ومن هناك بعث بقوة استطلاعية مع سليمان باشا وبستان باشا ومعهما بعض البيكات من الاكراد ثم تقدم

احمد حافظ متوجها نحو بغداد فخيم في شمال المدينة قرب الاعظمية. وقد حاول حافظ احمد باشا ان يستدرج بكر صوباشي الى الاجتماع معه غير انه رفض ذلك وبشدة واسمع الصدر الاعظم كلمات مهينة مؤكداً له انه سيبذل كل ما في وسعه للحفاظ بولايته. اخذ صوباشي منذ اليوم الاول للحصار يباغت الجيش العثماني ليلاً ويلحق به خسائر فادحة حتى استطاع ذات مرة ان يفرق شمل الجيش العثماني الذي تراجعت بعض قطعاته الى ديالى. فجمع حافظ باشا جيشه المشتت وقرر القيام بهجوم عام على المدينة بعد ان قطع جميع الطرق الموصلة اليها بهدف فرض حصار اقتصادي شديد على المدينة، واذا كان الهجوم لم يتم فأن اثار الحصار بدت واضحة في المدينة التي بدت تعاني المجاعة القاتلة. واصبح هلاك المحاصرين في بغداد قاب قوسين او ادنى، مما حدا بالتمرد صوباشي ان يبعث الى شاه ايران عباس الكبير بواسطة حاكم لورستان حسين خان مفاتيح بغداد. وفي الواقع ان الشاه كان يراقب التطورات العسكرية في بغداد عن كثب قبل اتصال بكر صوباشي. اذا كانت الاستعدادات قد اتخذت قبل فترة، فالحدود الشرقية كانت تشهد كل يوم اصطفاف مزيد من القوات الفارسية فجاء طلب صوباشي بمثابة فرصة ذهبية لعباس الكبير الذي ارسل جيشا من 30000 رجل بقيادة صفي قلي خان حاكم همدان. عقد حافظ باشا اجتماعاً حربياً بعد ان تأكد له اتصال صوباشي مع الشاه واحتمال قيام بكر بسك النقود باسم الشاه، وعندما كانت المناقشات مستمرة حول كيفية حل هذه المشكلة. جاء رسول من القائد الصفوي قرجغاي خان الى حافظ باشا زاعماً ان بغداد اصبحت فارسية فرد حافظ باشا على الرسول بان هذه الارض ليست بفارسية ، وان العثمانيين يقومون بتأديب ثائر من الثوار. فعاد الرسول مردداً كلمات التهديد بينما اصبح الهم الاول لحافظ احمد باشا بعد رجوع الرسول الفارسي، هو اقناع بكر صوباشي للعدول عن رأيه قبل فوات الاوان، فعرض عليه باشوية الرقة وعلى ابنه حكم سنجق الحلة، الا ان هذا العرض رفض بشدة من قبل بكر صوباشي. فاستمر الحصار على بغداد. غير ان حافظ باشا قرر في الاخير الخضوع للأمر الواقع وذلك بمنح حكم ولاية بغداد الى بكر صوباشي. لقد كان قرار حافظ باشا بتوجيه الايالة الى بكر صوباشي

قراراً صائباً كما كانت محاولة اخيرة لعدم التفريط بالمدينة اذ ليس بإمكانه الاستمرار في الحصار خاصة وان القوات الفارسية بدأت تقترب رويداً رويداً من بغداد، كما ان طلباته العسكرية لم تنل اهتمام المسؤولين في الباب العالي بسبب وصول علي كمانكش الى الصدارة العظمى والذي كان من اشد اعداء حافظ باشا. فبقاء بغداد بيد ثائر على السلطان افضل بكثير من ان تكون ولاية فارسية . انسحب حافظ احمد باشا الى الموصل ومنها الى ديار بكر اما بكر صوباشي الذي ظن ان كل شيء اصبح على ما يرام بعد منحه الولاية، فقد استقبل وفداً من الشاه يطلب تسليم المدينة للشاه غير ان صوباشي رد بكل رقة على الرسول واعلن انه مستعد لتحمل نفقات الحملة الايرانية ولكن ليس من الممكن تسليم بغداد. لذا فقد دهش الرسول من كلام صوباشي وهذا التحول العجيب في موقفه فعاد الى الشاه مردداً كلمات التهديد والوعيد. واخبر الشاه الذي كان قد وصل لتوه الى اطراف بغداد في صيف 1623.

فرض الجيش الصفوي حصاراً قاسياً على بغداد، وقيل ان الشاه عباس عرض على صوباشي باشوية بغداد مقابل اعلان تبعيته الاسمية للدولة الصفوية غير ان صوباشي قد رفض ذلك بشدة واعلن عن عزمه الدفاع عن بغداد حتى الرمق الاخير كما ارسل رسائل الى الباب العالي والى حافظ باشا طالب فيها امداده بمعونات عسكرية للوقوف بوجه الهجوم الصفوي، غير ان هذه الرسائل لم تلق اذناً صاغية من لدن المسؤولين في الباب العالي. استمر الحصار الصفوي نحو ثلاثة اشهر، عانى اهل بغداد خلاله الامرين من جراء القحط الشديد والغلاء الفاحش حتى اكلوا الميتة ولحوم الدواب والكلاب، ولم يكن من المستغرب من هذا الوضع المزري ان يتسلل الى معسكر الشاه كل ليلة اتباع الصوباشي لينجو بأنفسهم من مخالب الموت المحتم. وقد تضاربت اراء المؤرخين حول دخول القوات الصفوية الى داخل بغداد، فالبعض يرى ان بكر صوباشي عجز عن مقاومة قوات الشاه فأرسل احد اتباعه يرجوه ايقاف القتال ويعرض عليه التسليم، في حين يرى مؤرخون اخرون ان محمد بن بكر صوباشي لما رأى اشتداد المجاعة اتصل بالشاه عباس وطلب منه الامان لقاء تسلم القلعة له

فرضي الشاه بذلك وامنه على نفسه واتباعه ووعده بأن يجعله من خواص خدمه كما ووعده بولاية بغداد في حالة فتحه ابواب المدينة في حين في حين يرى فريق ثالث من المؤرخين ان الصفويين اخذوا في الليل ينفذون الى القلعة اثنين اثنين فما اصبح الصباح حتى ملئت القلعة بالألاف من الجنود بينما تشير رواية اخرى الى حدوث تمرد داخل القلعة مما هيأ الظروف الملائمة لاندفاع القوات الصفوية الى داخل القلعة في ليلة 28 تشرين الثاني 1623. لقد قام الجيش الصفوي بقتل كل من يصادفه من اتباع صوباشي والاف من السكان الابرياء بل قيل ان من سلم من القتل لم يسلم من التعذيب ، اما الامان الذي اعلنه الشاه فلم يكن الا خدعة، فقد امر الشاه باللقاء القبض على الجنود العثمانيين وتجريدهم من السلاح . اما مصير بكر صوباشي فقد قيل انه جيء به مكبلاً الى مجلس الشاه الذي كان يضم ابن بكر صوباشي محمد. فامر الشاه بسجن بكر صوباشي وأخاه عمر ثم اعدمهما بعد ذلك وقيل ان الشاه وضع صوباشي واخاه عمر في زورق ثم امر بصب النفط عليهما فأحرقوا في الحال. لقد ادت حركة صوباشي الانفصالية الفاشلة الى وقوع بغداد بيد الصفويين ، ولم تقف الدولة العثمانية التي كانت تعتبر اعادة بغداد الى حظيرتها مسألة مهمة بالنسبة لها بموقف المتفرج ازاء هذا الاحتلال بل جردت الحملات الواحدة تلو الاخرى في محاولة لاسترجاع بغداد من الصفويين.

بعد احتلال الصفويين لبغداد توجهت قوة صفوية بقيادة قرجغاي خان الى كركوك، فاستسلمت له دون مقاومة بعد فرار واليها الى ديار بكر، ثم توجه قرجغاي خان الى الموصل وحاصرها ثم تمكن من دخولها رغم المقاومة الشرسة للمدينة نتيجة وصول تعزيزات جديدة من الشاه عباس. وقد بقيت الموصل تحت السيطرة الصفوية لمدة ثلاث اعوام الى ان تمكن العثمانيون من احتلالها مجددا عن طريقة حملة ارسلت بقيادة جركس حسن باشا.

- قائمة المصادر:

-ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، بلا.ت).

-ابراهيم خليل احمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، 1986).

-ابراهيم خليل احمد، "بدايات التوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 43، لسنة: 1990.

-ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

-ابراهيم خوري، "توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ونتائجه الاقتصادية 1498-1625"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

-احمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع الى المواجهة 1516-1916، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، 2002).

-احمد عبد الرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، (القاهرة: دار الشروق، 2003).

-اسامة عبد الرحمن الدوري، "البلاد العربية في الوثائق العثمانية مصدرا وثائقيا لدراسة تاريخ البصرة منتصف القرن السادس عشر"، مجلة آداب البصرة، المجلد: 2، العدد: 63، لسنة: 2012.

-اسماعيل احمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1997).

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

-باسم حمزة عباس، "ايران في عهد الشاه طهماسب الاول 1524-1576"، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، المجلدك4، العدد: 1-2، لسنة: 2012.

-بان راوي شلتاغ الحميداوي، "التقسيمات الادارية لسنجق السليمانية خلال العهد العثماني الاخير 1869-1918"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جامعة القادسية، المجلد: 8، العدد: 3، لسنة: 2009.

-بيدرو تيخيرا، رحلة بيدرو تخيرا من البصرة الى حلب عبر الطريق البري 1604-1605، ترجمة: انيس عبد الخالق محمود، (بيروت: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، 2013).

-جان بابتيست جاك لوي روسو، وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة: خالد عبد اللطيف حسن، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2012).

-جميل بيضون وشحادة الناطور وعلي عكاشة، تاريخ العرب الحديث، (اربد: دار الامل، 1992).

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج3.

-حسن صالح شهاب، "البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الاحمر والخليج العربي"، بحث ضمن ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية بعنوان: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية، 19-21 نوفمبر 1988.

-حسين محمد القهواتي، "حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام 1534"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

-حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة: مطبعة الحجازي، 1938).

-حميد احمد حمدان التميمي، "خطوات السيطرة العثمانية في المشرق والخليج العربي"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 47، لسنة"1994.\\

-حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية 1546-1918، (عمان: دار وائل للنشر، 1999).

-رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1994).

-سامي ناظم حسين، "التقسيمات الادارية لسنجق كربلاء 1845-1916"، مجلة الباحث، جامعة كربلاء، المجلد: 3، العدد: 1، لسنة: 2013.

-ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، (بغداد: منشورات مكتبة اليقظة العربية، 1985).

-سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2000).

-سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

-صالح محمد العابد، "عهد الحكم العثماني الاول"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

ـــــــــــــــ، "النظام الاداري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-صالح محمد العابد وخليل علي مراد، "القوات المسلحة في العراق بين 1534-1831"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988).

-طارق نافع الحمداني، "القوة البحرية والنهرية العثمانية في العراق وتطورها 1534-1831"، بحث ضمن موسوعة: الجيش والسلاح، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1988).

-طالب جاسم محمد الغريب، "الوعي السياسي للأسر البصرية في العهد العثماني: دراسة تاريخية"، مجلة آداب البصرة، العدد: 49، لسنة: 2009.

-طالب محبيس حسن الوائلي، "هزيمة العثمانيين في انقرة: دراسة في مقدمات الصدام التتاري-العثماني ومجريات الحرب"، مجلة كلية التربية-جامعة واسط، المجلد: 4، العدد: 16، لسنة: 2008.

-عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج4.

-عبد السلام الترمانيني، احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين، (دمشق: دار طلاس، 1997)، ج4.

-عبد العزيز عوض، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث، (بيروت: دار الجيل، 1991)، ج1.

-عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-عثمان بن عبد الله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، (الرياض: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، 1983)، ج2.

-عزتلو يوسف بك اصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011).

-علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني1638-1750، (الموصل: مطبعة اوفسيت الشعب، 1985).

ــــــــــــــــ"التنظيمات المالية في البصرة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 27، لسنة: 1986.

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار الراشد، 2005)، ج1.

-عماد عبد السلام رؤوف، "الجيش: القوى والمؤسسات العسكرية"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985)، ج10.

-فاضل بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني: رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، (بيروت: دار المدار الاسلامي، 2003).

-فنشنسو ماريا دي سانتا كاترينا، "رحلة فنشنسو الى العراق في القرن السابع عشر"، ترجمة: بطرس حداد، مجلة المورد، المجلد: 5، العدد: 3، لسنة: 1976.

-فيريير سوفبوف، "العراق في رحلة كونت فيريير سوفبوف 1785"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

-كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، 1968).

-لازم لفته المالكي وخلود عبد اللطيف عبد الوهاب، "البعد الاقتصادي للغزو البرتغالي للخليج العربي للمدة 1506-1652"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة البصرة، العدد: 1، لسنة: 2005.

-محمد حسن العيدروس، السياسة العثمانية تجاه الخليج العربي، (ابو ظبي: دار المتنبي للطباعة والنشر، بلا.ت).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد عبد الله عودة وابراهيم ياسين الخطيب، تاريخ العرب الحديث، (عمان: الاهلية للنشر والتوزيع، 1989).

-محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية-الفارسية واثرها في انحسار المد الاسلامي عن اوروبا، (القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، 1987).

-محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

-مصطفى عبد القادر النجار، "البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي 1546-1869"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 3، لسنة: 1986.

-الموسوعة العربية الميسرة، (بيروت: المكتبة العصرية، 2009)، 7ج.

-نادية محمود مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية، (القاهرة: المعهد العالي للفكر الاسلامي، 1996).

-نزار قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الاخوة وفتنة الانكشارية، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992).

-نصوح افندي السلاحي، رحلة مطراقي زاده، ترجمة: ناظم صبحي توفيق، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، (ابو ظبي: المجمع الثقافي، 2003).

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

-نيقولاي ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، ترجمة: يوسف عطا الله، (بيروت: دار الفارابي، 2004).

-نيقولو باربارو، الفتح الاسلامي للقسطنطينية: يوميات الحصار العثماني 1453، دراسة وترجمة وتعليق: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، (القاهرة: عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2002).

-هشام سوداي هشام، "اربيل في كتابات الرحالة الاجانب في العهد العثماني"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 15، العدد: 30، لسنة: 2008.

-وجيه كوثراني، "اشكاليات في التاريخ العربي للدولة العثمانية ومجتمعاتها: مراجعة المفاهيم"، بحث ضمن كتاب: العرب وتركيا، تأليف: مجموعة من الباحثين، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012).

-وليم بيري فوك، "احوال العراق في القرن التاسع عشر"، ترجمة: عبود الشالجي المحامي، مجلة سومر، المجلد: 16، الجزء: 1-2، لسنة: 1960.

-يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمود سلمان، مراجعة: محمود الانصاري، (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ج1.

-Andrew J. Newman, Safavid Iran, rebirth Of a Persian Empire,(New York,2006).

-Gabor Agoston and Bruce Masters(Editor), encyclopedia Of The Ottoman Empire,(New York,2009).

-Harold Lamb, Suleiman The Magnificent Sultan Of The East,(New York,1951).

-Roger Bigelow Merriman, Suleiman The Magnificent,(Cambridge,1944).

الفصل الخامس

العراق في العهد العثماني الثاني
1638 - 1750



الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية
عند اعتلاء السلطان مراد الرابع العرش:

اعتلى السلطان مراد الرابع العرش في 10 ايلول 1623م، وكان صبيا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة، ويعد من السلاطين القلائل الذين استطاعوا في السنوات الاخيرة من حكمهم، أن يحكموا حكما فعليا، فقد كانت والدته (كوسه م) هي المهيمنة على الحكم حتى سنة 1632م وبعد هذه السنة استطاع مراد الرابع أن يأخذ زمام الحكم بيده بعد أن تخلص من المشاكل الداخلية.

تسلم مراد الرابع عند اعتلائه العرش تركة مثقلة بالمشاكل الداخلية والخارجية، فعلى الصعيد الداخلي استمر تمرد الانكشارية وتدخلهم في عزل ونصب الصدور العظام، فقد كانت الانكشارية في هذه الفترة فقدت حيويتها واندفاعها وتحولت إلى عنصر فوضى وفساد تاركة التدريب الصارم واصبحت اشبه ما تكون بطبقة مدنية تكره الرقابة النظامية وتتدخل في عزل الوزراء والسلاطين كأنها هي الحاكمة في الدولة وليس السلطان. فقد بدأت فوضى الانكشارية في اعقاب وفاة السلطان القوي سليمان القانوني، فهم لم يسمحوا لسليم الثاني(1566-1574) باعتلاء العرش حتى يدفع لهم الاعطيات. وفي تطور خطير اصبح للانكشارية دور في تحديد مصير كبار رجال الدولة في عهد السلطان مراد الثالث(1574-1595)، فقد تم قتل الدفتر دار وبكلربك الروملي امام عجز السلطان عن حمايتهم وكان ذلك عام 1589 في الحادثة المعروفة باسم واقعة البكلربك. كما اسهم الانكشارية في عزل السلطان عثمان الثاني(1618-1622)، ثم مقتله على يديهم، وعلا نتيجة ذلك شان الانكشارية فاخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم. ولم يكتف الانكشارية بهذا

بل انهم عزلوا مرة اخرى السلطان مصطفى الاول(1622-1623)، وولوا مكانه السلطان مراد الرابع(1623-1640). وفي عهده اقدموا على قتل الصدر الاعظم داماد حافظ باشا(تولى الصدارة في 1625-1626و 1632)، بعد ان تمردوا عام 1632، واجبروا السلطان على تولية الداماد رجب باشا صدرا اعظما.

وكذلك فان علماء الدين الاعلام الذين كانوا يمثلون القوة الروحية في الدولة العثمانية بدأوا يتسامحون في الامور الشرعية، والأسوأ من ذلك افلاس الخزينة الذي لم يكن سببه قلة واردات الولايات فحسب بل أيضاً التبذير المفرط في امور اللهو التي كانت تجري في بلاط السلطان خاصة على الحريم اللواتي كن احد الاسباب في ضعف الدولة العثمانية وانهيارها.

أمّا على الصعيد الخارجي، فقد كانت الاتجاهات اللامركزية والنزاعات الانفصالية واضحة للعيان في بعض الولايات العثمانية، تلك الاتجاهات والنزعات التي تكشف لنا عن مدى ضعف الدولة العثمانية، ففي اسيا الصغرى حمل الثائر أباظة باشا الذي كان قد تجمع تحت امرته اربعين الف انكشاري، لواء العصيان واخذ يقوم بهجمات على الولايات المجاورة، بل وانه اخذ في جباية الضرائب ويجند الجنود بحجة الانتقام لدم السلطان عثمان الثاني (1618-1622م) وقد مد سيطرته على انقرة وسيواس، بل كادت بروسة أن تقع في قبضته ولولا قلعتها الحصينة، كما أن الامير الدرزي في لبنان الامير فخر الدين المعني الثاني (1572-1635م)، كانت له علاقات وثيقة مع القوى الاوربية المناهضة للدولة العثمانية، وخاصة تلك التي كانت لا تزال متمسكة بضرورة استمرار الحروب الصليبية بشكلها التقليدي السابق مثل فلورنسا والبابوية، وكانت امال هذه القوى معلقة بفخر الدين المعني الذي قام بزيارات سرية إلى ايطاليا واجتمع مع البابا بولس الخامس وعند عودته سنة 1618 شرع في تقوية امارته وتوسيعها لمواجهة الصدام الذي كان يتوقع حدوثه اجلا أو عاجلا مع القوى العثمانية في طرابلس ودمشق. ولم تكن الاضطرابات الدائرة في الولايات العثمانية الأخرى اقل خطورة، فحكام مصر كانوا تابعين للسلطان اسميا فقط، والادهى من ذلك أن

بغداد اصبحت في قبضة الصفويين سنة 1623م بعد حادثة بكر صوباشي التي ادت إلى نتائج خطيرة كما ذكرنا سابقا.

وهكذا نرى أن الدولة العثمانية كانت تعاني من مشاكل داخلية وخارجية عند اعتلاء السلطان مراد الرابع العرش، غير أن السلطان مراد الذي اشتهر بانه اخر السلاطين العظام الذي تمكن من اعادة الحيوية والنشاط إلى جسم الدولة العثمانية لم يترك بقاء هذه الاوضاع على ما كانت عليه، بل اتخذ سلسلة من الاجراءات في مواجهة القوى المناهضة للدولة العثمانية، والقضاء على المعارضة الداخلية المتمثلة بالانكشارية.

ـ الحملات العثمانية لاستعادة العراق(1625ـ1638):

كان سقوط بغداد في ايدي الصفويين امر في غاية الخطورة بالنسبة الى الدولة العثمانية، وعلى الرغم من مرحلة الضعف التي كانت تمر بها آنذاك، فإنها لم تتوان عن محاولة: "استعادة انبل مدن اسيا". لذا فقد ارسلت الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى، هذه الحملات التي يمكن أن نسميها بالحملات الاسترجاعية التي اخفقت في تحقيق هدفها، ومن هذه الحملات:

1.حملة حافظ احمد باشا 1625:

اسندت السلطنة العثمانية مهمة استرجاع بغداد الى الصدر الاعظم حافظ احمد باشا، في نفس الوقت لما كان السلطان مراد الرابع مهتما جدا باستعادة بغداد لذا فقد ارسل قوة من حرسه الخاص للسيطرة على الحلة وكربلاء. وعندما وصلت اخبار التحركات العثمانية الى الشاه عباس الكبير ارسل قوة تقدر بثمانين الف مقاتل من القزلباش بقيادة زينل خان بهدف مساعدة الحامية في بغداد، وقد تقدمت هذه القوات حتى وصلت الى شهربان وعسكرت

هناك. بعد ذلك زحفت القوات الصفوية الى بهرز وتمكنت من مد جسر من السفن على نهر ديالى لتعبر قواته باتجاه بغداد. ولما كان هدف القيادة العسكرية العثمانية قطع خط الاتصال بين القوات الصفوية المتمركزة في النجف والحلة، وبين القوات الصفوية المتواجدة في بغداد، فان قوة عثمانية بقيادة مراد باشا والي ديار بكر زحفت نحو بغداد في تشرين الثاني 1625م، والتحقت به قوات امير امراء الاناضول الياس باشا حتى بلغ عدد قوات الحملة حوالي خمسة عشر الف جندي، واصطدمت هذه القوة بتلك التي يقودها زينل خان الا انها لم تتمكن من صد القوات الصفوية وبالتالي اخفقت في مهمتها لقطع خط الاتصال، إذ استطاع عدد كبير من القوات الصفوية دخول بغداد، في هذا الوقت كان الصدر الاعظم حافظ احمد باشا الذي كلف بمهمة قيادة الحملة الزاحفة نحو بغداد، قد خرج من العاصمة بعد أن تجمعت تحت رايته قوات من الروميلي والاناضول ومصر والشام، فسلك طريق ماردين، ثم اسكي موصل، والزابين الكبير والصغير حتى وصل إلى كركوك. وقد عقد الصدر الاعظم في كركوك مجلسا حربيا، لمناقشة كيفية التوجه نحو بغداد، وكان من راي الصدر الاعظم السيطرة أولاً على نقاط الحدود ومراكز الامداد الصفوية في درنة ودرتنك، ثم التوجه نحو بغداد، لان التوجه المباشر لا يجدي نفعا، خاصة وان حملة مراد باشا لم تحقق هدفها في السيطرة على الحلة والنجف لمنع وصول تعزيزات صفوية إلى الحامية الايرانية في بغداد.

انقسم قادة الحملة إلى فريقين بين مؤيد لراي الصدر الاعظم ومعارض له، وسادت صفوف الجيش موجة من الفوضى والاضطراب نتيجة هذا الانقسام، واخيرا وافق الصدر الاعظم على رأي الفريق المعارض والقاضي بالتوجه المباشر نحو بغداد، قبل تحرك الحملة من كركوك، استقبل الصدر الاعظم رسولا من حاكم بغداد الفارسي صفي قولي في تشرين الأول 1625م، وقد عرض الرسول على الصدر الاعظم فكرة مراسلة الشاه، إن كان مصرا على فتح بغداد، ولكن الصدر الاعظم رفض ذلك. ويظهر أن مهمة الرسول ليست مهمة عرض مراسلة الشاه، وانما كانت مهمة جاسوسية لغرض الاطلاع على تحركات الحملة

وعددها، والحصول على معلومات عن خططها العسكرية، ومهما يكن من امر فان مجيء الرسول الصفوي قد اثر في خطة الحملة العسكرية، فقد اجرى الصدر الاعظم بعض التغيرات في قيادة الجيش، كما ارسل سليمان باشا إلى الموصل لغرض جمع الذخيرة وامر الصدر الاعظم ببقاء بستان باشا في كركوك خوفا من هجوم صفوي مباغت من جهة الشرق.

وصل الصدر الاعظم إلى جوار مرقد الامام الاعظم في 11 تشرين الثاني 1625م وعلامات التعب بادية على جيشه، وبعد يومين أي في 13 تشرين الثاني، كان الجيش العثماني، قد اتخذ اماكنه المقررة حول سور بغداد كما كان السكبانية قد دخلوا المتاريس التي حفرت ساعة نزول الحملة، وقد استمر الحصار الذي ضربه الجيش العثماني ساعة نزول الحملة، استمر الحصار الذي ضربه الجيش العثماني حوالي شهرين انفجر خلالهما اثنان وخمسون لغما، وكان الجيش العثماني يملأ الخنادق بسعف النخيل ولكن دون أن يقوم باي نشاط عسكري، فمل كثير منهم من طول الحصار بينما كان الصفويين يشعلون الاف المشاعل كل ليلة، ويقيمون الاحتفالات ايذانا بوصول امدادات عسكرية جديدة لهم يقودها الشاه الصفوي نفسه، وبالرغم من الحصار المفروض على بغداد، فقد كانت القوات الصفوية تدخلها كلما وجدت فرصة لها، وقام الجيش العثماني بهجوم عام، ولكن الصفويين تمكنوا من صد الهجوم بالرغم من انفجار الالغام التي وضعها الجيش العثماني في بعض المناطق من السور وقد خسر العثمانيونُ في هذا الهجوم، كثيرا من الجند، اضافة إلى الخسائر التي منيت بها القوات العثمانية في شهربان على يد القائد الصفوي زينل خان. بعد هذه النكسة العسكرية، عقد حافظ باشا اجتماعا حربيا لاتخاذ التدابير اللازمة لوقف هذا التدهور الخطير، وقد ارتفعت اصوات الانكشارية مطالبة القتال ورفض فكرة الرجوع التي طرحت من قبل بعض القادة، فوافق الصدر الاعظم على الاستمرار في القتال وطلب إمدادات عسكرية من الباب العالي والبصرة. واثناء عقد الاجتماع، كان القائد الصفوي زينل خان يلحق ضربات قوية بقوات والي سيواس طيار محمد باشا في منطقة ديالى، كما كانت القوات العثمانية المتمركزة في النجف واطرافها تعاني هي الأخرى من هزائم متكررة امام الجيش

الصفوي، فاخذ الضبط العسكري في الجيش العثماني ينحل تدريجيا، وبدأ القادة كل واحد يتهم الاخر بتحمل مسؤولية هذه الهزائم، وسط هذا الفزع والقلق الذي كان يسود صفوف الجيش العثماني من جراء الاخفاق في السيطرة وقوة المقاومة الصفوية، جرت مناوشة بين الطرفين، لكن لم تسفر عن اية نتيجة سوى وقوع بعض الاسرى من الطرفين.

بدأ الصفويين يضيقون الخناق على العثمانيين، عندما سيطروا على جميع الطرق الموصلة إلى بغداد، كما وقعت مخازن العتاد في الفلوجة تحت سيطرة الصفويين واستمرت المراسلات بين الطرفين إذ طلب الشاه من الصدر الاعظم فصل بغداد عن الدولة العثمانية زاعما انها مقاطعة صفوية لكن الصدر الاعظم رفض ذلك بشدة. وجرت المعركة الاخيرة بين الطرفين في 27 ايار 1626م، وكانت غير متكافئة بسبب وصول امدادات عسكرية للصفويين وعلى راسها الشاه عباس، وكان وجود الشاه بين جنده باعثا على رفع معنوياتهم. فبدأ الصفويون هجومهم من ثلاث جبهات في وقت واحد، وكان الشاه يرفع معنويات جنده بخبطة الرنانة، فيزيد من اندفاع جنده، ولم يكن الجيش العثماني اقل اندفاعا في القتال، ولكنه كان جيشا ينقصه الضبط والقيادة الحازمة اضافة إلى قلة الذخيرة والاسلحة، ومع ذلك فقد احرز في بداية المعركة انتصارات ملحوظة خاصة تحت قيادة خسرو باشا الذي استطاعا التوغل إلى عمق القوات الصفوية، ولكنه اضطر إلى التراجع نتيجة هبوب غبار كثيف جعل الاستمرار في التقدم امرا مستحيلا. ثم دخل الطرفان العثماني والصفوي في مفاوضات لإيجاد حل لهذا المأزق فعقد الصدر الاعظم سلسلة من الاجتماعات مع ممثل الشاه، الاجتماع الأول اثار ممثل الشاه بعدم جواز القتال بين الاخوة المسلمين، وفي الاجتماع الثاني اكد ممثل الشاه المزاعم حول تبعية بغداد للدولة الصفوية، واقترح في اجتماع اخر ترك مدينة النجف للشاه مقابل اعادة بغداد للعثمانيين، فكان جواب الصدر الاعظم بالرفض القاطع لمطالب الشاه. وفي اثناء عقد الاجتماعات بين الصدر الاعظم وممثل الشاه، حصل انشقاق خطير في صفوف الانكشارية حول ما دار في هذه الاجتماعات المطولة وما كاد الاجتماع الاخير ينتهي حتى هجم بعض الجند على خيمة الصدر الاعظم

والقوا عليه القبض متهمين اياه بالتواطؤ مع الشاه وسجنوه في قبة الامام الاعظم على مشهد من ممثل الشاه، لكنه افرج عنه بعد ساعات قلائل نتيجة موقف احد القواد الذين طلب من الانكشارية بانه لا يحق لهم عزله سوى السلطان، واثر هذا الكلام في نفوس الانكشارية فعدلوا عن موقفهم، واخيرا اضطر الصدر الاعظم الى الانسحاب نحو الموصل. وهناك اسباب عديدة لفشل حملة حافظ احمد باشا في استعادة بغداد وهي:

1. قلة الارزاق وتفشي المرض في صفوف الجيش العثماني.
2. انهيار معنويات الجند العثماني نتيجة الفشل في تحقيق نصر حاسم على الصفويين.
3. تمرد الانكشارية بسبب طول فترة الحصار وعدم وصول الامدادات.

وعند وصوله العاصمة، اقصى عن الصدارة العظمى لفشله في استرداد بغداد من يد الصفويين وحل محله خليل باشا الذي اقصى بعد اشهر قلائل، فاصبح في الصدارة خسروا باشا البشتناقي في 6 نيسان/ 1628م، وقد وصف هذا بانه كان مشهورا بالشجاعة والاقدام، إلاّ انه كان ميالا إلى الدسائس وسفك الدماء، فقد استطاع أن يزيل جميع العقبات التي اعترضته بالدم المسفوك، وتميزت السبل التي سلكها للوصول إلى اهدافه بسلسلة من احداث القتل.

2. حملة خسرو باشا 1629م:

تجددت العلاقات العدائية بين الصفويين والعثمانيين في عهد الشاه صفي(1629-1642)، وتركز الصراع بينهما عل بغداد وارمينيا، فقد استغل السلطان مراد الرابع وفاة الشاه القوي عباس الكبير وصغر سن خليفته، فنهض لاستعادة بغداد من الصفويين، فارسل الصدر الاعظم خسرو باشا على رأس حملة كبيرة في محاولة ثانية لاستعادة بغداد، فبدأ خسرو باشا زحفه من اسكودار في ايار 1629، بعد أن اناب في الصدارة رجب باشا، وسلك طريق اق شهر وقونية ثم حلب، وعند وصوله إلى بيره جك امر بنقل المعدات والتجهيزات إلى

الفلوجة ثم واصل زحفه ووقف قليلا عند ديار بكر حيث انضم إلى حملته بعض البيكات من الاكراد ووصل الموصل في 17 كانون الأول 1629م، حيث كانت المدافع الضخمة التي ارسلت عن طريق قوج حصار ونصيبين في انتظاره. وقد عقد الصدر الاعظم في الموصل اجتماعا حربيا، وبعد مناقشات طويلة استقر رايه التوجه أولاً نحو شهرزور بسبب رداءة الطريق نتيجة كثرة هطول الامطار، واحتمال قيام امراء اردلان بالهجوم على مؤخرة الجيش في حالة التوجه المباشر نحو بغداد، ومن ثم من اجل اتخاذ شهرزور قاعدة عسكرية تحمي ظهر الجيش الزاحف نحو بغداد. ولم يصادف خسرو باشا في اثناء زحفه نحو شهرزور اية صعوبات تذكر، بل قدم كثير من امراء الاكراد، وكذلك بعض امراء اردلان المنشقين عن احمد خان حاكم اردلان، طاعتهم له، اذ ان تسعا وثلاثين قرية كردية قدمت الطاعة إلى الصدر الاعظم، وساعدت ظروف اخرى خسرو باشا في السيطرة على شهرزور هي تورط الشاه صفي مع المغول في الحدود الشرقية من بلاده. امر الصدر الاعظم خسروا باشا بتجديد بناء قلعة (كلعنبر) واستغرق العمل في تجديدها قرابة شهرين، وقد تحمل الجيش العثماني الكثير من الصعاب من جراء العمل المتواصل.

لقد رأى خسرو باشا ان استعادة العراق لا تتم الا اذا عزل عن ايران، ولا يتحقق ذلك الا بالسيطرة على اذربيجان، لذلك اجتاز الاراضي الكردية ودخل الاراضي الايرانية ووصل الى اذربيجان. وعندما علم الشاه صفي بتوغل خسرو باشا داخل الاراضي الايرانية، ارسل قوة عسكرية مؤلفة من خمس واربعين الف مقاتل بقيادة زينل خان للتصدي له، ووقف زحفه، وخرج بنفسه على رأس قوة عسكرية اخرى باتجاه بغداد، وتصدى زينل خان للقوات العثمانية عند قلعة مريفان/ مهربان في 5 ايار 1630 الا انه تعرض للهزيمة ودفع حياته ثمنا لذلك. فتحت معركة مريفان الطريق الى همدان امام القوات العثمانية، فتقدم خسرو باشا الى همدان وفتحها في 9 حزيران، وواصل تقدمه باتجاه قزوين وهناك تصدى له حسين خان حاكم لورستان عند دركزين على طريق همدان-قزوين الا انه انهزم امامه، وعندما علم الشاه صفي بنتيجة المعركة لاذ بالفرار الى الداخل الايراني. وقيل ان خسرو باشا ارسل رسالة إلى

الشاه يباركه بتقلده منصبه الجديد ويعزيه بوفاة جده الشاه عباس ويدعوه للصلح. وبفعل هذا الاندفاع استعاد العثمانيون ايران الغربية، أي كرمنشاه وكردستان ولورستان وخوزستان، كما استعادوا في الوقت نفسه جنوبي العراق عندما هاجم مصطفى باشا حاكم طرابلس الشام الحلة وكربلاء والنجف والكوفة وانتزعها من ايدي الصفويين. وفي دركزين وصل كتاب السلطان مراد الرابع الى خسرو باشا يأمره بالتوجه الى بغداد فاضطر إلى ترك الاراضي الايرانية، واثناء عودته التقى بحملة صفوية بقيادة موراوي خان اصطدم بها وتغلب عليها واحرق مدينة نهاوند، ثم اندفع نحو بغداد فمر بحلوان ودرتنك ثم قصر شيرين وبغداد حيث وصلها في 16 ايلول 1630م، وعد وصوله بفترة وصلت مدافعه من الموصل، فنصب سبعة مدافع باتجاه باب الامام الاعظم، ووضع حامية في قلعة الطيور (قوشلر قلعة سي) لمنع وصول الامدادات إلى الحامية الايرانية من النجف وكربلاء والحلة. كما امر بنصب بعض المدافع في الجانب الغربي من نهر دجلة، واتخذت بعض القوات العثمانية امكانها في مناطق متفرقة من السور بحيث سدت المنافذ جميعها. ثم قام الجيش العثماني في 9 تشرين الثاني 1630م بهجوم عام واستطاع خلاله قسم من الجند اجتياز الخنادق والمتاريس، إلاّ أن شدة المقاومة الصفوية اجبرت الجيش العثماني على التراجع، بعد أن تكبد خسائر فادحة، وقد قتل في هذا الهجوم احد قادة الجيش العثماني هو كنج عثماني الذي اصيب برصاص في رجله، لذلك سادت موجة من الفوضى والاضطراب صفوف الانكشارية، وارتفعت الاصوات بين مطالب للرجوع ومعارض له حتى اضطر خسرو باشا إلى تنفيذ حكم الاعدام بحاكم اشقوردة اناؤود اسكندر الذي كان من اشد اعداء الصدر الاعظم والذي وقف بوجهه واسمعه كلمات نابية. من جانب اخر كان الشاه صفي في غضون ذلك قد خرج من عاصمته صوب بغداد لمشاركة حاميتها في الدفاع عنها، وعندما علم خسرو باشا بقدومه رأى وهو وسط معارضة الانكشارية ان من الافضل ان يفك الحصار عن المدينة ويعود ادراجه، وهذا ما حصل في 14 تشرين الثاني 1630م، بعد أن استمر الحصار اربعين يوما، وقد سلك الطريق الجنوبي الى اسطنبول عبر حلب، وذلك لاستيلاء القوات الصفوية بقيادة توختة

خان، على درنة ودرتنك وشهرزور. وقد وصل الشاه الى بغداد، ثم توجه الى وسط وجنوب العراق، لاستعادته من العثمانيين وكان خسرو باشا قبل انسحابه قد عين خليل باشا واليا على الحلة ومعه عشرة الاف جندي، ولكن الشاه صفي ارسل قوة مؤلفة من اربعين اف وفرض الحصار على الحلة التي قاومت لمدة ثلاثة اشهر، انتهت بسقوط المدينة بيد الصفويين، ثم عاد الشاه صفي الى اصفهان، وهناك مسببات عديدة يمكن ان تبرز من اجل ان تعليل الفشل العثماني في استعادة بغداد وهي:

1. ان خسرو باشا قد اضاع كثيرا من وقته في تجديد قلعة كلعنبر، الى درجة دفعت البعض الى القول ان هدف الحملة هو تجديد القلعة، وليس فتح بغداد.
2. التكتيك الفني الذي لجأ اليه الصفويون الذين كانوا يبطلون الالغام التي يضعها الجيش العثماني وذلك بصب الماء عليها.
3. الانشقاق الذي حصل بين الانكشارية مما اضطر خسرو باشا إلى التخلي عن الحصار.

يبدو أن هذه الاسباب مجتمعة عملت على فشل حملة خسرو باشا الذي عزل عن الصدارة بعد وصوله العاصمة، في 25 تشرين الثاني 1631م، فحل محله حافظ احمد باشا مجددا وكان عزله بمثابة الشرارة التي اشعلت فتنة الجند في الاستانة والاناضول وهي الفتنة التي اطاحت براس الصدر الاعظم حافظ احمد باشا وكادت أن تؤدي إلى خلع السلطان مراد الرابع نفسه. يظهر أن هذا المشهد الدموي، قد اثر في نفسية السلطان مراد الرابع فصمم على قطع دابر الفوضى، فبدأ أولاً بإيقاف جباية الاطفال المسيحيين الذين كانوا يجلبون صغارا، ويدخلون في مدارس خاصة يتعلمون فيها اللغة التركية وتعاليم الدين الإسلامي اضافة إلى التدريب العسكري الصارم، ليكونوا مؤهلين للدخول في الجيش لانكشاري واستطاع بمساندة بعض الفرق الانكشارية التي اعلنت ولاءها للسلطان، أن يقضي على زعماء التمرد، إذ دعاهم إلى الاجتماع عند البسفور ودبر هناك مكيدة لهم، إذ ابيد كثير منهم، كما قام بإرسال الكثير منهم بمهمات عسكرية إلى انحاء متفرقة من الدولة حيث كان يوصي بالتخلص منهم وكما

اصدر السلطان مجموعة من الاجراءات كانت تهدف وقف الانحلال الذي كان يسود صفوف الجيش الانكشاري، كما وزع الجواسيس في طول البلاد وعرضها، وكان هؤلاء يوافونه بتقارير يومية عن الاوضاع السياسية، بل كان يخرج احيانا بنفسه متنكرا لمراقبة الاوضاع العامة، كما وضع قادة الانكشارية تحت المراقبة. لقد نجح مراد الرابع بعد هذه الإجراءات في فرض سيطرته الكاملة على الدولة، لذا أشار المؤرخون عادة إلى سنة 1632م بانها بداية حكم السلطان مراد الرابع الفعلي، بعد أن تخلص من المشاكل الداخلية، وبدأ يحكم حكما يتسم بالصرامة والقسوة، فاستعادت الدولة العثمانية في عهده بعض هيبتها ونشاطها، في وقت كانت الدولة الصفوية قد اصبحت مسرحا للفوضى السياسية في عهد الشاه صفي الذي لم يكن بذلك الحاكم القدير الذي يستطيع أن يضع حدا للمعارضة الداخلية، فاضطر أن يقوم بسلسلة من الاعدامات في قادة الجيش الصفوي، فتدهورت الاوضاع في عهده إلى درجة كبيرة، وكان ذلك عاملا مساعدا للدولة العثمانية كي تتحرك من جديد لإنقاذ بغداد من السيطرة الصفوية.

3. حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد:

كانت مسالة استعادة بغداد بالنسبة للسلطان امرا يحتل اهمية كبرى، خاصة وان سيطرة الصفويين لتلك المدينة، قد شجعهم على مد تحرشاتهم إلى بعض المناطق الشرقية في الاناضول. وقبل أن يباشر مراد بمشروع الحملة على بغداد، قاد جيشه في ربيع سنة 1635م متوجها نحو الاقسام الشرقية من اسيا الصغرى لإبعاد الصفوين من المدن التي كانت ضمن حدود الدولة العثمانية والتي دخلوها مستغلين فترات الفوضى التي عانت منها الدولة. وما أن حلت سنة 1638، حتى شرع مراد بالتوصية لإعداد حملة لاستعادة بغداد من ايدي الصفويين، وبدأت الاستعدادات في الاناضول للحملة التي كلف بها الصدر الاعظم بايرام باشا التي شملت الذخائر، وتوفير مستلزمات النقل البري والنهري وتم انشاء 800 مركب مائي، فضلا عن توفير مخازن تموينية رئيسة لإسناد الحملة واقعة في بير جك وديار بكر والموصل بشكل خاص لكونها واقعة بالمحور المؤدي الى بغداد.

اشرفت الاستعدادات المتعلقة بحملة استرداد بغداد على نهايتها في اوائل شباط 1638م، وامضى الجيش في اسكودار مدة تسعة وعشرين يوما، تم في اثنائها انجاز مختلف الامور المتعلقة بحركات الحملة واختيار الطريق الذي ستسلكه القوات ومناطق راحتها، وقد قسم الطريق ما بين اسكدار وهدف الحملة النهائي، بغداد، إلى مائة واحدى وعشرين مرحلة خلال خمسة عشر يوما، ثم تتوقف للراحة في محطات اعدت مسبقا. كان هدف السلطان من وراء هذا التقسيم المحافظة على النظام وروح الضبط في الجيش وعدم ارهاقه لحين الاطباق على الهدف المحدد، وتمشيط ودراسة الاوضاع العامة في مناطق الدولة التي تمر منها قوات الحملة واقرار الامن والاستقرار فيها. وعلى امتداد سير الحملة، وجهت عناية خاصة لحالة الطرق وتحسينها.

تحركت الحملة من اسكودار في 8 ايار 1638، وبعد ان قطع عدة مراحل توقف في جافيد خاني، التحق بالجيش بلغار احمد باشا، بيك طرابلس السابق، وواصلت القوات تقدمها فوصلت الى كوك ميدان بالقرب من حلب، في 11 تموز، حيث استراحت فيها القوات العثمانية مدة ستة عشر يوما، وفي هذا الموقع انضم إلى قوات الحملة جيش من مصر يقوده رضوان بك، وقد بلغ عدد هذا الجيش 1500 رجل ارسلهم والي مصر سلطان زاده، مساهمة مع السلطان لاسترداد بغداد.

وصلت القوات العثمانية الى بيره جك قرب نهر الفرات في 19 تموز، ومكثت فيها خمسة ايام، وفيها اتخذت الترتيبات لعبور الجيش نهر الفرات، فبني جسر من اربعين طوافة عبرت عليه القوات العثمانية، في حين عبر السلطان إلى الجانب الثاني في زورق خاص يرافقه المفتي يحيى افندي، وفي خلال فترة التوقف هذه، تم نصب خمسة مدافع كبيرة، اثنان منها بحشوة عشرين اوقية من البارود وثلاثة بحشوة ثمانية عشر اوقية، كما التحق بالجيش في هذا الموقع بكلر بيك سيواس واسير بوزاوق شمس بك زادة، وفي موقع قريب، تم بناء ثمانمائة زورق لنقل الذخيرة والتموين. واصل السلطان سيره وبعد اسبوع واحد، وصل الجيش إلى منطقة جلاب، وفيها توفى الصدر الاعظم بيرم باشا،

وعين لمنصب الصدارة العظمى والي الموصل، طيار محمد باشا، وعين بصفة مؤقته قره مصطفى باشا.

وصل الجيش إلى ديار بكر في 14 ايلول، وكان في استقباله امير الصحراء ابن ابي ريشة، وعسكر فيها لمدة تسعة ايام. واثناء وجود الجيش في ديار بكر التحق بالسلطان الصدر الاعظم الجديد، على راس جيش كبير، وقبل التحرك نحو الموصل، جرى تنظيم السير بحيث يكون كل من أمير الصحراء ابن أبي ريشة وباشوات حلب وطرابلس الشام على مقدمة الجيش، تحت امرة والي ديار بكر درويش باشا، وامرهم بالتوجه نحو بغداد كقوة استطلاعية. وفي منطقة حكمية، والتي وصلها الجيش، قدم عرب البادية إلى مقر القيادة وهم يصحبون خمسمائة اسير من القزلباش اسروا قرب بغداد وقد امر السلطان بإعدامهم جميعا، وبعد مرحلتين أي في كفر زمان، جرى عبور نهر دجلة بدون جسر، ودخل الجيش العثماني مدينة الموصل، وعسكرت فيها القوات للراحة واتخاذ الاجراءات النهائية لمدة عشرة ايام، وفي الموصل استقبل السلطان سفيرا من ملك الهند، وهو يحمل رسالة إلى السلطان مع هدايا ثمينة. وإن السبب في تلك السفارة، يعود إلى سماع ملك الهند بنبأ حملة السلطان ضد الصفويين لاسترجاع بغداد، ولذا فقد اشار ملك الهند في كتابه المرسل إلى السلطان انه بدوره قد حشد قواته لمهاجمة قندهار واستعادتها من الصوفيين، وقد كان لهذا النبأ وقع طيب في القيادة العثمانية. ثم غادر الجيش العثماني الموصل زاحفا إلى بغداد فوصل كركوك، التي امضت فيها القوات يوما واحدا للراحة، ثم تحرك الجيش من كركوك وصل الى طاش كوبري، حيث امر الجيش بالتحشيد والراحة ليوم واحد، وهنا وصل إلى السلطان خبر انتصار حاكم اخسخة، سفر باشا، على حاكم روان الصفوي، واستولت على ذلك الموقع، كما وصلت أيضاً انباء نجاح الغارة العثمانية على منطقة شهرزور.

عبر الجيش العثماني بعقوبة ثم بهرز، ووصل بغداد في 15 تشرين الثاني، وبدأت اجراءات فرض الحصار على المدينة. مما يلاحظ ان السلطان قد حشد قواته على الجهة الشرقية من بغداد، لان استحكامات الصفويين في هذه الجهة كانت ضعيفة، لاعتقادهم ان

السلطان سيهمل هذا الجانب كما فعل قادة الحملات السابقة. وقد وصلت المدافع العثمانية التي رافقت الجيش عن طريق البر، فوزعت على الفور على جميع الجبهات. بُوشر بالقتال بين الطرفين ويظهر من مجريات المعارك ان الغلبة كانت للجيش العثماني، وكانت المدفعية العثمانية قد اثبتت تفوقها في ضرب الجيش الصفوي، ففي بواكير اليوم الثالث انطلقت المدافع من ثلاث جبهات لقصف الاسوار. وتواصل القتال خلال اليومين اللاحقين، وقد اشتد قصف المدفعية من الجانبين. وفي اليوم الرابع من الحصار ارسل السلطان بعض قواته بقيادة شاهين باشا لترابط في اطراف ديالى لتكون قوة دفاعية، ولتقطع الطريق على القوات الايرانية في حالة زحفها نحو بغداد لإمداد الحامية المحاصرة. ونتيجة لعجز القوات الصفوية من فك مساعدة الحامية المحاصرة طلب الشاه عقد الصلح مع الصدر الاعظم لكن السلطان رفض عقد الصلح. وفي اليوم الثامن من الحصار أي في 23 تشرين الثاني كانت المتاريس العثمانية قد وصلت بالقرب من الخندق، في وقت تهدمت فيه الكثير من الابراج بفعل قصف المدفعية العثمانية. وجرت في البداية مناوشات بين الطرفين اسفرت عن اسر اثني عشر صفويا، امر السلطان بإعدام اربعة منهم في الحال. وفي نفس اليوم قام الصدر الاعظم طيار محمد باشا بهجوم مباغت اسفر عن احداث ثغرة في جانب الباب الابيض من سور بغداد بطول ثمانين ياردة. وقد استطاعت المدفعية العثمانية احداث تدميرا بالغ في تحصينات اسوار بغداد اذ نجحت في تدمير سورين من اسوار بغداد، وكما استمر القتال بين الطرفين بدون انقطاع معتمدا على القصف بالمدافع وتبادل النيران. واشترك مع القوات العثمانية في فرض الحصار على بغداد امير العرب (أبو ريشة) الذي كان يقود قافلة مؤلفة من عشرة الاف جمل محمل بالأرزاق للجيش، وفي اثناء ذلك تقدمت قوات الشاه نحو ديالى لكن قوات السلطان تقدمت لصد هذه القوات التي انسحبت فيما بعد لسماعهم بنبأ وصول القوات العثمانية.

شن الصدر الاعظم في 24 كانون الاول 1638 هجوما كاسحا على بغداد ومن جميع الجهات، وقد قتل الصدر الاعظم اثناء الهجوم، فتولى القبودان مصطفى باشا منصب

الصدارة العظمى، الذي استأنف القتال، وبدأ هجوم القوات العثمانية من الخنادق التي كانوا يتحصنون بها، وتمكنت القوات العثمانية من السيطرة على كافة الابراج والسيطرة على بغداد في يوم 25 كانون الاول بعد حصار اربعين يوما. ونتيجة لذلك تقدم الحاكم الصفوي لبغداد (بكتاش خان) ليسلم نفسه إلى السلطان وطلب منه بإخلاء القلعة وتوجيه الكتب والرسل إلى بقية الضباط الصفويين للإعلان استسلامهم وتسليم القلعة. كما وافق مراد الرابع على منح الامان للحامية الصفوية وفق شرطين:

1. اخلاء بغداد من الصفويين في الحال.
2. ان المحاصرين مخيرون بين الالتحاق بالشاه أو الانضمام الى الجيش العثماني.

ما ان بدأ الجيش العثماني بالتدفق الى داخل بغداد حتى عاد القتال من جديد بين الطرفين، فأصدرت الاوامر من السلطان بقتل كل من يريد المقاومة من جانب الجيش الصفوي من القرلباش. وعلى اثر سيطرة القوات العثمانية على بغداد والقضاء على المقاومة الصفوية، صدرت الاوامر بالمحافظة على حياة السكان المدنيين، وعدم نهب ممتلكاتهم.

المفاوضات العثمانية - الايرانية
وعقد معاهدة زهاب أو معاهدة قصر شيرين الحدودية:

ترك الصدر الاعظم بغداد في 15 اذار 1639م وبالقرب من شهربان استقبل الصدر الاعظم وفدا ايرانيا برئاسة محمد قولي خان، الذي اجتمع مع الصدر الاعظم في 23 نيسان 1639م غير أن هذا الاجتماع لم يؤد إلى نتيجة، فقرر عقد اجتماع اخر في موضع يقال له قزلرباط.

اثار الصدر الاعظم في هذا الاجتماع مشكلة التحشيدات الصفوية في الحدود الشرقية، وسيطرة الصفوين على بعض القلاع التي تشكل مصدر خطر للدولة العثمانية،

واخيرا اشار الصدر الاعظم على الوفد الصفوي، انسحاب القوات الصفوية من درتنك ودرنة واعتراف الشاه بتبعية قلعة قارص للدولة العثمانية، كشرط اساسي للدخول في مفاوضات للصلح. رجع الوفد الصفوي لعرض وجهة النظر العثماني على الشاه صفي الصفوي، إلا أن الصدر الاعظم ارسل رسالتين الأولى إلى رستم خان قائد الحامية الصفوية في درتنك ودرنة، والثانية إلى الشاه صفي طالبا رد جواب الأولى في ثلاثة ايام، والثانية في ستة ايام. وقد تناهت للصدر الاعظم اخبار انسحاب القوات الصفوية من درتنك، فتقدم الجيش العثماني نحو خانقين وفي موضع يقال له زهاو وصل المندوب الصفوي صاروخان في 14 ايار 1639م حاملا موافقة الشاه صفوي على المطاليب العثمانية واستعداد بلاده لإنهاء الخلافات بين الدولتين.

بدأت الجلسات الصفوية – العثمانية الأولى برئاسة صاروخان والعثمانية برئاسة الصدر الاعظم مصطفى باشا، وبعد مناقشات طويلة تم الاتفاق التام بين الطرفين على انهاء النزاع حول الحدود. بعد تطابق اراء الطرفين حول النقاط المطروحة على بساط البحث، وقع المندوبان على محضر الجلسات في 17 ايار 1639م، وباللغتين التركية والفارسية، ثم جرى التصديق على المعاهدة من قبل الدولتين في السنة نفسها اذ صادق عليها الشاه صفي في 21 ايار 1639 ثم ارسلت للسلطان مراد الرابع فوقعها في 3 حزيران من العام نفسه، واعتبرت المعاهدة نافذة المفعول من تاريخ التوقيع، واستمرت سارية المفعول دون اعتراض من الجانبين لفترة طويلة من الزمن. وقد نصت على تكون بغداد والبصرة والموصل وكردستان الغربية وشهرزور من نصيب الدولة العثمانية، في حين تكون اذربيجان الشرقية وراوندوز وارمينيا الشرقية وبلاد الكرج من نصيب الدولة الصفوية.

إن معاهدة زهاب تعتبر أول معاهدة بين الطرفين بالمعنى الصحيح من حيث اقرار الحدود وتعريفها بشكل واضح، وتأشيرها المناطق العائدة إلى كل جانب ويجدر بنا أن نشير إلى النقاط التالية التي اتسمت بها هذه المعاهدة:

1. امتازت هذه المعاهدة بانها حددت مناطق الحدود الممتدة من الشمال حتى الجنوب بعكس المعاهدات السابقة التي اقتصرت على تحديد جزء معين من الحدود مثل معاهدات 1555م، 1568م، 1590م، 1613م، وهي معاهدات لم تعط تعريفا واضح للحدود بين الدولتين، وكل ما يستفاد منها، بانها كانت توفر حالة من الاستقرار والامن في مناطق معينة من الحدود.
2. المعاهدة اخذت بنظر الاعتبار العامل الطبيعي في رسم الحدود بين الدولتين.
3. فرض الجانب العثماني شروطا معينة لعقد الصلح منها هدم بعض القلاع الواقعة على الحدود، وهذا يعني أن العثمانيين كانوا ينطلقون في مفاوضاتهم مع الجانب الصفوي من منطق القوة.
4. إن معاهدة زهاب كغيرها من المعاهدات التي تعقد بين دولتين اسلاميتين يغلب عليها الطابع الديني، وقد وردت في المقدمة الاية الكريمة ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وفي الخاتمة وردت الاية الكريمة ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ وقد اشار الطرفان في الخاتمة إلى انهما سيلتزمان ببنود المعاهدة، وكل من يخالف هذه المعاهدة سيقع عليه اثم عظيم وانه مسؤول امام الله.
5. شطرت هذه المعاهدة بعض العشائر الكردية مثل عشيرة الجاف، إلى شطرين بحيث بقي قسم منهم في الجانب العثماني واخر في الجانب الصفوي فقد بقيت عشيرة ضياء الدين وهاروني، وهما فرعان من الجاف في الجانب العثماني بينما ظلت بيره وزودى من نفس العشيرة في الجانب الايراني وقد اصبحت هذه العشيرة نتيجة لهذا لتقسيم مصدر متاعب لكلتا الدولتين.
6. اهملت هذه المعاهدة الاشارة إلى طبيعة الحدود بين العراق وايران في المناطق الجنوبية، وبوجه خاص منطقة عربستان التي اصبحت فيما بعد من المناطق المتنازع عليها بين الدولتين العثمانية والصفوية.

7. إن معاهدة زهاب اوجدت بعض الهدوء والاستقرار النسبيين على الحدود بين الدولتين استمر حتى بداية القرن الثامن عشر، ولم يكن الباعث على هذا الهدوء والاستقرار رغبة الفريقين الالتزام ببنود المعاهدة نصا وروحا، بل لانشغالهما بمشاكلهما الداخلية وحروبهما في الجهات الأخرى.
8. نصت المعاهدة على دخول (درتنك ودرنة) في حكومة بغداد مع أن هاتين المنطقتين كانتا ضمن ولاية بغداد، وقد فرط العثمانيون بهما عندما تنازلوا عنهما بموجب معاهدة سراو عام 1618م وان اعادتها تصحيح لحالة غير طبيعية على الحدود.
9. لقد فرط العثمانيون بأراضي عراقية عندما تنازلوا عن مهروان (مهربان وتوابعها) للدولة الصفوية، وهذه المنطقة كانت ضمن ولاية شهرزور، وقد اعترفت الدولة الصفوية بتبعيتها للعراق بموجب معاهدة 1590م.

ـ الاوضاع في العراق بين(1638 ـ 1704):

قبل استعراض اوضاع العراق خلال العهد العثماني الثاني لابد من تبيان الميزات العامة التي امتاز بها الحكم العثماني، وايضاح الظروف السيئة التي عاشها العراق خلال هذا العصر. لقد سببت سنوات الاحتلال الصفوي وحروب الاسترداد العثمانية الكثير من الدمار والخراب في بغداد. وقد تميز تاريخ ولاية بغداد حتى اوائل القرن الثامن عشر بالاضطراب وكثرة تغير الولاة، اذ حكم في الحقبة من 1639-1704 تسعة وثلاثون واليا، لم يترك أي واحد منهم عند عزله أو نقله اثر يذكر باستثناء اربعة قام احدهم ببناء ثلاثة ابراج لسور بغداد وجامع الازبك، وبنى الثاني جامع الخاصكي، وقام الثالث بتطهير نهر الدجيل، اما الرابع فبنى مدرسة بالقرب من جامع القمرية. وقد ساعدت سرعة تغير الولاة على خلق حالة عدم

الاستقرار. ومن المظاهر الاخرى لهذا العهد، كثرة تمردات الانكشارية، واضطراب حالة الامن خارج اسوار المدن وادى ذلك الى نتائج اقتصادية سيئة في الزراعة والتجارة. ورافق ذلك كثرة الاوبئة والفيضانات والقحط التي اسهمت في تعطيل الفعاليات البشرية.

قام مراد الرابع بعد انجاز احتلال بغداد بالتوجه لزيارة مقام الامام الاعظم ثم زار مرقد الامام موسى الكاظم. ومن اجل تنظيم الادارة في بغداد اتخذ السلطان عدة ترتيبات، فعين كوجك حسن اغا الانكشارية واليا على بغداد، كما قرر ترك حامية مؤلفة من 8.000 جندي للمحافظة على بغداد، وعين على قيادتها بكتاش اغا، كتخذا الانكشارية، كما عين سلحدار باشا بمنصب القبودان، أمّا منصب قاضي بغداد فقد عهد به إلى مصطفى التذكره جي، وقيل اسمه تذكر جي موسى افندي. لقد كان هم الباشا الجديد هو ترميم اسوار بغداد التي تهدمت اكثر جوانبها اثناء حصار بغداد بفعل المدفعية العثمانية، والعمل على اعادة السكان الذين التجأوا فزعا إلى اطراف بغداد، غير أن حسن باشا عزل في 4 ايار 1639م، فحل محله درويش محمد باشا، وقد حدثت في الايام الأولى من حكمه اضطرابات عشائرية في منقطة السماوة، إذ قام امير الخزاعل مهنا بن علي بفرض سيطرته على السماوة واطرافها حتى منطقة الجوازر، فبعث درويش محمد باشا كتخداه علي اغا لضربهم، وقد سيطر هذا على هيت ثم توجه إلى السماوة ففرق جموع الثائرين وقتل كثير منهم، وعند رجوعه احتل العرجة التي اصبحت تحت نفوذ والي بغداد. وقد خلف درويش محمد باشا في حكم الولاية عام 1642م، كوجك حسن وللمرة الثانية، وقد قام ببناء ثلاثة ابراج قرب باب الامام الاعظم في المحل المعروف بـ (طابية ذي الفقار)، وشيد جامعا عرف باسم جامع عتيق حسن باشا تمييزا له عن جامع اخر يعرف بهذا الاسم والذي شيده وال بنفس الاسم، وجاء بعد عزل حسن باشا إلى حكم الولاية حسين باشا دللي، الذي كان من مرافقي السلطان مراد الرابع، غير أن حكم الباشا لم يستمر طويلا إذ عزل في عام 1644م بعد حكم دام اقل من ستة اشهر، وبسبب عزله وصول خصمه محمد باشا كوبرلو إلى الصدارة العظمى، وخلفه في حكم بغداد عام 1645م، محمد باشا ال حيدر الذي عزل هو الاخر بعد حكم دام سنة واحدة،

ليخلفه موسى باشا. ويعد النزاع العنيف الذي حدث بين الجيش الانكشاري والقوات المحلية في عهد ابراهيم باشا الذي تسلم حكم الولاية في ايلول 1646م، من الحوادث المهمة، والذي يدل على مدى ضعف سلطة الوالي وعدم انصياع الجيش الانكشاري لأوامره فقد نقم الجيش الانكشاري على ابراهيم باشا الذي اتهم انه يقرب القوات المحلية ويبذر عليهم الاموال، لذا كانوا ينتظرون الفرصة السانحة للتخلص من واليهم الذي يميز بينهم وبين القوات المحلية، وقد وجدوا تلك الفرصة عندما تناهت اخبار وفاة الصدر الاعظم صالح باشا الذي كان اكبر سند لإبراهيم باشا، فقرروا التخلص منه. لقد وجد ابراهيم باشا نفسه امام مأزق خطير، فخصومه في الباب العالي، سيسلكون كل السبل لإزاحته عن منصبه، هذا من جهة والجيش الانكشاري الغاضب عليه من جهة اخرى، لذا قرر مصالحة الانكشارية قبل فوات الاوان، غير أن وصول متسلم ولاية بغداد وهو يحمل فرمان عزله افسد عليه هذا المسعى. لقد رفض ابراهيم باشا مقابلة المتسلم، وقرر الدفاع عن ولايته معتمدا على القوات المحلية التي كانت تأتمر بأوامره، وهنا لجأ احمد اغا التنجي رئيس الانكشارية إلى خطة ذكية، فقد امر بعضا من الجيش الانكشاري الاحاطة بالسراي فذهب بنفسه إلى ابراهيم باشا، واعلمه أن الانكشارية يتهمونه بانه يحاول أن يستبد بحكم بغداد والخروج عن طاعة السلطان العثماني، وعندما انكر الوالي ذلك، طلب منه أن يذهب بنفسه إلى القلعة ليفهم الانكشارية بذلك، فقام الوالي فتوجه إلى القلعة، وعند دخوله القي القبض عليه، فوقع بذلك في الفخ الذي نسبه له احمد اغا التنجي رئيس الانكشارية ولم يستطع الجيش المحلي انقاذ الوالي بالرغم من الهجمات المتكررة على القلعة. يبدو إن هذه الخطة لم تكن من بنات افكار التنجي، وانما كانت من صنع دهاة العاصمة اسطنبول، بدليل أن الميراخور قد وصل إلى بغداد بعد ايام قلائل من القاء القبض على ابراهيم وهو يحمل فرمان اعدام الوالي المعزول، فنفذ به حكم الاعدام. وسرعان ما وصل والي بغداد الجديد موسى باشا السمين الذي كان شخصا مشهورا بالبدانة المفرطة، وكان أول عمل قام به أن أنزل جام غضبه على كل شخص يشك فيه بانه من انصار الوالي المعزول، واضطر كثيرا من سكان بغداد أن يلتجئوا إلى اطراف بغداد مخافة أن يصيبهم غضب الحاكم، لقد دفع هذا التصرف من قبل الوالي السكان إلى

تقديم شكوى إلى الباب العالي، فتشكلت لجنة للتحقيق في الامر، وعندما ثبت صحة ادعاء السكان استدعى موسى باشا إلى الباب العالي ونفذ فيه حكم الاعدام عام 1648م، فخلفه في حكم بغداد احمد باشا الذي لقب بـ (الملك) لسلوكه الحسن وفضائله وزهده في حياته اليومية، وحسن معاملته للناس، وخاصة الفقراء منهم الذين تلقوا كل عناية وحماية من لدنه، ترك احمد باشا حكم بغداد عام 1650م، وارتقى الصدارة العظمى في نفس السنة، وقرر منح بعض الاراضي الاميرية عن طريق الالتزام في ولاية بغداد. ويبدو أن الدافع وراء اتخاذ الصدر الاعظم هذا الاجراء هو عجز الخزينة العثمانية الذي بلغ إلى درجة، أن اضطرت الدولة إلى فرض ضرائب تصاعدية واستيفاء ضرائب سنتين مقدما من الولايات ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة إذ تدهورت القيمة الشرائية للعملة العثمانية. ومعروف أن الاجراء السابق الذي اتخذه الصدر الاعظم بشان منح الاراضي الاميرية عن طريق الالتزام، كان ذو وجهين، الأول انه في صالح الخزينة العثمانية إذ يضمن مورد ثابت لها، أمّا الثاني فقد تضرر الفلاحون منه بسبب جور الملتزمين وقساوتهم في جمع الضرائب والرسوم، لكي يحققوا الارباح التي يبغونها، دون أن يعيروا ادنى التفاته إلى الكوارث الطبيعية التي تحدث بين آونة واخرى والتي تؤثر على كمية المحصول ويجبر الفلاح على ترك قريته في حالة عجزه عن دفع الضرائب والرسوم المفروضة عليه من قبل الملتزم، جاء إلى حكم بغداد سنة 1650م، ارسلان باشا نغاى زادة الذي مات بمرض الزحار بعد حكم دام اقل من ستة اشهر، ولم يكن خلفه حسين باشا احسن حظا منه، إذ مات هو الاخر بالمرض نفسه بعد ستة اشهر أيضاً.

وفي عهد الوالي قره مصطفى باشا الذي قدر له أن يكون واليا على بغداد ثلاث مرات متباينات، زار الرحالة الفرنسي تافرنيه بغداد عام 1652م الذي ذكر أن المدينة ساذجة البناء، لا جمال فيها اللهم إلاَّ إذا استثنينا اسواقها المسقفة، ووجد في المدينة خمسة جوامع، وعشر، خانات بناءها قديم ما عدا اثنين منها ينال المسافرون فيها قسطا من الراحة، وذكر أن تجارة المدينة واسعة ولكن ليست كما كانت في ايام الاحتلال الصفوي، وقدر عدد سكان بغداد بخمسة عشرة الف فقط، وهذا الرقم اقل بكثير مما ذكره المؤرخ الاقتصادي التركي

عمر لطفي بركان الذي قدر عدد سكان بغداد ما بين سنة 1570-1590م استنادا إلى الوثائق العثمانية بـ 39379 الف مسلم عدا البدو الرحل، واليهود والمسيحيين، ويجب أن لا نستغرب من ضالة هذا العدد، فالحروب التي شهدتها بغداد بين الجيوش العثمانية والصفوية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، والكوارث الطبيعية التي حلت بها، اضافة إلى ظلم بعض الولاة، وفي ايلول عام 1653م، جاء إلى حكم بغداد مرتضى باشا بعد أن حكم في ولايتي دمشق وارضروم، وقد عرف بنزعته الدينية واطعامه للفقراء وحبه لهم، وتواضعه مع الناس حتى احيط بهالة من التقديس، وشاعت حوله كثير من الروايات التي كانت تدور حول تواضعه، وقد جاءت نهايته عام 1655معندما اخفق في حملته على البصرة، فجاء من بعده اق محمد باشا (الابيض) عام 1655م الذي حكم سنة واحدة واربعة اشهر، وكان طوال مدة حكمه مريضا غير قادر على إدارة دفة الحكم، فاستغل الانكشارية ضعفه عليه، ولكن الباشا الابيض استطاع أن يستدرج قائدهم المدعو عبدي إلى مجلسه بحجة مصالحته، وعند جلوسه امر جلاده بقطع راسه. لقد اثار عمله هذا نقمة الانكشارية الذين صمموا على اخذ ثار قائدهم، وصادف ذات يوم أن خرج الباشا الابيض لإداء الصلاة في مسجد الامام الاعظم، فتصدى له اثنان من الانكشارية وشهرا بوجهه سيفهما، وتبعهما الكثير من الناس، فاضطر الوالي رغما عنه العودة إلى السراي لاتخاذ ما يلزم لقطع دابر هذه الفوضى، وفي هذه الاثناء وصل مبعوث سلطاني وهو الخاصكي حسين اغا للاطلاع على شؤون الولاية وعندما وجد الحالة المزرية، والفوضى الضاربة في بغداد اخبر السلطان العثماني محمد الرابع (1648-1687م) فاصدر هذا فرمانا خوله بموجبه اعادة الاوضاع إلى سابق مجراها. ولم يجد الخاصكي بدا من عزل محمد باشا الابيض ثم القضاء عليه فيما بعد، جاء الوزير محمد باشا الخاصكي إلى الحكم عام 1656م، والذي اشتهر بنزعته الدينية ورغبته المعروفة في تعمير المساجد واصلاحها، فبنى مكان كنيسة القديس يوسف المتهدمة جامعا يؤمه المسلمون واعلى قبته وبنى له منارة، وجعل طبقاته مقرنصة واتخذ له جدرانا قوية فسمي باسم جامع الخاصكي أو جامع نور سلحدار محمد باشا، وحدثت في عهده ثورة قامت بها بعض العشائر في منطقة الجوازر، فاقتضى الحال إرسال قسم من الانكشارية

لتأديبهم، غير أن فتنة خطيرة نشبت بين افراد الجيش المرسل قبل الوصول إلى الجهة المقصودة فانحل الضبط العسكري وتشتت شمل الجيش الذي بدأ ينسحب نحو بغداد. أمّا الخاصكي فقد ازعجته انباء الانشقاق في صفوف الجيش فاجتمع مع اغا الانكشارية وعرض عليه فكرة منع دخول الجيش المنشق إلى بغداد حتى يسلموا رؤوس الفتنة، فعلى هذا اغلقت ابواب المدينة وخيم الجيش الرابع حول السور ثلاثة ايام، ولكن شيئا حدث قلب الامور راسا على عقب، إذ حدث اتصال سري بين الجيش الراجع وبعض قادة الانكشارية في داخل بغداد والذين سهلوا فتح ابواب المدينة، فاندفع المتمردون إلى داخل المدينة التي اصبحت مسرحا للفوضى والاضطراب، أمّا الخاصكي فقد تسلل سرا إلى الجانب الغربي من بغداد فهرب تاركا بغداد تئن تحت رحمة ثلة من الانكشارية.

لقد حدث انقسام خطير بين الجيش الانكشاري المتمرد بعد هروب الوالي، فانقسموا إلى فريقين، فريق يرى ضرورة مصالحة الوالي وارجاعه إلى منصبه وفريق اخر يرى عكس ذلك واخيرا انتصر راي الفريق الأول وقبض على افراد الفريق الثاني، وتوجهوا إلى الوالي الذي كان في الكاظمية يلتمسون منه العذر عما بدا منهم فرجع الخاصكي وانزل جام غضبه بكبار المحرضين وقطع رواتب الكثير منهم، كما شهد عهد الخاصكي في عام 1656م فيضان مدمر كان أول حادث خطير دون عن غرق بغداد في العهد العثماني الثاني، ففي تلك السنة امطرت السماء امطارا وابلة وزادت مياه دجلة فغطت الزرع وتدفق سيل الماء إلى خندق بغداد العميق وتهدم برج الفتح (بالقرب من باب الطلسم) كما تهدمت ابراج اخرى في عدة اماكن وقد بذل الخاصكي كل ما في وسعه في تشييد ما هدمه الفيضان، وصرف من اجل ذلك اموالا كثيرة وانتهى حكم الخاصكي في منتصف صيف 1659م، وتلاه مرتضى باشا وللمرة الثانية، وكان مرتضى باشا منذ أن ترك بغداد قد ابلى بلاء حسنا في قمع الحركة الانفصالية التي كان يتزعمها اباظة باشا في منطقة الاناضول وقد اشترط عند تعينه حاكما على بغداد القيام بالأعمال التالي:

1. اعادة حفر نهر الدجيل الذي تراكم فيه الغرين.

2. جمع الواردات الرئيسية لخزانة الدولة.

3. إرسال مائتي كيس من الذهب إلى العاصمة مع كمية من البارود.

إن أول عمل قام به مرتضى باشا عند تسلمه الحكم هو جرد الخزينة وسجلاتها، فظهر له أن في ذمة الوالي السابق 600 كيس فاخبر الباب العالي ولما كان الوالي السابق من انصار الصدر الاعظم محمد باشا كوبرولو، فقد خفض المبلغ إلى مائتين وستين كيسا يدفع بإقراض لأجل غير معين. ثم انصرف مرتضى باشا إلى تطهير نهر الدجيل، فاصدر اوامره إلى حكام القرى والضواحي طالبا منهم تقديم العون البشري في تطهير النهر وقد تم تطهيره خلال ثلاثة اشهر وكان لهذا العمل تأثير كبير في بعض النشاط الزراعي، كما قام مرتضى باشا بأجراء اصلاحات مالية جديدة، فقد الغي ما كان يتقاضاه الموظفون والدفتريون من المخصصات السنوية البالغة اكثر من مائة كيس، كما ثبت الوارد والمصروف من الخزينة ودونهما في دفاتر خاصة، وكان هدفه من هذه الاجراءات هو تنفيذ ما وعد به عند استلامه باشوية بغداد، ويظهر انه عجز عن إرسال المبلغ المذكور فعمد على رفع سعر القرش من ثمانين بارة إلى تسعين بارة، فاثقل بذلك كاهل دافعي الضرائب والرسوم، ولكي يتقرب إلى المسؤولين في الباب العالي كان لا ينفك عن إرسال الهدايا إلى كبار رجال الدولة في العاصمة، وجاءت نهايته سنة 1661م حيث عزل عن منصبه ونقل إلى جزيرة كريت ولكنه رفض الاذعان لهذا الامر، واخيرا قتل بأمر السلطان.

جاء إلى حكم بغداد مصطفى باشا قنبور (الاحدب) ثم عزل في عام 1663م، فخلفه مصطفى باشا بمبوغ (القطان) الذي سرعان ما قضى نحبه، فجاء من بعده قره مصطفى باشا في العام نفسه، وفي عهده زار الرحالة الفرنسي ثيفنو بغداد وامضى فيها اسبوعا، وقد ذكر أن المدينة قليلة السكان بالنسبة إلى سعتها، واشار إلى أن الانكشارية يرتكبون الاعمال السيئة، وليس بمقدور قادتهم معاقبتهم، كما جلب انتباهه وجود عدد من المسيحيين في خدمة الباشا، وان بعضهم يعمل في تطبيب الناس بشفقة بالغة. وليس من بين الولاة الذين تعاقبوا على حكم بغداد بعد سنة 1664م، من يستحق الذكر إلاّ عمر باشا الذي جاء إلى حكم بغداد

سنة 1678م، الذي قام بإجراء ترميمات في جامع الاعظم ومرقد الامام أبي يوسف، كما بنى المدرسة العمرية بالقرب من جامع القمرية، وعين لها مدرسين وخصص لها رواتب، وقد قام الوزير ابراهيم باشا الطويل الذي جاء إلى حكم بغداد سنة 1681م بكسر شوكة الانكشارية، عندما نفى فرقة اليساقجية من بغداد، التي كانت مصدر خطر وعبث وفوضى في الولاية.

لقد عانت بغداد كثيرا من سرعة تنقل الولاة من منصبهم، هذا التنقل الذي يخلق نوعا من عدم الاستقرار السياسي، إذ لا يتيح للوالي الفرصة الكافية للتفكير بأحوال ولايته، لذا لم يتسن لكثير من ولاة بغداد القيام بإصلاحات اقتصادية واجتماعية وثقافية، عدا البعض منهم مثل مرتضى باشا الذي اعاد حفر نهر الدجيل، وعمر باشا الذي اجرى تصليحات في بعض المراقد الموجودة في بغداد، بالإضافة إلى سرعة تنقل الولاة، فان الكوارث الطبيعية هي الأخرى كانت تعمل على ايجاد نوع من عدم الاستقرار، ففي عام 1649م، فاض نهر دجلة وكادت أن تغرق بغداد، كما حدث في عام 1693م فيضان مدمر اثر تأثيرا كبيرا على المزروعات التي اتلفت اكثرها، وانتشر في عام 1690م مرض الطاعون في بغداد واطرافها، وفتك بالناس فتكا ذريعا، واضطر بعض السكان النزوح إلى المناطق المجاورة، وانتهزت العشائر هذه الفرصة، فقامت بأعمال النهب والسلب. وقد بلغ التدهور الاقتصادي في العراق درجة بحيث ان علي باشا والي بغداد عام 1703 ارسل في طلب 400 كيس اقجة لدفع رواتب الجند المحليين بسبب عجز خزينة الولاية.

واذا اردنا أن نبحث عن الاسباب الكامنة وراء هذا التبدل السريع في ولاة بغداد، فعلينا أن نبحث عن بعضها في العاصمة العثمانية أولا ثم في الولاية ثانيا ويمكن أن نحدد هذه الاسباب بالنقاط التالية:

1. بعد أن كان حكام الولايات يعينون في بادئ الامر مدى الحياة أو ما دام سلوكهم حسنا، فان القانون الذي سنه السلطان مراد الثالث (1574-1595م)، كان يقضي بعزل حكام الولايات في كل ثلاث سنوات ثم خفضت هذه المدة

في النهاية إلى سنة واحدة، وبالرغم من أن هذه القاعدة لم تكن ثابتة فقد وجد بعض الولاة من حكم اكثر من سنة، إلاّ أن هذا القانون كان له تأثيره السيء على سلوك الولاة.

2. لقد ترتبت نتائج خطيرة على الغاء نظام الدوشرمة، إذ تضاعف عدد المرشحين للوظائف العليا، ورفع من اقدار عدد كبير من الانكشارية الذين لم يتلقوا التدريب الصارم الذي كان يفرض في الايام الأولى، وقد دخل هؤلاء في صراع عنيف فيما بينهم، من اجل الوصول إلى الصدارة، واصبح لكل من هؤلاء انصار وحلفاء لذا كان حكام الولايات، يعيشون تحت عقدة الخوف من مؤامرات منافسيهم. والنتيجة الاخرى التي ترتبت على الغاء الدوشرمة أن اصبح لقب الوزير، يمنح بإسراف بعد أن تضاعف عدد شاغلي الوظائف العليا.

3. الصراع بين القوات المحلية والانكشارية، فكثيرا ما سبب هذا النزاع عزل الوالي أو قتله أو أن الوالي ينقل إلى منصب اعلى.

4. قلة كفاءة بعض الولاة، وجهلهم بأساليب الحكم والادارة وظلمهم للناس وان البعض من هؤلاء الولاة كان مريضا عاجزا عن إدارة دفة الحكم، فضلا عن دور العشائر العربية التي كانت تتباهى بعصيان الحكومة والخروج عليها، يبدو أن كل هذه الاسباب مجتمعة، كانت تعمل على سرعة نقل الولاة، وبالتالي فقدان الامن والاستقرار السياسي في ولاية بغداد.

ـ مقدمات الحكم الذاتي في العراق:

1. أسرة افراسياب في البصرة:

تعرضت الدولة العثمانية منذ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الى كثير من الازمات التي ادت الى تدهور وضعف سيطرتها على المناطق الخاضعة لها، وانعكس هذا الامر على المناطق العراقية ايضا، فازدادت الانتفاضات العشائرية، وتدهورت سلطة الولاة العثمانيين هناك، فدخلت العلاقات العثمانية مع تلك المناطق مرحلة جديدة لاسيما في البصرة، ذلك لان ضعف سلطة الولاة العثمانيين في البصرة قد ادت الى عجزهم عن السيطرة التامة داخل المدينة وخارجها، وفشلهم في درء الاخطار الخارجية التي تعرضت لها وكان حصيلة ذلك كله انحسار النفوذ العثماني عن المنطقة وقيام حكومة محلية في البصرة، ففي عام 1596 اشترى افراسياب البصرة لقاء ثمن بخس ثمانية أكياس رومية (يساوي الكيس الواحد ثلاثة الاف محمدي) على أن لا يقطع الخطبة عن السلطان العثماني، وان يدفع الضريبة السنوية للخزينة العثمانية، ويظهر أن افراسياب كان في وضع اقتصادي مرموق، فاستغل سوء الأوضاع الاقتصادية في البصرة فاقدم على شراء باشوتيها من علي باشا الذي شنق ساعة وصوله إلى الباب العالي. وقد استطاع افراسياب أن يكون اسرة مستقلة بالفعل في البصرة عن الدولة العثمانية، غير أن صلته لم تنقطع عن الباب العالي إذ كان يصرح في رسائله إلى اسطنبول بولائه للسلطان العثماني الذي كان عليه أن يرد على هذه الرسائل بأسلوب ينم عن تقديره لافراسياب. لقد ازدهرت التجارة في عهد افراسياب وفتحت ميناء البصرة للتجارة الاوربية، وفي عام 1623، طلب الشام عباس من افراسياب اعلان تبعيته له وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة، وان يتخذ الازياء الايرانية

ويكون مقابل ذلك واليا على البصرة ولا يقدم شيئا من الضريبة، وله كل ما اراد من صلاحيات محلية، ولكن افراسياب رفض ذلك بشدة، واعلن تمسكه بالبصرة.

لقد كان الشاه مصرا على السيطرة على البصرة لأسباب اقتصادية جوهرية لان البرتغاليين الذين اخرجوا من هرمز عام 1622 نقلوا نشاطهم التجاري إلى البصرة وتحكموا في تجارة القطيف والاحساء فلم يكن طردهم من هرمز في نظر الشاه كافيا، لكي تتركز التجارة الخارجية بيد الايرانيين، ثم أنهم كانوا يفتقرون إلى اسطول بحري يستطيع التحكم في مياه الخليج العربي، فرأوا أن الحصار البري عمل مجد للقضاء على النفوذ البرتغالي في البصرة، لهذا السبب امر الشاه عباس امام قلي خان حاكم شيراز بالتوجه إلى البصرة: "لمعالجة الاوضاع غير الاعتيادية فيها والتي ادت إلى توقف حركة بندر عباس التجارية"، وكان ذلك في عام 1624 غير أن امام قلي خان فشل في السيطرة على البصرة، لان السفن البرتغالية بدأت تطلق النيران على الجيش الفارسي الذي كان يفتقر إلى مثل هذه السفن. لذا قرر إمام قلي خان الهجوم على البصرة مرة ثانية في اذار عام 1625 فزحف أولاً على الحويزة التي هرب حاكمها إلى البصرة مع قواته البالغة خمسين رجلا. لقد كان على حاكم البصرة علي باشا افراسياب الذي اعقب والده عام 1623م، أن يواجه هذا الخطر بمفرده خاصة وان القوات الايرانية كانت تسيطر على بغداد والحلة وكربلاء، فمن الصعوبة على الدولة العثمانية أن تمد يد المساعدة له، ثم انها منهمكة بمشاكلها الداخلية. لذا فقد طلب علي باشا أن يقدم كل بيت رجلا مسلحا لمواجهة الهجوم الصفوي وبالفعل استطاع أن يعبئ البصريون تعبئة كاملة للدفاع عن مدينتهم فقد نجح علي باشا افراسياب في منع الصفويين من العبور إلى الساحل الغربي من شط العرب، بعد أن ثبت بقواته التي كانت تضم قبائل عربية يزيد عددها على سبعمائة شخص مسلح، ثم جرت مصادمات عنيفة بين الطرفين يوم 16 آذار 1625م اشتركت فيها السفن البرتغالية الموجودة في البصرة باعتبار أن الصفويين عدو مشترك للطرفين، غير أن القوات الصفوية انسحبت فجأة في 23 آذار بناء على اوامر مستعجلة من الشاه. لقد كان الرحالة الهولندي بترو دي لا فالا في البصرة في هذه الفترة، ويذكر انه لم يكن

هناك أي خطر حقيقي على البصرة نفسها لان الخنادق والحفر المنتشرة حولها كانت مملوءة بالماء ولا يتوقع أن ينحسر عنها قبل مدة ثلاثة اشهر تقريبا، ثم يذكر أن علي باشا رجع إلى البصرة في 5 نيسان 1625، ويبدو أن سبب بقاء علي باشا خارج المدينة راجع إلى خوفه من أن يكون هذا الانسحاب الفجائي خدعة عسكرية من قبل الصفويين لكي يقوموا بهجوم مباغت على البصرة مرة اخرى.

لقد اخذت الدولة العثمانية تفكر بشكل جاد بالقضاء على امارة افراسياب لاسيما بعد وصول السلطان القوي مراد الرابع لعرش السلطنة الذي كان عازما وضع حد لهذه الاسرة التي اصبحت لها مكانة ممتازة في البصرة، كما انها لم تشارك في حملة السلطان مراد الرابع وقيل أن مراد كان عازما على القضاء على هذه الاسرة اثناء حملته الشهيرة على بغداد غير أن هطول امطار كثيرة هي التي انقذت البصرة من جيوش مراد الرابع. ثم حاولت الدولة العثمانية عام 1640 القضاء على اسرة افراسياب عندما قدم سكان العرجة عريضة إلى والي بغداد درويش يطلبون فيها الانضمام إلى باشوية بغداد بدلا من البقاء تحت حكم علي باشا افراسياب فارسل درويش محمد ثلة من جيشه نجحت في ضم العرجة لدائرة نفوذ باشا بغداد. وفي عام 1645 بدأ علي باشا افراسياب بالتحرش بحدود ولاية بغداد، إذ سيطر على قلعة الزكية الواقعة على الحدود، فبعث موسى باشا الصغير والي بغداد حملة عسكرية سيطرت على القلعة المذكورة واستولت على بعض القرى التابعة للبصرة.

إن قيام علي باشا افراسياب بالتحرش بحدود ولاية بغداد فضلا عن تحسن علاقته مع الدولة الصفوية، كانت تزعج الدولة العثمانية، التي اخذت تتحين الفرص لإزالة هذه الاسرة من الوجود، وقد وجدت تلك الفرصة عندما انفجر الصراع في اسرة افراسياب عام 1653، أمّا سبب هذا الصراع، فالمصادر العثمانية تشير إلى رغبة حسين باشا في التوسع على حساب الاراضي المجاورة ومحاولته في ضم الاحساء تحت حكمه، غير أن هذه الرغبة، كانت تلقى معارضة شديدة من قبل عميه احمد بيك وفتحي بيك المدعومين من قبل العشائرية العربية، وقد استعمل حسين افراسياب خطة بارعة للتخلص من مشاكلهم إذ دعاهم إلى الاجتماع

لغرض تلافي ما حصل، وما أن اجتمعا به حتى القى عليهما القبض ونفاهما الهند، غير أنهما استطاعا الافلات من ايدي الحراس والالتجاء إلى حاكم الاحساء محمد باشا، ومن هناك كتبا إلى مرتضى باشا والي بغداد يخبراه بما فعله بهما حسين باشا افراسياب، فاسرع هذا واخبر الباب العالي الذي اصدر فرمانا بتعيين مرتضى باشا قائدا للحملة الموجهة إلى البصرة.

ارسل مرتضى باشا قبل تحركه كتخذاه رمضان اغا على راس حملة صغيرة كفرقة استطلاعية ثم تبعه هو حتى وصل إلى العرجة، ومنها إلى البصرة، فدخلها دون أية مقاومة لان حسين باشا افراسياب حاول أن يشكل جيشا دفاعيا من الاهليين، غير انه فشل في ذلك، فاضطر الهرب إلى بهبهان. دخل مرتضى باشا البصرة، واستقبل استقبالا رائعا من قبل الاهالي والاعيان والاشراف الذين قدموا ولاءهم له واصبح احمد بك حاكما على البصرة. وقد بدأ مرتضى باشا أولاً بمصادرة اموال حسين باشا واموال ابيه علي باشا واولادهما واحفادهما واودعهما في مكان يقال له (قبان)، وقد دفعه الجشع إلى قتل احمد بيك وفتحي بيك ومصادرة اموالهما. عندما انتشر نبأ اغتيال احمد بك وفتحي بك، هبت العشائر التي كانت تساندهما تهاجم قوات الباشا التي لم تصمد امام هذه الهجمات، التي اتخذت طابع حرب العصابات إذ كانوا يفاجئون هذه القوات ليلا ويلحقون بها خسائر فادحة، متخذين من الاهوار مراكز لانطلاقهم، مما ادى الى انسحاب القوات العثمانية، ويظهر لنا هذا، مدى تعلق سكان البصرة والعشائر بأحمد بك وفتحي بك، وحبهم لهما.

بعد انسحاب مرتضى باشا من البصرة رجع حسين باشا لحكم البصرة من غير ذكر لأية مقاومة ضده من قبل الاهالي وذلك لسوء سياسة مرتضى باشا، ولم يكن من المتوقع أن يترك حسين افراسياب، والي الاحساء محمد باشا دون عقاب والذي كان له دور كبير في تحريض عميه احمد بك وفتحي بك في الخروج عليه، ففي سنة **1664**م استطاع أن يستميل براك رئيس عشيرة بني خالد إلى جانبه واتفق معه على طرد محمد باشا والي الاحساء، لقد استطاع براك أن يسيطر على الاحساء بفضل المساعدة التي تلقاها من حسين افراسياب الذي ارسل جيشا بقيادة امير سلمان، غير أن براك بعد طرده محمد باشا تمرد على حسين افراسياب

ورفض تبعيته له، فقاد حسين باشا افراسياب حملة عسكرية على الاحساء وضمها إلى امارته. اتخذت الدولة العثمانية من تجاوزات حسين افراسياب على الاحساء حجة لتجريد حملة ثانية على امارة افراسياب.

اصدر الباب العالي الفرمانات إلى ولاة ديار بكر ابراهيم باشا والرقة صاري محمد باشا ووالي شهرزور كنعان باشا يأمرهم فيها بالانضمام إلى الحملة التي سيقودها ابراهيم باشا الطويل ضد امارة الفراسيان عام 1665. وقد بلغ عدد افراد الحملة خمسين الف مقاتل اضافة إلى عدد من بيكات الاكراد الذين جاءوا بقواتهم غير النظامية، وقبل تحرك الحملة كتب ابراهيم باشا كتابا إلى حسين باشا افراسياب يطلب فيه الانقياد والطاعة له غير أن حسين باشا رفض ذلك بكل اصرار واتخذ الاستعدادات اللازمة للدفاع عن مدينته بعد أن ارسل عياله وامواله إلى ايران، وتحصن في قلعة القرنة القوية.

تحركت الحملة من بغداد وعيون ابراهيم باشا ترنو إلى الطريق منتظرة وصول خبر استسلام حسين باشا الفراسيان، ولكن هذا الشيء لم يحصل، حتى وصل بالقرب من البصرة وخيم في محل يسمى المنصورية، وقد جرت هناك مناوشات بين القوات العثمانية واتباع حسين افراسياب الذين صمدوا امام هجمات الجيش العثماني الذي كان يحارب في ارض وعرة ذات شعاب كثيرة ووعرة المسالك، يصعب على جيش غير معتاد على القتال في مثل هذه المناطق أن يحرز انتصارا حاسما.

لقد وسع حسين افراسياب دائرة تحركه العسكري، وبدأ يشن هجمات مباغتة على مناطق مختلفة من البصرة، ولم تسلم من هذه الهجمات السفن التجارية التي كانت راسية في شط العرب والتي كانت تقع غنيمة بيد اتباع حسين باشا افراسياب الذين كانوا يعانون من قلة الارزاق.

إن هجمات اتباع حسين باشا افراسياب على السفن التجارية، قد شلت الحياة الاقتصادية داخل البصرة التي اصبحت مسرحا للفوضى والاضطراب بسبب عدم وجود حاكم يدير امرها، فاجتمع الاهلون وكتبوا إلى قائد الجيش العثماني يطلبون فيه إرسال من ينوب عنه في حكم البصرة، فارسل صولاق حسين، الذي ما أن دخل البصرة حتى وجد نفسه في مأزق

خطير إذ حدث انقسام حاد بين التجار والاهالي حول دعوة صولاق حسين إلى حكم المدينة، فضلا عن اتصال محمد بن بداق احد المعارضين لتسليم البصرة الى العثمانيين بحسين باشا افراسياب طالبا معونة عسكرية لقيادة حركة مضادة داخل البصرة فوعده حسين باشا افراسياب بذلك، وبدأ محمد بن بداق بجمع اتباعه القليلين، غير أن حركته أُفشلت بعد ساعات قلائل من قبل التجار والشيوخ المعارضين لحكم اسرة افراسياب، الذين فتكوا بمحمد بن بداق واتباعه وسيطروا على شوارع البصرة ، غير أن هؤلاء الذين استمتعوا بنشوة النصر كانوا قد تركوا ابواب البصرة مفتوحة على مصارعيها، مما فسح المجال امام اتباع حسين باشا القيام بهجوم على مداخل المدينة وقتل كل من يصادفهم ونهب ما يحتاجونه من اموال.

في هذه الفترة كان حسين افراسياب قد تلقى مساعدة من الحويزة، كما انضم اليه عدد من شيوخ العرب الناقمين على حكم العثماني خاصة شيوخ عشائر المنتفك التي كانت تسيطر على ضفتي الفرات حتى القرنة والجزء الاكبر من البطائح، لم يستطع الجيش العثماني خلال ثلاثة اشهر أن يحقق أي نصر على حسين باشا افراسياب الذي تحول من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم خاصة بعد أن أحكم سيطرته على الخطوط الحربية للجيش العثماني المحاصر الذي اصبح هو الاخر محاصرا حصارا نصفيا من قبل العشائر العربية المنتشرة في الاهوار ذات المتاهات والشعاب الكثيرة. لقد مل الجيش العثماني هذا الوضع المزري وانحل الضبط العسكري لدى افراده وهبطت الروح المعنوية إلى درجة أن اقدم ابراهيم باشا والي ديار بكر على فتح باب المفاوضات مع حسين باشا افراسياب دون علم قائد الجيش العثماني، فاتفق الطرفان على شروط بسيطة، مفادها أن تبقى حكومة البصرة بيد الاسرة نفسها، على أن تنقل من حسين إلى ابنه افراسياب، وان يذهب حسين باشا نفسه إلى مكة، وان يرفع إلى السلطان اعتذارا رسميا عما صدر منه، وان يعود محمد باشا إلى حكم الاحساء، وترجع الغنائم إلى السكان، وتدفع الجراية السنوية المترتبة بذمته في الحال إلى الخزينة العثمانية.

بدأت القوات العثمانية بالانسحاب متوجهة نحو بغداد بعد أن تكبدت خسائر فادحة، أمّا حسين باشا افراسياب فقد ارسل يحيى اغا إلى الباب العالي وهو يحمل اعتذاره عما بدا

منه من تصرفات تجاه السلطان، عندما وصل يحيى إلى العاصمة التقى هناك بوفد بصري من اسرة الكواوزة، يضم احمد بن محمود وابراهيم بن علي واشخاصا اخرين، وحصل تواطؤ بين يحيى اغا والوفد البصري على خلع حسين باشا، فعرضوا الامر على السلطان العثماني الذي وافق على خلع حسين باشا افراسياب وتعيين يحيى اغا حاكما على البصرة.

اصدر الباب العالي امرا إلى الوزير قرة مصطفى باشا والي بغداد، لقيادة حملة عسكرية على البصرة 1667، كما امر ولاة ديار بكر ابراهيم باشا ومحافظ شهرزور كنعان باشا ومير ميران الموصل موسى باشا ودلاور باشا أمير الرقة بالالتحاق بقواتهم النظامية بالحملة المذكورة.

لقد ادرك قره مصطفى باشا الاخطاء التي وقع بها ابراهيم باشا، فعمل على تلافيها إذ جهز الحملة بمدافع ضخمة التي كان تأثيرها كبيرا على قوات حسين باشا افراسياب. وقد ترك قره مصطفى باشا بعد أن ارسل مدافعه الثقيلة عن طريق نهر دجلة إلى البصرة - بغداد في 24 تشرين الثاني 1667، فمر بالإسكندرية ثم كربلاء حيث زار قبر الامام الحسين (ع) ثم توجه إلى الحلة ومنها إلى النجف الاشرف حيث زار قبر الامام علي (ع) ثم الرماحية ومنها إلى العرجة حيث عقد هناك اجتماعا حربيا، وبعد مناقشات طويلة استقر الرأي على القيام بهجوم عام ومن جميع الجهات على اتباع حسين باشا افراسياب وبعدها توجه قره مصطفى باشا إلى (كوت معمر)، وهناك جرت مناوشات طفيفة بين الجيش الزاحف والشيخ عثمان رئيس عشائر المنتفك التي تشتت شملها خلال ساعات قلائل، ثم واصلت الحملة زحفها حتى وصلت إلى المنصورية، وهناك عقد اجتماع اخر تقرر فيه أن يقود دلاور باشا حاكم الرقة الجناح الايمن أمّا حاكم الموصل وقائد قواد الانكشارية فعليهم تأمين عبور الجيش إلى الجانب الاخر من شط العرب.

بدأ الجيش العثماني يدك قلعة القرنة الحصينة بوابل من قذائف المدافع التي كانت تحصد اتباع حسين باشا افراسياب حصدا وتلقي الرعب في قلوبهم، ووفق الخطة المرسومة قاد دلاور باشا قائد الجناح الايمن هجوما مباشرا على مواقع اتباع حسين باشا افراسياب والحق بهم خسائر فادحة وغرق كثير منهم عند محاولتهم العبور إلى الجانب الاخر من شط الزكية.

اصبح حسين باشا افراسياب امام الامر الواقع، عندما، اقتربت القوات العثمانية من مقره، فلم يجد من وسيلة غير اللجوء إلى الحويزة، وقد قدر له أن لا يعود إلى البصرة مرة اخرى، هكذا زالت هذه الامارة من الوجود، فأصبحت البصرة تحت السيطرة العثمانية المباشرة، وعين يحيى باشا حاكما عليها، ورابطت فيها حامية عثمانية قدرت بألف وخمسمائة انكشاري اضافة إلى ثلاثة الاف من القوات المحلية.

لعبت امارة افراسياب دورا مهما في الاحداث السياسية المحلية، واصبحت لفترة طويلة مصدر ازعاج وقلق للدولة العثمانية التي كانت عليها أن تتعامل مع هذه الامارة بأسلوب مرن بسبب موقعها الجغرافي القريب من الدولة الصفوية، ويجب أن لا ننسى أن هذه الامارة تدين في بقائها هذه المدة إلى بعدها عن الدولة العثمانية أولاً وانهماك الدولة العثمانية بحروبها مع الدول الاوربية والدولة الصفوية ثانيا، ثم أن طبيعة المنطقة كانت عاملا اخر اطال من عمرها، فكثرة الاهوار والمستنقعات كانت تعرقل نشاط الجيوش العثمانية عند زحفها نحو البصرة، كما أن هذه الامارة قد استفادت من المنافسة التجارية بين الشركات العاملة في البصرة والتي كانت تفضل التعاون مع اسرة محلية تتساهل في القضايا الجمركية بدلا من التوجه إلى الدولة العثمانية.

- علاقة البصرة بالإحساء في ظل حكم ال افراسياب:

لقد رأينا سابقا كيف انتهت المرحلة الاولى من محاولة التوسع العثماني في الخليج العربي عن طريق البصرة بالفشل الكبير، ولكن العثمانيين كانوا ما يزالون يهدفون للتوسع هناك عن طريق البصرة. فعندما انفرد ال افراسياب بالسلطة في البصرة كانت الاحساء من مناطق نفوذ العثمانيين. وقد استمرت في تبعيتها الاسمية لهم. وحتى هذه التبعية الاسمية ما كانت تخلو من تأرجح، فقد حدث ان ايد والي الاحساء محمد باشا ثوار البصرة ضد اميرها حسين افراسياب(1647-1667). الامر الذي دفع افراسياب لإعداد الخطط لمعاقبة والي الاحساء، فاستمال اليه عشائرها وفي مقدمتهم بني خالد بزعامة براك بن عريعر الخالدي، الذي كان يطمع

في الحكم، وقد نجح افراسياب بوساطة جيشه الذي ارسله عام 1664 بقيادة احد امرائه وبمساعدة بني خالد من الاستيلاء على الوضع. ولكن براك تنكر للحلف بعد النصر، واخرج جند البصرة واستقل بالإحساء، الا ان اجبر على الفرار بعد ان وصل اليه جيش افراسياب بقيادة يحيى باشا. ومن الملاحظ ان حكم ال افراسياب في الخليج العربي لم يترك أي اثر يذكر، وهو في حقيقته تحالف مع قوى القبائل في الاحساء اكثر منه حكما اداريا. وقد كان ممثل افراسياب خلاله خاضعا بشكل او باخر لما تفرضه عليه القيم القبلية وسلطات الشيوخ المحليين من تبعات. ورغم ذلك لم يدم حكم ال افراسياب طويلا في الاحساء. وقد حدث ان لجأ محمد باشا الوالي السابق للإحساء الى شريف مكة، ومنه الى بغداد، حيث اخذ من هناك يستنجد بالسلطان، فصدرت الاوامر الى الجيش العثماني بالقضاء على حكم ال افراسياب فتم ذلك عام 1667.

2.عهد حسن باشا واحمد باشا في بغداد:

ـ ولاية حسن باشا(1704ـ1723):

يدخل تاريخ بغداد في دور جديد منذ أن نصب الباب العالي حسن باشا[1] 1704م واليا عليها، فقد كان من اكفا الشخصيات في النواحي السياسية والعسكرية والادارية، وقد حكم مدة تزيد عشرين سنة، كانت مليئة بالأعمال الجليلة والاصلاحات المهمة، لذلك يعتبر عهده نقطة تحول بارزة في تاريخ العراق.

1- ولد حسن باشا في حدود 1657م، في قترين وهي منطقة من مناطق الروميلي من ابوين هما مصطفى بك وفاطمة خاتون، وكان ابوه سباهيا في الجيش العثماني المرابط في قترين وقد شب وترعرع في مدارس السراي وتثقف بثقافتها، وكانت امارات الذكاء والسيرة الحسنة والشجاعة بادية عليه منذ صغيره، مما ادى إلى اعجاب الصدر الاعظم مصطفى باشا به، ثم ادخاله ضمن الافراد المرافقين له وبدا يصحبه في حملاته العسكرية، وقد اظهر حسن باشا في تلك الحملات شجاعة فائقة بالرغم من صغر سنه ثم انضم إلى خدمة البلاط العثماني، فتدرج في عدة مناصب إلى أن انعم عليه السلطان مصطفى الثاني (1695-1703م) رتبة الوزير في سنة 1697م، مع تعيينه حاكما في ولاية قونية، ثم تولى حكم ولاية حلب سنة 1698م، وبقي فيها سنتين حيث نقل إلى ولاية الرها واهم ما قام به في هذه الولاية تأديبه لأعراب المناطق المجاورة والذين كانوا قد عاشوا فسادا في اطرافها، كما شيد فيها دارا جديدة للحكومة، وبعد حكم دام سنتين نقل إلى منصب باشوية ولاية ديار بكر (أمد) سنة 1702م، ومن اعماله المهمة هناك، انه اخضع عشائر الملية من الاكراد لطاعته، ثم نقل إلى ولاية بغداد سنة 1704م.

كان حسن باشا قد قضى شطرا من حياته في الباب العالي وتدرج في عدة مناصب، فهو بلا شك قد وقف عن كثب استخدام الجراكسة الارقاء الذين كانوا يجلبون اطفالا ويدربون تدريبا خاصا ليصبحوا خدما للسلطان العثماني. وعندما تسلم حكم ولاية بغداد كان امام امرين لا ثالث لهما: أمّا أن يحكم كما حكم اسلافه من الباشوات ويترك الامور تجري في طريقها الاعتيادي راضيا من السلطة الاسم فقط، أو يستخدم قوة مرتزقة خاصة به تأتمر بأوامره.

لقد اختار حسن باشا الامر الثاني، وهو استخدام قوة من المرتزقة، وسيلة لإقرار الامن والنظام في ولايته، إذ كان من الصعب عليه أن يستند إلى القوى المحلية بسبب تحكم العصبية القبلية بينها، كما أن الانكشارية اصبحوا إلى اشبه ما تكون بطبقة مدنية تكره الرقابة النظامية والتدريب العسكري الصارم، ادى كل هذا إلى أن يفكر حسن باشا في تكوين جيش من عنصر جديد غير متأثر بمفاسد الانكشارية وهم المماليك الذين اثبتوا جدارة وقابلية في الاضطلاع بالشؤون الجسام، فبدأ بشراء المماليك من اسواق تفليس التابعة لبلاد الكرج والزاخرة بالرقيق الابيض ومن عشائر القوقاز، وقسم هؤلاء إلى جماعات كل جماعة أو فرقة تقيم في ثكنة مخصصة لها ولكل فرقة اسم مثل فرقة (الخاص) و(وكلاء الخزينة)، وبعد أن يبلغوا سن المراهقة كانوا يضعون في مدارس خاصة اسست لغرض تدريبهم وكان نظام الدراسة في هذه المدارس يسير سيرا منتظما، ففي كل مدرسة هناك مؤدب، يقوم بتعليمهم القراءة والكتابة كما كانوا يتلقون تدريبا عسكريا صارما، ودقة اصابة الهدف وركوب الخيل والسباحة في احواض خصيصا لهذا الغرض، وبعد اتمام دراستهم وتدريبهم، كانوا يدخلون في صف (اغوات الداخل) والذين كانوا مرتبين على شكل جماعات فكان منهم الخواص والامناء (أي امناء الصندوق) ورجال المخازن، ولذلك كان بإمكان أي شاب من هؤلاء أن يصبح بعد ترفيعه من صنف لأخر أو من درجة لأخرى شخصية من شخصيات السراي ولم يكن الانتماء إلى هذه المدارس مقتصرا على المماليك فقط بل أن قسما من ابناء الموظفين العراقيين والاتراك كانوا يدخلون فيها أيضاً، ولكن عدد هؤلاء كان قليلا بالقياس إلى عدد

المماليك، ولم يقم وحده بمهمة شراء المماليك، إنما بدأ بعض كبار الموظفين في السراي يشترون المماليك، ويظهر انهم كانوا يستعملونهم لأغراض الخدمة في البيت.

لقد وضع حسن باشا باستخدامه المماليك اساس النظام المملوكي في العراق والذي ابتدأ رسميا بحكم سليمان باشا 1749م واستمر حتى سنة 1831م، فازداد عدد المماليك بسرعة واثبت بعضهم جدارة واخلاصا متفانيا في خدمة سيدهم حتى وصلوا إلى اعلى المناصب في الولاية ومن هؤلاء سليمان اغا الذي اصبح كتخدا احمد باشا (1723-1747م) ابن حسن باشا، وكان احمد باشا يعتمد عليه كثيرا ويثق به إلى درجة انه قد زوجه ابنته عادلة خانم.

قام حسن باشا بإصلاحات مهمة في مرافق الحياة العامة، لم تشهدها ولاية بغداد سابقا، فقد دفعه تدينه الاهتمام بمراقد الائمة والصالحين، فاكثر من تأسيس الجوامع ومنح الاراضي للأغراض الدينية، فقد اعاد تجديد جامع السراي، فاصبح يعرف باسم جامع جديد حسن باشا، كما امر بإجراء ترميمات في مراقد الائمة (عليهم السلام) في الكاظمية وكربلاء والنجف، وعمر الخانات الكائنة في شرقي بغداد وغربيها وشيد خانا جديدا بين النجف وكربلاء لاستراحة زوار العتبات المقدسة، وعين له حراسا لمحافظته، كما دفعه تسامحه أن يسمح بتأسيس دار للبعثة التبشيرية الكرملية في بغداد عام 1721م، ومن اصلاحاته الأخرى المهمة انه الغى بعض الضرائب التي كانت ثقيلة على الناس فقد الغى ضريبة التمغا وضريبة الباج، كما انه الغى العادة العشائرية التي كانت سائدة في بغداد وهي ضرورة دفع جميع اهل المحلة الدية (إذا قتل فيها قتيل جهل قاتله)، وكما اجرى حسن باشا ترميما في جسر التون كوبري، فضلا عن قناطر اخرى بين الموصل وكركوك، وشيد مسناة جديدة لجسر بغداد، وامر بفتح فرع جديد لنهر الحسينية المعروف باسم النهر السليماني.

إن الولاة العثمانيين الذين سبقوا حسن باشا في حكم ولاية بغداد، وقفوا عاجزين امام الهجمات العشائرية على القوافل التجارية وعلى المدن، ولم يتبعوا اية سياسة ايجابية تهدف إلى توطين العشائر، واعمار الاراضي، وانما اتبعوا السياسة التقليدية في توجيه

حملات عسكرية على العشائر الثائرة، والتي كانت ترجع خاسرة في اكثر الاحيان، إلاَّ أن الامر اختلف مع حسن باشا الذي كان مؤهلا لدوره الاصلاحي برصيد غني من الخبرة تراكمت بالخدمة في اجزاء مختلفة من الدولة العثمانية، فقد ادرك أن امن واستقرار العراق يتوقف على حل المشكلة العشائرية أو التخفيف من حدتها، ولم يجد اسلوبا انجح من استخدام القوة لكبح جماح العشائر الثائرة، فبدأ في السنة الأولى من حكمه بحملة على عشائر ال شهوان وال غرير في جنوبي الموصل وانتصر عليهم في موقعة (الخانوقة) وعند رجوعه إلى بغداد عمم منشورا على العشائر العراقية دعاهم فيه إلى ضرورة الانقياد للسلطة، وقد هدد في منشوره بانه سوف يستعمل اقصى درجات العنف والقسوة مع كل عشيرة تحاول العبث بأمن الولاية.

يظهر أن العشائر لم تأخذ بنظر الاعتبار هذا التهديد وحسبته مثل تهديدات الولاة السابقين، إذ ما لبث أن ثارت عشيرة بني لام في شرقي دجلة فجرد عليهم حسن باشا حملة عسكرية وشتت جموعهم، وقد فر قسم منهم إلى خارج البلاد، وفي سنة 1705م، جرد حملة كبيرة على الشيخ سلمان العباسي رئيس عشيرة الخزاعل الذي كان قد اتخذ من الحسكة مقرا له، وبدأ يهاجم القوافل التجارية، وقد لجأ الشيخ سلمان إلى البصرة بمجرد سماعه بتوجه حسن باشا نحوه، وفي سنة 1707م، جرد حملة على عشائر الزبيد في غربي دجلة، وقد قتل حسن باشا كثيرا منهم وقيل انه استعان في ضربهم ببعض العشائر المناوئة للزبيد مثل العبيد وبعض العشائر الكردية، كما وجه حملة كبيرة على الشيخ مغامس شيخ المنتفك الذي كان قد هدد البصرة وواليها خليل باشا، واخذ يهاجم القوافل التجارية، ويفرض الضرائب، وقد عانت البصرة كثيرا من عشائر المنتفك حتى اصبحت خزينة البصرة عاجزة عن دفع رواتب اللواندات، فتوجه حسن باشا على راس جيش كبير نحو البصرة، وعند وصوله القرنة، فر مغامس المانع إلى الحويزة، وقد انعم الباب العالي على حسن باشا بحكم البصرة تكريما وتقديرا لجهوده في القضاء على الشيخ مغامس، فتحولت البصرة إلى مجرد متسلمية تابعة لولاية بغداد سنة 1706م.

ولم تكن جميع حملات حسن باشا على العشائر العربية، وانما قاد بعض الحملات على العشائر الكردية أيضاً، ففي عام 1711م، جرد حملة على عشائر البلباس في شرقي اربيل وانتصر عليهم، كما جرد في عام 1715م، اكبر حملة على القبائل اليزيدية في منطقة سنجار، وبالرغم من ضخامة الحملة إذ ضمت قوات من شهرزور وبعض البيكات الاكراد، واستخدام المدفعية، فقد قاوم اليزيديون حسن باشا اكثر من ثلاث ساعات لانهم كانوا قد حضروا المتاريس واقاموا الطوابي الدفاعية، غير أن حسن باشا استطاع أن يلحق بهم هزيمة في موضع يقال له الخاتونية بالقرب من سنجار وعين محمد الدياب حاكما على سنجار التي اصبحت تابعة إلى ولاية بغداد، وقد عامل حسن باشا الاسرى والنساء والشيوخ واطفال اليزيدية، معاملة حسنة فقد امرهم بالرجوع إلى اماكنهم، وكان هذا دأبه في كل حملاته. ولم تقف حملات حسن باشا على العشائر عند حدود العراق، فنتيجة لحملاته الناجحة على العشائر العراقية، فقد كلفه الباب العالي سنة 1720م بقيادة حملة على العشائر العربية في صحراء حلب، والمعروفة بالعشائر العباسية التي كانت لا تنفك عن القيام بقطع طرق القوافل التجارية، وتجبر التجار على دفع الاتاوات، فاستطاع حسن باشا أن يشتت جموعهم ويقتل كثيرا منهم.

إن حملات حسن باشا تجاه العشائر، كانت مهمة لأنها تضمنت عملية امتصاص وادماج فقد تحولت البصرة إلى متسلمية تابعة إلى بغداد، كما دخلت سنجار وحرير تحت نفوذ حكم بغداد، ثم أن العشائر بدأت تخشى السلطة، وتحس بوجود حكومة قادرة على كسر شوكتها بعد أن كانت تتجاهلها أو تنظر إليها بعين اللامبالاة في السابق، كما أن هذه الحملات الناجحة ادت إلى تأمين سلامة الطرق التجارية من خطر قطاع الطرق واللصوص.

أمّا علاقة حسن باشا بالباب العالي فكانت جيدة تخلو من التوتر إذ بعث هدية إلى السلطان كدليل على ولائه واحترامه له، كما كان السلطان هو الاخر يكن لحسن باشا احتراما وتقديرا فقد بعث له هدية بمناسبة مجيء مولود جديد له، وكان حسن باشا يظهر احترامه وتقديره لموظفي الباب العالي عند قدومهم إلى بغداد، والذين كانوا يعاملون معاملة خاصة

تتضمن المبيت ليلة في الاعظمية ثم التوجه بموكب فخم إلى المدينة في اليوم التالي والنزول في دار الضيافة، وقد كان هذا التقدير في الاستقبال يترك انطباعا حسنا لدى موظفي الدولة، وفي الوقت نفسه تظهر اهمية والي بغداد لدى الجمهور البغدادي الذي كان يقع تحت تأثير هذه المراسيم فيزداد حبه للوالي، كما كان حسن باشا يرسل بانتظام الواردات إلى الباب العالي.

لقد عاش حسن باشا مخلصا للدولة العثمانية حتى اخر رمق من حياته فقد توفي، وهو في طريقه إلى احتلال همدان عن عمر يناهز السادسة والستين، فحملت جثته إلى بغداد ودفن في مقبرة الامام الاعظم، وقد حزن عليه اهل بغداد واقاموا له المأتم في كل مكان لما كان له من الفضائل والمناقب ولما امتاز عهده بالاستقرار والسلام، فخلفه في حكم بغداد ابنه احمد باشا الذي كان لا يقل عنه جدارة في إدارة دفة الحكم.

ـ ولاية احمد باشا:

تعد فترة حكم احمد باشا[1] الذي تولى باشوية بغداد عام 1723،من الفترات المهمة في تاريخ العراق الحديث، إذ شهدت هذه الفترة احتدام الصراع العثماني الايراني على العراق، لذا قضى احمد باشا جزء كبيرا من عهده الطويل في صد التدخلات الخارجية في شؤون العراق.

لقد سار احمد باشا على سياسة والده في استخدام المماليك والاعتماد عليهم في ضرب العشائر العربية والكردية الثائرة التي كانت تستغل انشغال احمد باشا في صد هجمات نادر خان عن بغداد فتخرج عن طاعة الحكومة بل أن احمد باشا اندفع اكثر من والده في

1- ولد احمد باشا في حدود 1685 في جفلكة بالقرب من اسطنبول، ورافق والده في مختلف الوظائف التي اسندت إليه لذلك اهمل تثقيفه فنشأ اميا لا يحسن القراءة والكتابة طوال ايام حياته، غير أن ذكاءه وشخصيته العسكرية قد جعلت من سيرته شيئا كبيرا في تاريخ العراق. جاء احمد مع والده إلى بغداد، وعاش فيها فترة من الزمن ثم عهدت اليه عام 1715م حكم ولاية شهرزور ثم اصبح واليا على قونية عام 1716م وبعدها نقل إلى ولاية حلب عام 1717م، ثم نقل إلى ولاية اورفه عام 1721م ودامت ولايته فيها سنة واحدة حيث نقل بعدها إلى البصرة التي ظل فيها حتى وفاة والده عام 1723م، حين نقل إلى باشوية بغداد.

الاعتماد على المماليك، عندما عمد على نفي بعض الفرق الانكشارية من بغداد، وكان يقصد كما يبدو، من وراء ذلك كسر شوكتهم، وجعلهم كقوة ثانوية لا تأثير لهم على سير الاحداث السياسية في الولاية. وبسبب انشغال احمد باشا بحروبه مع الدولة الايرانية، فلم يتح له الوقت الكافي للقيام بإصلاحات مهمة في ولايته مثلما فعل اباه، ولكنه حذا حذو ابيه في توحيد العراق بأكمله تحت سيطرته، فعين بعض افراد اسرته ومماليكه حكاما على البصرة وشهرزور وكركوك، غير انه لم يستطع أن يمد نفوذه على الموصل، لأنها كانت تحت حكم الاسرة الجليلية.

وكما أن احمد باشا الذي خاض حروبا كثيرة في الدفاع عن ولايته، قد اتهم من قبل خصومه بشتى الاتهامات، فقد قيل انه لم يكن منزها عن الخطأ في علاقاته مع الباب العالي ولم يكن يرسل من الاموال إلاّ قليلا. بل ذهب مناوئيه إلى أبعد من هذا فاتهموه انه كان متواطئا مع نادر شاه، ويريد أن يكون تابعا له كما قيل أن احمد باشا هو الذي تسبب في هجوم الايرانيين على البصرة سنة 1743م بهدف اظهار قوته واهميته و البقاء في الباشوية لفترة اخرى، وكانت هذه هي الوسيلة التي يستطيع بها الحصول على اموال واسلحة من الباب العالي.

ومما يتضح انه ليس لهذه الروايات نصيب من الصحة، فالسلطان العثماني كان بأشد الحاجة إلى شخصية عسكرية محنكة مثل احمد باشا تستطيع منازلة نادر شاه ودفع غائلته، كما انه لو كان يفكر في أن يكون تابعا لنادر شاه لم يكن ذلك بأمر صعب عليه، وخاصة وهو الحاكم على ماردين وبغداد والبصرة وشهرزور، وانه عندما نقل من ولاية بغداد سنة 1734م إلى حلب لم يصدر منه أي عمل يبعث الشك في نفس السلطان، كما تقبل برحابة صدر عندما صدر امر بإعادة تعينه في باشوية بغداد مرة اخرى، فقد ظل مخلصا لدولته حتى اخر لحظة من حياته.

اتبع احمد باشا سياسية شديدة تجاه العشائر لاسيما تلك التي انظمت الى صفوف نادر خان اثناء هجومه على العراق، أو تلك العشائر التي اغتنمت فرصة انشغال حكومة

احمد باشا بصد الخطر الايراني فعاثت بالبلاد فسادا، ومنها عشير شمر التي ساعدت نادر خان مساعدة كبيرة، اذ قام بعض افرادها بدور الادلاء والجواسيس له فكانوا ينقلون له الاخبار يوميا ويطلعونه على كل صغيرة وكبيرة. وقد بدأ احمد باشا بتأديب عشير شمر، ثم اعقبها بعشيرتي قشعم وزبيد. ولم تدم طاعة العشائر الا قليلا ففي العام التالي ارتأت الدولة العثمانية نقل احمد باشا الى ولاية اورفه، ولم يكد الوالي الحازم يغادر بغداد حتى عادت العشائر الى عادتها القديمة. ولم يقتصر الامر على العشائر فقط بل اخذ الانكشاريون يشاغبون ايضا واكثروا من القتل والفوضى في بغداد. وعندما ادركت الدولة العثمانية ان العراق يختلف عن غيره من الولايات العثمانية من حيث كثرة العشائر فيه، وحاجته الى حاكم قوي قادر على قمعها، فأرجعت احمد باشا الى ولاية بغداد. وعندما وصل احمد باشا الى بغداد عام 1736 استقبله الاهالي بفرح عظيم، وقد بدأ مباشرة بتأديب الانكشارية فقتل بعض رؤسائهم، وابعد البعض الاخر منهم، ثم توجه نحو بني لام وتمكن من انهاء تمردهم. وفي عام 1738 ثار سعدون شيخ المنتفك ومعه عشر الاف مقاتل، ونزل في موضع بين النجف والكوفة، وارسل قوة لمحاصرة الحلة، واخرى لمحاصرة البصرة، وقد استمر الشيخ سعدون في حركته زهاء اربع سنوات، واستطاع ان يسيطر على مناطق واسعة من الفرات الاسفل والاوسط، وفرض الاتاوة على المسافرين، ولم يسلم منه حتى وكلاء الشركات الانكليزية والفرنسية في البصرة، غير ان حركته انتهت بمقتله في عام 1741 على اثر معركة بينه وبين الجيش. وفي عام 1747م قاد احمد باشا حملة ضد سليم خان زعيم البابانيين وانتصر عليه وعند عودته توفي في منطقة دللي عباس (ناحية المنصورية) عن عمر يناهز الستون، فدفن في مقبرة الامام الاعظم قرب والده، قد حزن عليه اهل بغداد كحزنهم على ابيه، واقاموا له المأتم، ولم يترك احمد باشا نسلا من الذكور ولكنه كان قد زوج سابقا نائبه سليمان اغا من ابنته عادلة خاتون، وكان هذا مطمح انظار الجمهور البغدادي في استخلاف سيده المتوفي خاصة وانهم خبروه خلال خمس عشرة سنة، اثبت خلالها في ميداني الحرب والسلم انه الاكفأ والاقدر على إدارة شؤون البلاد التي عرف مشكلاتها وحذق اساليب حكمها.

إن أول أجراء لجأت اليه الدولة العثمانية هو فصل البصرة عن باشوية بغداد، ثم اصدرت اوامرها بإجراء تغيرات في حكام الولايات، فأسندت حكم ولاية بغداد إلى الصدر الاسبق ووالي ديار بكر احمد باشا والبصرة إلى احمد باشا الكسرية لي، أمّا سليمان اغا صهر احمد باشا فقد عين واليا على اطنة فرحل إليها ولكن عيونه ظلت ترنو إلى بغداد. يبدو أن قيام الدولة العثمانية بإجراء تغيرات في حكام ثلاث ولايات وفي أن واحد قصد من ورائها اخفاء نيتها في ازاحة المماليك عن مسرح السياسة في بغداد خاصة وان البغداديين كانوا ينظرون إلى سليمان اغا كوال مرتقب لهم، غير أن ابعاد سيدهم عن بغداد جعلهم يثيرون المشاكل والعراقيل بوجه الوالي الجديد كرد فعل لإجراء الباب العالي. وعندما وصل احمد باشا إلى بغداد وجد نفسه امام وضع صعب ازاء الانكشارية الذين ثاروا يطالبون بدفع رواتبهم التي تأخر دفعها، ولما كانت الخزينة خاوية لذا طلب الباشا من الانكشارية مهلة لطلب الاموال من الباب العالي، ولكن هؤلاء سرعان ما هاجموا السراي وبدأوا يطلقون النار على الباشا طيلة النهار، ثم طلب الباشا امهاله مدة شهرين فقط لتلبية طلباتهم، فتظاهروا بالموافقة، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى اطلاق الرصاص مرة اخرى واستمروا على ذلك ثلاثة ايام ثم شنوا هجوما عنيفا على السراي وخربوا المباني المجاورة، وعندما حاول الباشا مفاوضتهم اعلنوا له انهم يكرهونه ويطلبون خروجه من بغداد، وهذا يدل انهم اتخذوا مسالة تأخير دفع رواتبهم وسيلة لتحقيق غايتهم في طرد الباشا الذي لم يجد بدا من الهرب إلى الجانب الايمن من بغداد، وقد اعلن الانكشارية عزله فتولى الولاية وكالة رجب باشا الذي كان في طريقه إلى ايران.

احيط اولي الامر في الباب العالي بما حدث في بغداد، فقامت الدولة العثمانية بإعادة توزيع المناصب من جديد فأسندت ولاية بغداد إلى احمد باشا الكسريه لي والبصرة إلى حسين باشا آل عبد الجليل. جاء الكسريه لي إلى بغداد وهو يحمل شيئا من المال لدفع رواتب الانكشارية بعد أن جمعه من اسطنبول ومن مصادرة املاك احمد باشا المعزول، غير أن الوالي الجديد، ما أن وصل حتى ثار على الانكشارية، وهبت العشائر العراقية لمقاومته

أيضاً، قام احد شيوخ العرب، الذي كان والد زوجة احمد باشا بمهاجمة بغداد ومحاصرتها بالنظر إلى عدم ترشيح سليمان اغا لها، ومن هذا يفهم أن العشائر أيضاً كانت تساند سليمان باشا، فعزل الكسريه لي عن حكم بغداد وجاء بعد محمد باشا الترياكي عام 1748م، وكان سليمان اغا وهو في اطنه يتطلع إلى ولاية بغداد، وقد وجد في تجدد الاضطرابات العشائرية في ولاية البصرة وعجز واليها في توفير الامن والنظام فيها فرصة سانحة لكي يكون قريبا عن هدفه فتعهد للسلطان بتأديب العشائر الثائرة في البصرة، ودفع ما بقي في ذمة سيده احمد باشا من ديون، فقبل طلبه ورقي الى رتبة مير ميران مع رتبة الوزارة، ثم انعم عليه بحكم ولاية البصرة، وعند مروره ببغداد وهو في طريقه إلى تسلم منصبه الجديد حصل سوء تفاهم بينه وبين محمد باشا الترياكي، ويظهر أن السبب في ذلك هو اتصال سليمان اغا باتباعه لتحريضهم لإثارة المشاكل بوجه الباشا العثماني، الذي قدم شكوى إلى الباب العالي ضد سليمان اغا، فعين الباب العالي احد موظفي السراي وهو مصطفى بك لإجراء تحقيق في الموضوع، كان السلطان محمود الأول يوجس خيفة من نوايا سليمان اغا، كما اصدر السلطان اوامره إلى ولاة سيواس وحلب والرقة وديار بكر والموصل ومرعش بالتوجه بقواتهم النظامية نحو بغداد خوفا من استغلال ايران الاوضاع المضطربة في بغداد للقيام بهجوم عليها. لقد كان التحقيق الذي اجراه مصطفى بك في صالح سليمان اغا كما اقترح على الباب العالي اناطة حكم بغداد له، أن موقف المبعوث السلطاني هذا اثار غضب الترياكي الذي عزم على مقاومة دخول سليمان اغا إلى بغداد، أمّا سليمان اغا فقد زحف من البصرة بقواته الخاصة حتى وصل إلى الحسكة (السماوة) وهناك قابل مبعوثا من الترياكي يطلب منه أن من مصلحته العودة إلى ولايته قبل أن يزج نفسه في موقف خطير، غير أن سليمان اغا لم يكترث لهذا الطلب فواصل زحفه حتى وصل الديوانية حيث كان حاكمها علي اغا من الموالين له، وتوجه علي اغا إلى بغداد واخبر الباشا الترياكي عن تقدم سليمان اغا فجمع الباشا جيشا قوامه 1000 شخص فتقابل مع سليمان اغا الذي كان عدد جيشه يقارب 800 شخص في جوار الحلة، لقد استغرب الترياكي من محاولة سليمان اغا مقابلته بهذا العدد القليل من جنده، ولكنه كان غافلا من أن علي اغا خلال زيارته لبغداد قد استمال

جميع رؤساء جيشه إلى جانب سليمان اغا، وكما هو مقرر فقد هجم سليمان اغا بجيشه القليل على الباشا مباشرة، فارغمه على الفرار من ساحة المعركة إلى بغداد فوجد أن ابوابها مغلقة بوجهه، أمّا سليمان اغا فقد توجه نحو بغداد فدخلها وسط مباهج الفرح والانتصار وكتب إلى الباب العالي ما جرى له مع الترياكي فاضطر السلطان أن يوافق -على مضض منه- بتعيينه واليا على بغداد وكان ذلك سنة 1749م وبه ابتدأ رسميا حكم المماليك في العراق.

العلاقات العثمانية ـ الايرانية واثرها على العراق(1639ـ1750):

ـ المرحلة الاولى(1639ـ1733):

اتسمت العلاقات العثمانية-الايرانية منذ عقد معاهدة زهاب عام 1639م بطابع الود والاستقرار على الحدود، ولم تحدث حوادث تعكر صفو الامن بينهما، ويعكس ذلك مدى رغبة الطرفين في ان يجنحا للسلم ويخلدا الى الهدوء والسلام بعد قرن وربع القرن من الحروب والتوتر في العلاقات التي سادت بينهما. ويبدو ان الصفويين كانوا يحرصون على استمرار صفحة العلاقات الحسنة التي فتحت مع الدولة العثمانية بعد معاهدة زهاب عام 1639، وبادلهم العثمانيون التوجه نفسه، ففي عام 1656 ارسل الشاه عباس الثاني(1642-1667) هدايا الى السلطان العثماني ومبعوثا يحمل رسال يطلب فيها الحفاظ على الصلح الذي ابرم بين الدولتين الصفوية والعثمانية، فبادر السلطان بإجابة الطلب وحمل رسوله الذي حمل الجواب الى ايران هدايا الى الشاه. وفي عام 1689 ارسل الايرانيون مبعوثا الى العاصمة العثمانية استنبول للتبريك بجلوس السلطان سليمان الثاني(1678-1691) والتأكيد على قواعد الصلح التي ارستها معاهدة زهاب بينهم وبين

العثمانيين. وقد استمرت هذه العلاقات الحسنة بين الدولتين العثمانية والصفوية حتى اواخر سنوات الربع الاول من القرن الثامن عشر، ففي عام 1717 هاجمت عشيرة الجاف انحاء بغداد وقتلت امير باجلان مع اثنين من رجاله، ولم يتمكن والي بغداد حسن باشا من معاقبة هذه العشيرة لهروبها واحتمائها بالجبال. ولما كانت هذه العشيرة تقطن ايران آنذاك، وتابعة للحكومة الايرانية، كتب حسن باشا الى شاه ايران يشكو له امرها، فبادرت الحكومة الايرانية الى معاقبة بعض خانات الحدود وعزلهم لتهاونهم في منع تجاوز الجاف على الاراضي العثمانية.

غير أن التطورات التي حصلت في ايران في العقد الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، ادت إلى تصدع العلاقات العثمانية-الايرانية، وان هذه التطورات تمثلت في الغزو الافغاني لإيران، ففي نهاية عام 1719 توجه مير محمود بن مير ويس على رأس قوة عسكرية كبيرة تألفت من 11000 مقاتل نحو مدينة سيستان واحتلها، ثم توجه نحو مدينة كرمان واحتلها لمدة تسعة اشهر على الرغم من المقاومة التي ابداها حاكمها علي خان، ثم انسحب منها لمواجهة بعض الاخطار التي هددت مركزه في قندهار. في عام 1722م، ظهرت قوة افغانية ذات تدريب عسكري عال بقيادة مير محمود بن مير ويس الافغاني، الذي توجه بهذه القوات الى يزد المؤدية الى اصفهان، فسقطت في يده، وفتح امامه الطريق المؤدي الى غربي العاصمة، لكنه توقف في كرمان لإعادة تنظيم صفوف قواته والاستيلاء على بعض المعاقل الرئيسة قبل ان يستأنف الزحف نحو العاصمة، فاستولى على فرح اباد بسهولة بعد ان فرت منها الحامية الصفوية. وتجاه هذا التقدم الافغاني ارسل الشاه حسين سفارة الى مير محمود عرضت عليه مبلغا كبيرا من المال لقاء عودته الى افغانستان، فاعتقد الزعيم الافغاني بان الصفويين لم يقدموا على هذه الخطوة الا لانهم عاجزين عن التصدي له ووقف زحفه مما شجعه على التقدم الى اصفهان، وعبثا حاول الصفويون، ايقاف التقدم الافغاني الكاسح إذ انهم منوا بهزيمة كاسحة في موقعة كلناباد في شرقي اصفهان في 8 اذار 1722، فانسحبوا إلى داخل المدينة ففرض مير محمود حصارا قاسيا على اصفهان، استمر فترة طويلة

من الزمن، وقد نجح احد ابناء الشاه حسين وهو طهماسب من اختراق الحصار ليلة 7/ 8 حزيران 1722، متوجها الى قزوين مع 600 رجل على امل تجهيز قوة عسكرية هناك لأنجاد العاصمة المحاصرة. ولكنه اخفق في ذلك وكتب الى ابيه يدعوه للهرب من العاصمة التي كان وضعها يزداد سوءا بسبب الحصار وقلة المؤن، وعانى اهلها الكثير من المجاعة والاوبئة. ولم يكن امام الشاه الصفوي في مثل تلك الحال سوى الاستسلام دون شروط لمير محمود في 12 تشرين الاول 1722، وبعد حوالي اسبوعين من ذلك دخل مير محمود العاصمة حيث توج ملكا في 25 تشرين الاول 1722 من قبل الشاه الذي اقتيد بعدها الى السجن.

ان التطورات التي حدثت في ايران بدءا من الاحتلال الافغاني شجعت جارتيها القويتين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية على استغلال الفرصة والتوسع على حسابها، فالدولة العثمانية كانت تريد تعويض خسائرها في اوروبا، في حين كان قيصر روسيا الشهير بطرس الكبير(1682-1725) يركز جهوده على التوسع في منطقة السهول الواسعة بين البحر الاسود وبحر قزوين، لان السيطرة على هذه المنطقة ستمكن روسيا القيصرية من اقامة طريق تجاري عبر بحر قزوين والسيطرة على البحر الاسود. وكانت روسيا تعد حرية الملاحة في البحر الاسود وحرية الوصول منه الى مياه البحر المتوسط عبر المضائق التركية(البسفور والدردنيل) امرا جوهريا لها لتصبح قوة عظمى.

عندما استقر مير محمود على سدة العرش في ايران، ارسل والي بغداد حسن باشا مبعوثا من قبله الى اصفهان للوقوف بوجه على نواياه تجاه السلطنة العثمانية، فأبدى هذا ولاءه لها وارسل سفيرا من قبله الى والي بغداد وهو محمد صادق خان لتأكيد هذا الولاء والطلب من حسن باشا توفير الدعم العثماني للأفغان، للاستيلاء على جميع الممتلكات الصفوية، فارسل حسن باشا تقريرا مفصلا بذلك الى اسطنبول.

لقد استغل العثمانيون الفوضى التي اعقبت الغزو الافغاني، فاصدر السلطان العثماني امرا إلى حسن باشا والي بغداد بقيادة حملة إلى بلاد ايران، وقد حدد الفرمان السلطاني بعدم

التعرض، للأقاليم التي هي تحت سيطرة مير محمود الافغاني. فتحرك حسن باشا إلى بغداد، بعد أن تجمعت تحت رايته قوات من شهرزور والموصل والبصرة وبعض بيكات الاكراد وعدد من الانكشارية، فتوجه بهم نحو كرمنشاه، وفي 16 تشرين الأول 1723م، سقطت المدينة بيد حسن باشا دون مقاومة، بعد ان خرج اليه حاكمها عبد الباقي خان مع اعيان البلدة وسلم له مفاتيح المدينة، في وقت استطاع عبد الرحمن باشا والي شهرزور، أن يزيح قوة افغانية بقيادة علي مردان خان، الذي حاول التصدي للقوات العثمانية بالقرب من خرم اباد، بعد كرمنشاه سقط اردلان، وفي ربيع عام 1723م تهيأ حسن باشا لاحتلال همدان، غير أن وفاته حالت دون ذلك، فخفى امر موته عن جنده وارسلت جثته إلى بغداد. في الوقت نفسه استغلت روسيا هي الاخرى هذه الفرصة، اذ بدأ بطرس الكبير عملياته العسكرية ضد ايران عام 1722 عندما هبط عن طريق نهر الفولغا على رأس قوة من 22000 واستولى على دربند الواقعة على الساحل الشمالي الغربي من بحر قزوين، واتجه من هناك الى مدينة شماخي للاستيلاء عليها، الا ان مبعوثا عثمانيا وصل الى معسكر بطرس الكبير معلنا احتلال العثمانيين مدينة شماخي ومحذرا الروس من أي تقدم اخر. وتوترت العلاقات بين الطرفين كاد ان يوقع الحرب بينهما ولكن تدخل فرنسا ووساطتها ساعد على التوصل الى تفاهم بينهما، اذ سرعان ما دارت مفاوضات بين الروس والعثمانيين حول تقسيم ايران مقابل اعتراف الدولتين بالشاه طهماسب شاها على فارس، وانتهت بتوقيع معاهدة تقسيم فارس في 24 حزيران 1724 والتي نصت على ان تحتفظ كل واحدة من الدولتين بالأراضي الايرانية التي تستولي عليها، أي تحتفظ روسيا القيصرية بالمناطق الواقعة في سواحل بحر قزوين، اما مناطق بلاد الكرج وشروان وقره باغ واذربيجان فمن نصيب الدولة العثمانية، الامر الذي فتح المجال امام العثمانيين للتوسع على حساب الاراضي الايرانية لاسيما المجاورة منها للأراضي العراقية.

كانت الدولة العثمانية بحاجة ماسة إلى قائد عسكري منحك، يستطيع انقاذ الموقف الذي تردى بعد وفاة حسن باشا، فجاء رد الباب العالي بتعيين احمد باشا ابن حسن باشا

قائدا للحملة العسكرية وواليا على بغداد. توجه احمد باشا بعد أن اقام مراسيم العزاء في بغداد نحو كرمنشاه، وقد تجمعت تحت رايته قوات ضخمة، قدرت بأكثر من 100 الف جندي اضافة إلى 22 مدفع باليمز وثلاثة مدافع هاون و 648 جبه جي، وقبل زحفه نحو همدان ارسل رسولا إليها يطلب التسليم، غير أن اهالي المدينة رفضوا ذلك، فزحف إليها وفرض حصارا شديدا عليها من جميع الجوانب، وقامت المدفعية العثمانية بقصف سور المدينة المنيعة، إلاّ أن تأثيرها كان قليلا بسبب متانة السور، فلجا العثمانيون إلى وضع الغام تحت السور ولكن اهالي المدينة كانوا يبطلون مفعولها بصب الماء عليها، وفي اليوم الثامن والخمسين من الحصار احدثت المدفعية العثمانية فجوة في سور المدينة، اندفع منها الجند إلى الداخل، وقد شهدت المدينة قتالا ضاريا لمدة ثلاثة ايام بلياليها، وانتهى الامر بتسليم المدافعين انفسهم لأحمد باشا في 31 اب 1724م، بعد الاتفاق على شروط الاستسلام التي تضمنت ان تكون همدان ولاية عثمانية وانْ يذكر اسم السلطان العثماني في الصلاة العامة، وعين احمد باشا، قره مصطفى باشا واليا عليها، وقد قوبلت انباء فتح همدان بثناء عظيم في الباب العالي وكتب السلطان إلى احمد باشا يشكره على انتصاره العظيم. وزحف احمد باشا بعد فتح همدان نحو نهاوند التي سقطت دون مقاومة تذكر، ثم اصبحت لورستان تحت السيطرة العثمانية أيضاً، وبعدها عاد احمد باشا إلى بغداد 1725م.

وخلال احتلال القوات العثمانية لكرمنشاه وهمدان، حدثت تطورات خطيرة في العائلة الافغانية، فمير محمود لم يسلك سياسة حسنة مع الافغانيين الذين ذاقوا الامرين من فتكه واسرافه في القتل والاضطهاد، فقد كشف اسرافه في الفتك بالناس عن كونه مجنونا، مما دفع زعماء الافغان إلى عزله واطلاق سراح ابن عمه اشرف خان، وتنصيبه ملكا عليهم في 23 ايار 1725م، وقد بدا اشرف خان يقترب من العائلة الصفوية، إذ قيل انه تزوج ابنة الشاه حسين الصفوي، يبدو أن اشرف خان كان شخصا ذكيا ذا حنكة سياسية ومعرفة بالأساليب الدبلوماسية ودراية بطرق اثارة الراي العام على السلطان العثماني، فبعد اعتلاء العرش ارسل في تشرين الأول 1725م وفدا إلى الباب العالي، وقد عرض الوفد احتجاج اشرف

خان على تلك المعاهدة التي عقدها السلطان العثماني مع دولة مسيحية (روسيا) ضد دولة اسلامية (أي ايران) كما طلب بإعادة جميع المقاطعات التي سيطر عليها العثمانيون في حربهم الاخيرة.

لقد كانت الحجة الافغانية قوية، وذات تأثير فعال على الراي العام في الاستانة والذي وقف إلى جانب اشرف خان، ولم يكن تأثير هذه الحجة قاصرا على الباب العالي، بل أن احمد باشا والي بغداد، عرض على المسؤولين في العاصمة انتشار تأثير الحجة الافغانية في صفوف جيشه فأسرعت الدولة العثمانية إلى اصدار منشور وقع عليه شيخ الإسلام، الذي اجاز محاربة اشرف خان باعتباره مارقا عن الدين الإسلامي. وبناءً على فتوى شيخ الإسلام، كلف السلطان العثماني احمد باشا لقيادة حملة على البلاد الايرانية، وقد تجمعت تحت رايته قوات من ديار بكر وهمدان والبصرة اضافة إلى عدد من امراء البابان حتى بلغ عددهم اكثر من ثمانين الف مقاتل و 70 مدفعا من النوع الكبير وثلاثة مدافع هاون. فتحركت الحملة من بغداد متجهة نحو اصفهان، وبالقرب من المدينة في موضع يقال له نجدان، تقابلا الجيشان العثماني والافغاني الذي كان اقل عدد وعدة، وفي 1 تشرين الثاني 1726م استعد الجيشان لخوض المعركة الحاسمة، غير أن اشرف خان لجا إلى اسلوب الخداع، فارسل عدد من العلماء الافغان، ليسالوا احمد باشا، لماذا الحرب بين حكومتين مسلمتين، وهل أن الشريعة تجيز أن يشهر المسلم السيف على اخيه المسلم، وكان رد احمد باشا بانه يقوم بتنفيذ واجبه كقائد خاضع للسلطان العثماني الذي يجب أن يطاع امره، حدث القتال بين الطرفين في 2 تشرين الثاني سنة 1726م وقد احرز الجيش العثماني في بداية المعركة انتصارا حاسما، ولكن في اليوم الثالث حدث شيء لم يكن بالحسبان، قلب حلاوة النصر إلى مرارة، إذ انسحب فجأة معظم الاكراد من ساحة المعركة التي بدأت تميل لصالح اشرف خان، وقد تكبد الجيش العثماني خسائر فادحة على يد الافغانيين، حتى اضطر إلى التراجع إلى كرمنشاه في حالة يرثى لها تاركا جميع المدافع والامتعة غنيمة بيد اشرف خان. وتشير المصادر العثمانية إلى أن السبب في

انسحاب الاكراد من ساحة المعركة، يعود إلى وعود اشرف خان المعسولة لهم، وانه سوف يترك لهم بعض الاراضي الايرانية في حالة مساعدتهم له، فضلا عن عدم ثقة الأكراد بالحكومة العثمانية. ارسل احمد باشا تقريرا مفصلا الى اسطنبول يشرح فيه وضعه، فارسل اليه الباب العالي يأمره بمواصلة القتال، فزحف مرة اخرى الى اصفهان، وتعرض مير اشرف في غضون ذلك لخطر داخلي تمثل بتنامي قوة الشاه طهماسب الثاني، فاضطر ان يتفاهم مع العثمانيين للحفاظ على قواته من جهة، ومواجهة هذا الخطر من جهة اخرى، فاتصل بأحمد باشا واقترح عليه توقيع اتفاقية صلح بين الجانبين، وبادر بأطلاق سراح الاسرى العثمانيين كدليل على حسن نيته، ويظهر اسفه على ما اصاب الجيش العثماني من اضرار في الارواح والاموال في الحرب الاخيرة. عرض احمد باشا طلب اشرف خان بعقد الصلح مع الدولة العثمانية التي وافقت على ذلك، فوقعت في 3 تشرين الثاني 1727م معاهدة بين الطرفين، تألف من اثنتي عشر مادة وتضمنت المادتان العاشرة والحادية عشر تفصيلات عن المناطق الايرانية التي منحت للدولة العثمانية. ويمكن تلخيص المعاهدة بالنقاط التالية:

1. تبقى الاقاليم التي سيطر عليها الجيش العثماني تحت السيطرة العثمانية، وهي اقاليم ايران الغربية والشمالية الغربية، مقابل احتفاظ اشرف خان بأصفهان، ومناطق وسط ايران وشرقها، واعتراف الدولة العثمانية بحكمه.
2. يعمل العثمانيون على حماية قوافل الحجاج الذاهبة إلى العتبات المقدسة في العراق وايران، وعدم قبول المجرمين أو الفارين لدى كلتا الدولتين.
3. اعترف مير اشرف بتبعيته للدولة العثمانية، وان السلطان العثماني خليفة على المسلمين، واعترف السلطان بأشرف شاها على ايران.
4. تعهد اشرف بإعادة جميع المدافع التي سيطر عليها في الحرب الاخيرة.
5. تدخل الحويزة في اطار الدولة العثمانية.

المرحلة الثانية : حملة نادر خان على العراق عام 1733.

كان ظهور نادر قلي، الذي عرف فيما بعد بنادر شاه، في ايران ايذانا بتحولات عسكرية وسياسية مهمة في المنطقة، عاني منها العراق الكثير. فقد استطاع هذا القائد المغامر الذي ينتمي الى قبيلة افشار التركمانية ان يستغل حالة الفوضى والتمزق التي سادت ايران على اثر الغزو الافغاني والروسي والعثماني، ليوسع نفوذه بصفته زعيما لقبيلته من ناحية، وحاكما على احدى مدن خراسان، فادعى انه يتوسع باسم سيده طهماسب ميرزا المدعي بالعرش الصفوي، فضم خراسان وبلاد الافغان، مما دعا بالشاه طهماسب الى ان يجعله قائدا عاما لقواته ومنحه لقب طهماسب قلي خان أي عبد طهماسب، وتمكن نادر خان من الحاق الهزيمة بقوات الافغانيين التي كان يتزعمها اشرف خان في معركة مهماندوست عام 1725، فتخلى على اثرها الافغان عن العاصمة اصفهان منسحبين الى شيراز، ودخل نادر خان بقواته اصفهان واعلن عودة الحكم الصفوي الى ايران، ثم تحرك لملاحقة القوات الافغانية في جنوبي البلاد حتى عام 1730، ففي ناحية شمال شرق شيراز حدث الصدام المتوقع بين قوات الطرفين، فكان النصر حليفا لنادر خان، وتقهقر الافغان نحو بلادهم الاصلية بعد ان فقدوا معظم قواتهم، وقائدهم اشرف خان نفسه. وبعد هزيمة الافغان وسقوط اصفهان، وجه نادر خان اهتمامه صوب العثمانيين، الذين كانوا يسيطرون على مناطق من غربي ايران، فقام بمهاجمة الحامية العثمانية في نهاوند عام 1730، ثم تقدم واستولى على همذان واردلان وكرمنشاه، وعلى مناطق الشمال وعاصمتها تبريز، كما اجبر طهماسب الثاني على أن يطلب من السلطان العثماني اعادة جميع المقاطعات التي هي تحت السيطرة العثمانية وهدد بالحرب في حالة رفض السلطان ذلك وارسل طهماسب وفدا إلى الباب العالي لغرض عقد صلح بين الدولتين وقد نجح الوفد الايراني في عقد صلح مع الدولة العثمانية، نص على اعادة جميع المقاطعات الايرانية إلى طهماسب الثاني مقابل دفع ايران ما صرفته الدولة العثمانية من اموال عند فتحها هذه الاقاليم، لقد اثار توقيع السلطان احمد الثالث على المعاهدة، السخط والغضب لدى الراي العام العثماني، الذي اتهم السلطان بالضعف

والعجز، وقام الانكشاريون بتمرد على السلطان، اسفر عن خلعه، وتنصيب محمود الأول (1730-1754م)، فقام محمود الأول بإصدار فرمان إلى احمد باشا والي بغداد بقيادة حملة على ايران، يبدو انه قصد من وراء ذلك امتصاص نقمة الراي العام الهائج من جراء توقيع الصلح المذكور، وقد استطاع احمد باشا أن يلحق هزيمة منكرة بالشاه طهماسب في كورجان قرب همدان التي ما لبثت أن سقطت بيد العثمانيين في 18 ايلول 1731م وبعدها سقطت تبريز في 15 تشرين الثاني 1731م، وقد اضطر الشاه طهماسب إلى أن يطلب الصلح من احمد باشا الذي وافق على ذلك، وتنازل بموجب الصلح الذي عقد في 10 كانون الثاني 1732م عن كثير من الاراضي الايرانية لصالح العثمانيين. لقد رفض نادر خان الاعتراف بالصلح، واتخذها حجة لخلع طهماسب الثاني وتنصيب ابنه الطفل عباس الثالث، الذي كان صبيا لا يتجاوز عمره ثمانية اشهر، على أن يكون هو وصيا عليه، وكانت الخطوة التالية هي عقد معاهدة مع روسيا عرفت باسم معاهدة رشت 1732م، وقد امنت هذه المعاهدة حدود ايران الشمالية، بعد هذه الخطوات التفت نادر خان إلى خصومه العثمانيين فبعث برسالة إلى السلطان العثماني يصرح فيها عدم اعترافه بالصلح، كما بعث برسالة اخرى إلى احمد باشا والي بغداد، يخبره بانه سيقود جيشه المظفر الى بغداد.

سارع والي بغداد احمد باشا الى تحصين مواقع الحدود في درنة، ومندلي، وبدرة، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين، ثم اصلح مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد.

تحشدت قوات نادر خان في همدان وتجمع لديه قوة تقدر بـ 100000 مقاتل فسار بهذه القوة الى كرمنشاه ودخلها بسهولة لان حاميتها لم تقو على الصمود، وبعد ان ترك مدافعه الثقيلة وامتعته في ماهي دشت تقدم صوب زهاو وتمكن بسهولة من تدمير قوات احمد باشا باجلان الكردي وتسخير قلعته في زهاو، وبعد هذا الانتصار عبرت قواته الحدود العراقية وانظم الى قواته لطف علي بك نائب حكومة اذربيجان، ودخلت القوات الايرانية الى قلا جولان قرب السليمانية الحالية. واخذت القوات الايرانية تزحف نحو مدن العراق، من عدة جهات عام 1733م بهدف فتح جبهات عسكرية متعددة امام احمد باشا والي بغداد،

فقد توجهت قوة ايرانية باتجاه كركوك-اربيل عن طريق درنه نحو شهرزور، بقيادة لطفي بيك كوسه احمد لو، كما قاد نركز خان حملة باتجاه الموصل، وكان الهدف من ارسال قواته الى كركوك والموصل من اجل قطع اتصالها مع بغداد. وقد اضطرت القوات في محوري كركوك-اربيل والموصل الى التقهقر بعد ان تكبدت خسائر فادحة وقتل قائد القوات المهاجمة للموصل. أمّا نادر خان قد وصل إلى طوز خورماتو، وهناك عقد اجتماعا حربيا مع قادة الجيش الايراني وتقرر في هذا الاجتماع، توزيع الجيش الايراني على الشكل التالي:

1. فرقة عسكرية ترابط في كفري وقره تبه.
2. فرقة عسكرية تتوجه نحو كركوك وترابط فيها.
3. فرقة عسكرية ترابط في داقوق.

بعد هذا الاجتماع، زحف نادر خان نحو بغداد، وفي طريقه هاجم القرى المنتشرة في اطراف طوز خورماتو، وقيل انه امر بإجلاء عشيرة البيات إلى خراسان، ويتحدث احد المعاصرين لهجوم نادر خان على بغداد عن الاعمال الوحشية التي قام بها الجيش الايراني عند احتلاله لكركوك، فقصف القلعة كان يبدأ منذ الصباح الباكر حتى غروب الشمس واستمر الحال هكذا مدة عشرة ايام، حتى استسلمت القلعة، وقد قام جيش نادر بمجزرة فظيعة في القلعة قتلوا كل من صادفهم رجلا كان أو امرأة وبعدها توجهت القوات الايرانية نحو (قوريا) وهي قرية تبعد عن القلعة بمسافة قصيرة، فقتلوا غالب سكانها، واتلفوا مزروعاتهم، ثم توجهت هذه القوات إلى قرية بشير، فوضع السيف في رقاب اهاليها، والذين كانوا نحو الفي نسمة، ولم ينج منهم إلاّ القليل، ممن استطاع الهرب إلى القفر المسمى (براوون)، وكان الجيش الايراني يتلقى اوامره من مقره الكائن في (يوخاري زيوه). أمّا نادر خان، فقد زحف نحو بغداد، وعند وصوله إلى شهربان تصدى له جيش عثماني قوامه 12 الف جندي، غير انه استطاع أن يهزمهم، ثم مر ببهرز ثم إلى بغداد التي اغلقت ابوابها منتظرة مصيرها المجهول.

فرض نادر خان حصارا قاسيا على بغداد، كما بعث بقواته نحو سامراء والكاظمية في 3 كانون الأول 1733م، وقد استعان نادر خان بمهندس اوروبي كان يرافق حملته في انشاء

جسر عائم من جذوع النخيل، على بعد عدة اميال من شمال بغداد، وذلك لتمكين القوات الايرانية من العبور الى الجانب الغربي من نهر دجلة، اذ امر احمد باشا سكان جانب الغربي بالانسحاب العام إلى الجانب الشرقي، ليكونوا في حماية سورها المنيع، وقد صحب هذا الانتقال هلاك كثير من الناس من جراء الازدحام، خاصة الشيوخ والاطفال. وفي اثناء ذلك قامت ارتال من القوات الايرانية قد بعثها نادر خان باحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة(الديوانية).

قد عمت المجاعة بغداد حتى اضطر الناس إلى اكل الحيوانات الميتة وامتصاص دمائها ومضغ جلودها. ارسل نادر خان إلى علماء بغداد، مفتي الجيوش الايرانية، ومعه رسالة يقول فيها بانه يحملهم ما يجري للناس من مجاعة وهلاك ويطلب منهم الاستسلام. وهنا لجأ احمد باشا إلى خطة رائعة، بان جمع كل الخبز الموجود في بغداد، وعرضه على الوفد الايراني الذي اعتقد أن كل الاشاعات عن مجاعة بغداد هي مختلفة وغير صحيحة، إلاّ أن هذه المداعبات، لم تكن لتخفف من ازمة المجاعة الشاملة التي تعيشها بغداد، وتداعي معنويات البعض الخائف من المستقبل، خاصة وان نادر خان كان يرسل بعض الارتال من جيشه الاصلي إلى اطراف بغداد ثم يأمرها بالعودة، لكي يوهم اهل بغداد، بوصول نجدات عسكرية جديدة له وعلى هذا فلم يكن من المستغرب أن يتسلل بعض اتباع احمد باشا إلى جيش نادر خان في الليل بالرغم من محاولات احمد باشا لرفع معنوياتهم عن طريق منشوراته بقرب وصول امدادات عسكرية من الباب العالي. لقد دام حصار بغداد سبعة اشهر، ولولا صمود السكان وحنكة احمد باشا العسكرية، وشجاعته الفائقة لكانت بغداد في قبضة نادر خان، إلاّ انه استطاع أن يصمد للحصار القاسي، لحين وصول طوبال عثمان على راس جيش كبير لإنقاذ بغداد من نادر خان.

كلفت الدولة العثمانية طوبال عثمان باشا (أي عثمان الاعرج) قيادة الجيش نحو بغداد، واعطائه صلاحيات غير محدودة، فتجمعت تحت رايته قوات ضخمة اختلفت المصادر في تحديد عددها.

سلك طريق ديار بكر - الموصل ثم كركوك، واستغرق مسيره ستة اشهر، وربما يعود السبب في تأخره إلى جهله بالموقف الحرج في بغداد، ومن كركوك بعث برسالة احمد باشا يخبره بوصوله، وعندما قرا احمد باشا رسالة الاعرج، لم يصدقه جنده حتى اضطر إلى عرض ختم وتوقيع القائد الاعرج. وقد تسلم طوبال عثمان في كركوك رسالة من نادر خان تمنى فيها له رحلة سريعة نحو حتفه، وهدده بانه سيقبض عليه، كما يقبض على الطفل في مهده، ثم ارسل له رسالة اخرى لا تختلف كثيرا عن الاولى. سلك طوبال عثمان في سيره طريق كركوك-بغداد، وقد عمد القائد العثماني الى تتبع تحركات نادر خان عن كثب بوساطة جواسيسه الذين كانوا يراقبون التحركات العسكرية لجيش نادره شاه ويوافونه باخر المعلومات الاستخبارية. فقد وصلت اخر الاخبار العسكرية لطوبال عثمان بان نادر خان قد ترك في بغداد اثني عشر الف جندي وتوجه نحو غربها، فاسرع طوبال عثمان الى السيطرة على موارد الماء في دجلة والتمركز حولها منتظرا وصول نادر خان. وفي صباح يوم 18 تموز 1733 اصبح الجيشان العثماني-الايراني وجها لوجه في موضع بالقرب من الدجيل، وفي اليوم التالي اندلعت معركة عنيفة، احرز في بدايتها نادر خان انتصارا ساحقا على الجيش العثماني الذي بدأ يتقهقر ويتراجع نحو الخلف، تاركا بعض المدافع غنيمة لنادر خان، ومما زاد من سوء وضع الجيش العثماني انسحاب بعض بيكات الاكراد من ساحة المعركة، فاصبح الجناح الايمن للجيش العثماني مكشوفا للجيش الايراني الذي ركز هجومه عليه، ازاء هذه الحالة اضطر طوبال عثمان إلى استدعاء جيشه الاحتياطي المؤلف من عشرين الف جندي، وزج بهم في ساحة المعركة التي بدأت تميل في صالح العثمانيين، لقد كان الجيشان يحاربان في ظروف جوية صعبة، من تصاعد الغابر الكثيف في اجواء المعركة، واشعة الشمس المحرقة، اضافة إلى ذلك أن الجيش الايراني كان يحارب في حالة عطش شديد بسبب سيطرة الجيش العثماني على موارد الماء، وقد سقط نادر خان مرتين من جواده، وهرب لوائه من ساحة المعركة لاعتقاده أن نادر قد قتل. بعد تسع ساعات من الحرب العنيفة، لاحت بوادر الهزيمة في الجانب الايراني، وقد فر نادر خان من ساحة المعركة

مجروحا، بعد أن ترك جثث قتلاه في ميدان القتال، إذ بلغت خسائره اكثر من ثلاثة الاف قتيل حسبما تشير إلى ذلك المصادر الايرانية نفسها. أمّا المصادر العثمانية فتبالغ في تقدير عدد القتلى، فتوصل هذا العدد إلى خمسة عشر الف قتيل، وبعضها 30 الف قتيل، والسبب في مبالغة هذه المصادر يرجع إلى مفاخرة مؤرخي الدولة العثمانية بأنزال ضربة قاصمة بخصمهم نادر خان. وفي اللحظة التي سمع بها احمد باشا بانتصار طوبال عثمان على خصمه، اندفع نحو الحامية المحاصرة لبغداد، فقتل الكثير منهم، وفر الباقون نحو ايران تاركين جميع معداتهم غنيمة لأحمد باشا. لقد رجع طوبال عثمان إلى بغداد، ودخلها بدون ابهة وحاشية واستقبله الاهالي استقبالا رائعا، وتوافد عليه الاهلون ويظهرون فرحهم على زوال خطر نادر خان عنهم، وغادر بغداد متوجها إلى كركوك، وقيل أن احمد باشا هو الذي عرض عليه مغادرة بغداد، لقلة المؤن عنده.

إن هزيمة نادر خان، كان من المؤكد ستؤثر على سمعته أولاً كقائد عسكري محنك، ويفقد نادر خان تلك الشعبية التي يتمتع بها بين الايرانيين ثانيا، غير انه عمل كل ما في وسعه على اعطاء صفة شرعية لهزيمته، معزيا ذلك إلى انها (مشيئة الله) يجب أن تقع، كما دفع لكل جندي فقد حصانه عشرة تومانات، وبعد ثلاثة اشهر من هزيمته امام طوبال عثمان، اصبح نادر خان مستعدا للحرب من جديد بجيش اقوى من السابق ومجهز بأحدث الاسلحة وبإعداد تفوق ما كانت عليه في السابق، بهذا الجيش زحف نادر خان من همدان في 2 تشرين الأول 1733م متوجها نحو العراق، وقد تصدى له قرب زهاب جيش عثماني قوامه عشرين الف مقاتل بقيادة ممش باشا إلاّ انه استطاع أن يهزمه ثم توجه إلى منطقة سليمان بك ومنها إلى كركوك حيث يمكث خصمه طوبال عثمان.

لكن نادر خان لم يتعرض لخصمه، بل زحف نحو سورداش كما ارسل بعض القوات نحو اق دربند في محاولة لجر طوبال عثمان الخروج من كركوك، وفي الوقت نفسه ارسل نادر خان، محمد خان قاجار على راس جيش كبير لفرض الحصار على بغداد التي كانت لا تزال تئن تحت المجاعة. لقد قرر طوبال عثمان خوض المعركة غير المتكافئة، وعند سهل

ليلان جنوبي شرقي كركوك التقت القوات العثمانية بالصفوية في 24 تشرين الاول 1733، ودارت معركة عنيفة عند مضيق اق دربند ، بالرغم من أن الجيش العثماني كان قليلا قياسا إلى جيش نادر خان، فقد استطاع أن يحرز في بداية المعركة بعض الانتصار، غير أن الخيالة الفرس استطاعوا التوغل إلى عمق الجيش العثماني، مما اضطر القائد الاعرج أن يترك مكانه، ويمتطي جواده ليصد هجوم الجيش الايراني إلاّ انه سرعان ما سقط من جوداه وخر صريعا في ساحة المعركة ثم استسلم بقية الجيش العثماني لنادر خان. إن مقتل طوبال عثمان، بهذه الصورة المؤلمة، لا ترجع إلى اخطاء من الرجل نفسه وانما انعكست مساوئ الباب العالي على الموقف. وان من اسباب هزيمة طوبال عثمان في هذه المعركة مع نادر خان هو نتيجة انتصار عثمان في النزاع الأول مع نادر خان فقام بتسريح الكثير من جنده مما جعل الميزان العسكري يميل إلى جانب الايرانيين فضلا عن مرض طوبال عثمان الذي طلب من الباب العالي اعفاءه من قيادة هذه الحملة، كل هذه العوامل جعلت المعركة غير متكافئة بين الطرفين لا من حيث العدد ولا العدة.

لقد احتل الايرانيين بعد معركة ليلان شهرزور ودرنه وكركوك أمّا نادر خان فقد طلب من بعض قواته المرابطة في سامراء بقيادة حاكم لورستان بابا خان بالاستيلاء على المدن المهمة في جنوب العراق مثل الحلة والنجف وكربلاء من اجل منع ايصال التموينات الى القوات العثمانية المتبعثرة بعد هزيمتها. ثم توجه نحو بغداد التي توقعت عودته إليها، وكانت الاوضاع فيها ليست جيدة اذ ما ان وصل نبأ مقتل عثمان باشا طوبال اليها حتى ساد الهلع فيها، وارتفعت اسعار المواد الغذائية.

اما احمد باشا فقد سارع بترميم اسوار بغداد وتحصينها، ولم يسمح للهاربين من جيش طوبال عثمان الدخول إلى بغداد، كما اصدر احمد باشا اوامره بالسماح لكل من يرغب ترك بغداد واللجوء إلى الاطراف، وبعث هو بعائلته إلى البصرة.

كان والي بغداد الذي ادرك صعوبة مقاومة القوات الايرانية قد قرر الدخول في مع نادر خان مفاوضات في كانون الاول 1733، مع ذلك بدا حصار الاخير لبغداد في كانون

الثاني 1734م، غير أن هذا الحصار لم يدم طويلا إذ اضطر نادر خان إلى رفع الحصار بسبب حدوث تمرد في شيراز بقيادة محمد تقي بلوش، فتم استئناف المفاوضات التي انتهت باتفاق بين الطرفين على صلح يتضمن نقاط لا تخرج عن الاعتراف بالحدود التي رسمت بموجب معاهدة زهاب 1639م، والتسريح العام للأسرى من الطرفين، اضافة إلى تسهيل مهمة الحجاج الايرانيين للعتبات المقدسة.

ان معاهدة الصلح هذه لم تحظ بتصديق الحكومة العثمانية في اسطنبول مما ادى الى تجدد الحرب بين الطرفين لاسيما وان نادر خان استطاع ان يقضي على الاضطرابات في ايران، وقد نجح نادر خان الحاق هزيمة اخرى بالجيش العثماني قرب قارص في 18 حزيران 1735، ونجح في الاستيلاء على تفليس وكنجه ويريفان. كما ارسل قوة للسيطرة على البصرة بقيادة لطيف خان قائد الاسطول الايراني، الذي استطاع الدخول إلى شط العرب على راس اسطول صغير يتألف من ثلاث سفن كبيرة من نوع الغراب، و 50 سفينة صغيرة من صنف الترانكي، وعدد من الزوارق، كما اصدر اوامره إلى 8000 جندي ايراني بالزحف عن طريق البر لمساعدة الاسطول الايراني في احتلال البصرة، غير أن قائد الاسطول الايراني قام بالزحف نحو البصرة قبل وصول القوات الايرانية البرية، وعندما علم متسلم البصرة، بأمر توجه الاسطول الايراني نحو البصرة، طلب من مقيم شركة الهند الشرقية الانكليزية مارتن فرينج، وضع السفينتين العائدتين إلى الشركة وهما رويل جورج ودين، تحت تصرفه، وعندما رفض المقيم طلبه، استولى المتسلم عنوة على السفينتين وامر مائتي من الجنود لامتطائها والتوجه لملاقاة لطيف خان واستطاع المتسلم عن طريق السفينتين مواجهة الاسطول الايراني في منطقة ضيقة من شط العرب واستمر تبادل اطلاق النار ثلاثة ايام، اضطر الاسطول الايراني في الاخير إلى الانسحاب.

لقد اعقب انسحاب نادر خان من البصرة الى توقيع معاهدة القسطنطينية في 17 تشرين الاول 1736 بين الدولة العثمانية وايران بقيادة عاهلها الجديد نادر شاه الذي توج شاها لإيران في 18 شباط 1736. وقد اقرت المعاهدة حدود عام 1639 بين الدولتين

ونصت على تبادل السفراء بينهما، وكان ذلك لأول مرة، فضلا عن امتيازات حصلت عليها ايران بشأن زوارها الى العتبات المقدسة، وحقها في تعيين امير للحج، وتبادل الاسرى.

المرحلة الثالثة: حملة نادر شاه على العراق عام 1743.

اصبح العراق في مأمن من خطر نادر شاه بعد عام 1736م لانشغاله في قمع المعارضة الداخلية، ولقيادته حملته المشهورة على الهند في عام 1738م. وفي عام 1741م، تقدم نادر بطلبات إلى الدولة العثمانية تضمنت حرية التجارة التامة، ولأكساء الكعبة الشريفة من قبله، وعدم بيع وشراء الاسرى من كلا الطرفين، غير أن الدولة العثمانية رفضت هذه الطلبات، فاتخذ نادر شاه هذا الرفض حجة لهجومه الثالث على العراق.

في تموز عام 1743م بدأت القوات الايرانية التي تقدر بـ 170000 جندي تتجه نحو الاراضي العراقية عن طريق محور كركوك-اربيل، وقد سيطرت هذه القوات على قسم من شهرزور ودرنه ومندلي، كما قامت في الوقت نفسه قوات ايرانية اخرى بالهجوم على ارضروم بهدف اشغال الدولة العثمانية بالحرب على جهتين، وقد وصلت إلى مسامع احمد باشا والي بغداد اخبار عبور القوات الايرانية حدود العراق الشرقية، فبذل كل ما في وسعه تموين بغداد وترميم اسوارها وسد الثغرات فيها، غير أن نادر لم يتعرض هذه المرة إلى بغداد وانما توجه نحو شمال العراق وذلك لرغبته في قطع طرق المواصلات العثمانية في شمال العراق، فالقوات العثمانية في جميع حملاتها كانت تنطلق من الموصل وتتجه نحو بغداد، فسيطرته على الموصل تعني أن بغداد والبصرة اصبحت في متناول يده، وعلى هذا الاساس زحف نادر شاه نحو شمال العراق. فتوجه نادر شاه نحو كركوك وفرض حصارا شديدا على قلعتها، وبدأت المدفعية الايرانية تقصفها وبشكل مركز، واستمر القصف لمدة يومين، استسلمت المدينة بعد هروب حاكمها حسين باشا جمال اوغلي، وقامت القوات الايرانية بمجزرة رهيبة في القلعة. ومن كركوك بعث نادر شاه بواسطة حسن افندي قاضي كركوك ومعه اثنين من اعيان المدينة وهما محمد افندي ومصطفى اغا، برسالة إلى والي الموصل

حسين باشا الجليلي والى مفتي الموصل يحيى افندي، وقد ذكر في رسالته فتوحاته في الهند والحاقه الهزيمة بالعثمانيين. كما طالب في رسالته الاستسلام قبل فوات الاوان، ثم توجه نادر شاه نحو اربيل، وفرض حصارا عليها، وما لبثت أن سقطت هي الأخرى بعد حصار دام اربع ساعات، وفي اربيل تسلم نادر شاه جواب حسن باشا الجليلي والي الموصل، وقد ذكر الجليلي في رسالته أن الموصل مستعدة لرد كيد كل محتل اجنبي، وتوجه نادر شاه من اربيل نحو الموصل، وقبل تحركه ارسل احد رجاله مرة اخرى إلى حسين باشا الجليلي يطلب منه التسليم إلاّ أن الجليلي رفض ذلك بكل اباء، واعاد قوله أن الموصل مستعدة لرد كل اجنبي وانهم مستعدون لملاقاتهم، وقد اغضب هذا الرد نادر شاه الذي عزم على فرض سيطرته على مدينة الموصل.

كانت اخبار دخول القوات الايرانية الاراضي العراقية، قد تسربت إلى الموصل قبل وصول نادر شاه إلى كركوك، وقد يكون ذلك التسرب عن طريق القوافل التجارية التي تسلك طريق بغداد – الموصل، وعند وصول رسالة نادر شاه إلى اهل الموصل جمع حسين باشا الجليلي الموصليين عند الجامع الاحمر، وفي اجتماع تاريخي حافل قرأ عليهم نص رسالة نادر شاه، فتعالت الاصوات من كل جانب طالبة التمسك بالمدينة والدفاع عنها حتى الرمق الاخير، كما انهم اكدوا للباشا الجليلي عزمهم على خوض غمرات الاخطار والمهالك في سبيل انقاذ الموصل من غائلة المحتل الاجنبي واقسموا امام واليهم، بانهم سوف يقومون بقتل جميع النساء كيلا يقعن بيد الايرانيين إذا ما انتصر عليهم نادر شاه.

بذل حسين باشا الجليلي كل ما في وسعه لترميم سور المدينة وسد الثغرات فيه وتحصين القلاع وتعميق الخندق حتى بادر إلى نقل التراب بنفسه، كما اصدر اوامره إلى سكان الاطراف، بالتوجه إلى داخل الموصل للاحتماء بأسوارها المنيعة خوفا من تعرض نادر شاه لهم.

في 15 تموز 1743م، ظهرت قوات ايرانية تقدر بحوالي عشرة الاف جندي في الجهة الشرقية من الموصل، فارسل حسين باشا الجليلي اخاه عبد الفتاح بك على راس جيش كبير

لاعتراض سبيل الجيش الايراني الزاحف، إلاّ أن الايرانيين استطاعوا أن يكبدوا جيش عبد الفتاح بك خسائر فادحة، فاضطر أن يرجع إلى الموصل التي اغلقت ابوابها منتظرة مصيرها المجهول، كما تعرض الجيش الايراني لقوات عثمانية جاءت من حلب بقيادة واليها حسين باشا القازوقجي لمساعدة الموصليين. وفي 10 ايلول 1743 وصلت قوات ايرانية الى قرية يارمجة شرقي دجلة على بعد زهاء خمسة كيلومترات عن مدينة الموصل، فاسرع الوالي حسين باشا الجليلي بإرسال ثلة من الخيالة يقدر عددها بثمانمائة مقاتل للتصدي لها، وبعد قتال عنيف، تمكنت هذه القوة من الانسحاب الى المدينة بالرغم من محاولة الايرانيين قطع طريق عودتها. وفي 26 ايلول 1743م، وصل نادر شاه إلى مشارف الموصل بجيش قوامه 150 الف جندي، وخيم في يارمجة، وهي قرية بالقرب من الموصل، واتخذها مقرا له، وبعد ثلاثة ايام نصب نادر شاه جسرا على نهر دجلة لعبور قواته إلى جانب المدينة، وامر ببناء اثني عشر برجا من الاحجار في قبالة ابراج المدينة ووزع على هذه الابراج مدافعه الضخمة. وفي 28 ايلول 1743م، بدأت المدفعية الايرانية تقصف المدينة وبشكل مكثف، لقد استمر القصف مدة ثلاثة ايام بدون انقطاع، إلاّ أن هذا القصف العنيف والمركز لم يثن عزم المدافعين الذين كانوا يباغتون جيش نادر شاه ليلا ويلحقون به خسائر فادحة.

رأى نادر شاه أن قصف المدينة من كل الجهات، لا يجدي نفعا، فعمد على تغيير خطة القصف، فامر بقصف المدينة من جانب واحد، بهدف احداث ثغرة في سورها، فبدأت المدفعية، توجه نيرانها على برج باش طابية الشمالي والذي كان مقرا لحسين باشا الجليلي، الذي اضطر إلى ترك مقره، والتوجه إلى السراي، لقد ادى القصف الشديد إلى تصدع جدران البرج، وفتح ثغرة واسعة في السور، تمكن بعض الخيالة الإيرانيين من الاندفاع منها إلى الداخل إلاّ أن المحاصرين كانوا يطلقون النار عليهم، فيردونهم إلى اعقابهم، وقد استطاع الموصليون بناء ما تهدم من السور، كما اقاموا حائطا ضخما خلف الثغرة مباشرة واوصلوها بالسور، بل انهم استطاعوا في احدى الليالي أن يسرقوا مقر قيادة الايرانيين ويأتوا بالغنائم إلى الخندق الذي كان خاليا من الماء حيث القى لهم اصحابهم الحبال وتسلقوا بها إلى اعلى

السور. امر نادر شاه بقصف المدينة ومن جميع الجاهات مرة اخرى، ولمدة خمسة ايام بدون انقطاع، حتى قدر ما القى على المدينة من قنابل بأربعين الف قنبلة ومائة الف قذيفة هاون، إلاَّ أن تأثير هذه القنابل كان قليلا، لان مفعولها كان يبطل بفعل ابار الخندق القائمة خلف السور، أو انها تنفجر في الهواء وبعضها تسقط بين البيوت دون أن تنفجر، فيلجأ الموصليون إلى جمعها واستعمالها مرة اخرى ضد الجيش الايراني. لقد ادرك نادر شاه أن المدينة لن تسقط بسهولة، فلجا إلى خطة عسكرية اخرى، وذلك باستغلال عامل الزمن لصالحه عن طريق فرض حصار التعطيش والتجويع، فأمر بتحويل احدى فرعي نهر دجلة عن الموصل، وسد جميع الطرق الموصلة إلى المدينة، وتوجه هو إلى مهاجمة القرى المحيطة بالموصل، والتي لم تسلم من فتكه، وانزل جام غضبه على اليزيدية في سنجار وقتل كثيرا منهم، كما بعث بعض قواته إلى التون كوبري التي رفعت راية الاستسلام حال اقتراب القوات الايرانية منها، وبعد أن نهب نادر شاه القرى المحيطة وفتك باهلها، عاد إلى الموصل، ليجرب خطة عسكرية اخرى، هذه الخطة هي حفر انفاق ارضية تحت سور المدينة لنسفه بالبارود، وكانت الخطة المرسومة، أن يقوم بعض الجنود الايرانيين باعتلاء اسوار المدينة بواسطة الحبال، غير أن هذه الخطة قد فشلت بسبب عدم انفجار الالغام بسبب الرطوبة، إذ لم ينفجر من الالغام إلاَّ اثنان الحقا بالقوات الايرانية ضرر اكثر مما الحقا بالموصلين، وقد وقع الجنود الذين كانوا قد نزلوا إلى اسفل سور المدينة فريسة بيد اتباع حسين باشا الجليلي الذي امر بقتلهم جميعا.

بعد أن استنفذ نادر شاه كل الوسائل العسكرية من اجل السيطرة على الموصل، ادرك أن طلب الصلح خير له من البقاء في الموصل بعيدا عن مقر سلطنته خاصة وان اخبارا تناهت له بحدوث تمرد جديد في فارس وشيروان، فقرر فتح باب المفاوضات مع حسين باشا الجليلي الذي رفض أول الامر مقابلة وفد ايراني لخوفه أن يكون الامر خدعة عسكرية، ثم ارسل نادر شاه وفدا اخر برئاسة ملا باشي مفتي الجيوش الايرانية، واجتمع هذا مع حسين باشا مفتي الشافعية وقره مصطفى بك قاضي الموصل ووسط مظاهر الحفاوة والتكريم تم

الاتفاق على شروط غريبة للصلح، لا تزيد على طلب نادر شاه عدد من الخيول ومقدارا من الزيت، فقفل نادر شاه راجعا إلى بغداد في 15 تشرين الأول 1743م. لقد كان دفاع الجليليين عن الموصل وصمودهم امام نادر شاه، مدعاة إلى رفع منزلتهم لدى السلطان العثماني محمود الأول الذي كافأ حسين باشا الجليلي بتمليكه قرية (قره قوش) التي كانت من خواص آيالة شهرزور.

في الوقت الذي كانت الموصل تدافع عن كيانها اصدر نادر شاه اوامره إلى خواجة خان قائد القوات الايرانية، في الحويزة بالزحف على البصرة والسيطرة عليها، فبعث خواجة زادة برسالة إلى متسلم البصرة يطلب فيها تسليم المدينة، وقد رد متسلم البصرة بكل دقة على رسالة خواجة زادة، بانه من اتباع السلطان العثماني وخاضع لوالي بغداد احمد باشا، فكيف يمكنه تسليم المدينة له. في 28 اب 1743، قامت القوات الايرانية البلغ عددها اكثر من 12000 جندي باجتياز شط العرب على جسر من القوارب شيد لهذا الغرض، أو بوساطة السفن، وبعد اتمام عملية العبور الى الضفة الغربية من شط العرب، واصل تقدمه بمحاذاة النهر، فاستولى على قرية السبيليات الواقعة على ضفة شط العرب، على بعد 13كم من مدينة البصرة، حيث ارتكبت مذبحة رهيبة، قتل فيها الرجال، واسترق النساء والاطفال. ثم واصل تقدمه مجتازا الانهار والجداول العديدة التي تأخذ مياهها من شط العرب، حتى وصل الى قرية السراجي، على النهر المنسوب اليها، وهي قرية تبعد زهاء كيلومترين فقط، فاستولى عليها، وارتكب فيها مذبحة كما فعل مع سابقتها، وعاثت قوات الغزو في عدد من القرى في حين اضطرت قرى اخرى الى اعلان خضوعها للغزاة، خشية تعرضها لنفس المصير. ولم تنج الزبير وهي بلدة مهمة تقع على حافة البادية الى الجنوب من البصرة، من الغزو والتخريب. كانت القوات الايرانية قد بدأت بفرض حصارها على البصرة في 28 اب وقد اصدر المقيم البريطاني في البصرة مستر دوريل اوامره بمغادرة جميع السفن الانكليزية مياه شط العرب وعدم الاقتراب منها، بل وامر بأبعاد فرقته الصغيرة التي كان يملكها هو شخصيا، ولكن بحارة هذه الفرقة كانوا من العرب

فارغموا قائدها على أن يرجع بها إلى البصرة، لقد قام المتسلم بسجن المستر دوريل بسبب رفضه اعارة سفنه، في خيمة بالقرب من اسوار المدينة، وقد رضخ في دوريل، لإرادة المتسلم. وقد فشلت عدة هجمات شنتها القوات الايرانية في اثناء الحصار، فقد كانت هذه القوات تفتقر الى المدفعية الثقيلة، كما ان تسليحها كان بوجه عام تسليحا خفيفا، وقد احست القيادة الايرانية بهذا النقص، وكانت التقارير المرفوعة الى نادر شاه تطالب بتزويد الحملة بمدفعية ثقيلة العيار يمكن ان تلعب دورا حاسما في الحرب. وفي 27 تشرين الثاني وصلت الى مواقع القوات المهاجمة مدافع ثقيلة لاستخدامها في الحصار. ورغم عدم وجود معلومات عن عدد هذه المدافع ومدى فاعليتها فان بإمكان المرء ان يتصور اهميتها في تعزيز القوات الغازية، فقد قصفت المدينة قصفا شديدا اضر ببعض المنشآت، وقد استمر القصف ليل نهار، اصيبت فيه بعض المباني المهمة مثل القنصلية الفرنسية وخان الكرملين. ثم شددت القيادة الايرانية من ضغطها على القوات المدافعة فازداد قصف مدافعها، ثم قامت بهجوم اخر الا ان قوات البصرة نجحت مرة اخرى من صدها ودحرها، وسرعان ما اصدر نادر شاه اوامره إلى قائد الحملة بفك الحصار في 27 تشرين الثاني 1743م، يبدو أن انسحاب القوات الايرانية يرجع إلى اعتقاد نادر شاه انه لا جدوى من استمرار الحصار بعد أن اخفق في احتلال الموصل، والتي تشكل عقدة المواصلات بالنسبة للقوات العثمانية، واحتلالها يعني من الوجهة العسكرية سقوط بغداد والبصرة عسكريا، ومهما يكن من امر، فان نادر شاه بعد فشله في السيطرة على الموصل، رجع إلى اطراف بغداد التي خيم عليها الخوف والقلق، غير أن هذا الخوف سرعان ما تبدد بعد أن اعلن نادر شاه بعد زيارته لمرقد موسى الكاظم (ع) انه يرغب في عقد اجتماع بمدينة النجف الاشرف للتباحث في الامور التي اختلف عليها المسلمون، ويضع حدا للنزاع بين الطرفين العثماني - الايراني، وقد اختار فعلا كل من نادر شاه واحمد باشا عدد من العلماء للاجتماع في النجف، وبعد مناقشات طويلة بين علماء الطرفين، اصدروا ما يمكن أن نسميه بالبيان الختامي لمؤتمرهم، تضمن امورا تتعلق بالبحث على امور وحدة المسلمين

وضـرورة معاملة الاسـرى باللطف والاحسان وتعيين السفراء في كلتا الدولتين، وبعد انتهاء مؤتمر النجف عاد نادر شاه إلى بلاده لقمع التمرد الذي حدث ضده، وفي 14 ايلول 1746م، توصلت الدولتان العثمانية والايرانية إلى عقد معاهدة جديدة تضمنت الاعتراف بالحدود التي رسمت على اساس معاهدة زهاب 1639م، وتسهيل سفر الحجاج الايرانيين إلى بيت الله عن طريق بغداد الشام، وتبادل السفراء بين الدولتين، وعدم جواز بيع لأسرى وفسح المجال لعودة الراغبين منهم. وتنفيذا لبنود المعاهدة الجديدة تم تعيين احمد باشا كسريه لي سفيرا لدى ايران، وعين الشاه بدوره مصطفى خان سفيرا لها في اسطنبول. وحمل كل واحد من السفيرين، وهو متوجه الى مقر عمله الهدايا ونسخة مصدقة من المعاهدة، والتقيا في بغداد، ولكن السفير العثماني رجع الى بغداد بعد وصوله الى همدان لسماعه بمقتل نادر شاه الذي اغتيل في 20 حزيران عام 1747، اما السفير الايراني فمكث في بغداد ريثما ينجلي الموقف في بلاده.

لقد اصبح العراق بعد مقتل نادر شاه بمأمن من الخطر الايراني، لان ايران اصبحت مسرحا للفوضى والاضطرابات والصراع بين الطامعين على السلطة، ولم تحاول الدولة العثمانية التدخل في شؤونها الداخلية لأنها كانت تحاول القضاء على النفوذ المملوكي في بغداد بعد وفاة احمد باشا سنة 1747م، ولأنها ادركت أن تدخلها في الشؤون الداخلية لا يجدي نفعا، لاسيما وانها قد مرت بتجارب من هذا القبيل، عندما استغلت الغزو الافغاني لإيران حين امرت ولاة بغداد التدخل في شؤون ايران الداخلية، واحتلت بعض المدن المهمة، ثم اجبرت على التخلي عنها بسبب بروز شخصية نادر شاه وكانت تخشى لو تدخلت في شؤونها الداخلية أن يظهر مغامر مثل نادر شاه، عندئذ تتكبد خسائر فادحة، وتضطر إلى اخلاء المناطق التي سيطرت عليها، فضلا عن انشغال الدولة العثمانية في حروبها ومشاكلها الاوروبية لاسيما مع روسيا. ومن اجل ان تحافظ الدولة العثمانية على بنود المعاهدة التي ابرمتها مع نادر شاه عام 1746 فقد رفضت الاستجابة للسفير الايراني مصطفى خان الذي طلب مساعدتهم للوصول الى العرش الايراني.

ـ المصالح الاوربية في العراق:

لقد شهد القرن السابع عشر تزايد التنافس الاوربي حول العراق، وقد اندلع صراع محموم حوله بين البريطانيين والفرنسيين والهولندين، وسيقتصر الحديث الان على النفوذ الهولندي، مرجئين الكلام عن التنافس البريطاني-الفرنسي الى فصل لاحق.

كان القرن السابع عشر الميلادي بداية فعلية لظهور المصالح الهولندي في العراق، اذ كانت شركة الهند الشرقية الهولندية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد واحدة من اكثر القوى الغربية اهمية في الخليج العربي، كما كان لها بعض المصالح التجارية مع البصرة. لقد ظهرت اول سفينة هولندية في البصرة عام 1639 غير انها كانت سفينة مستأجرة من قبل شاه ايران، كما انها لم تقم ببعثة تجارية لشركة الهند الشرقية الهولندية، وظلت الحالة عدة سنوات الى ان بعث في نهاية الامر، مدير المنشآت أو المؤسسات التجارية الهولندية في الخليج العربي، ووليبراند جيلنسن دي يونغ عددا من السفن الى البصرة لاستقصاء الامكانيات التجارية، وقد سببت هذه البعثة الكبيرة نسبيا المؤلفة من ثلاث سفن نوعا من الهلع لدى لبريطانيين الذين كانوا حتى ذلك الوقت الوحيدين الذين يتاجرون في البصرة على مقياس محدود جدا. ولكن البعثة الهولندية انتهت بكارثة عندما دمرت النيران احدى السفن الهولندية، ففقدت على اثر ذلك جميع حمولتها، وبذلك فقد تردد الهولنديون لعدة سنوات في تكرار التجربة، وحتى حينما تكررت فإنها كانت بنسبة اصغر بكثير من الاولى. ومنذ عام 1651 فصاعدا كانت هناك حملات تجارية هولندية تجارية سنوية الى البصرة تحت اشراف ومسؤولية المدير في بندر عباس علما بان هناك بعض التوقفات أو المعوقات. وتمثل النشاط الرئيس للشركة في البصرة ببيع منتجات شرق وجنوب شرق اسيا من البهارات

والسكر والانسجة القطنية الهندية، والقصدير والاواني الخزفية الصينية، كما جلبت في بعض الاحيان المنتجات الاوربية الى البصرة وبالأخص الانسجة الصوفية الهولندية، وكانت ارباح مثل هذه الحملات التجارية السنوية محدودة نسبيا في العادة.

في تسعينيات القرن السابع عشر تدهورت تجارة البصرة حتى وصلت اخيرا الى مرحلة التوقف، ويرجع ذلك الى الحروب التي سادت المنطقة، وقد تراجع الهولنديون اخيرا عن البصرة عندما صار الموقف في المنطقة سيئا جدا بحيث صارت فيه التجارة امرا غير ممكن تماما. ومع ذلك ظل الهولنديون يترقبون امكانية العودة ثانية الى البصرة، وقد اعاد الهولنديون فتح مؤسساتهم التجارية في البصرة حالما ظهرت المناسبة لذلك في اوائل القرن الثامن عشر. ولكن كانت الارباح في البداية ضئيلة ويرجع ذلك الى تعكر صفو التجارة بشكل جدي نتيجة لاضطراب الاوضاع الداخلية، غير انها اخذت تتحسن ببطء، ومع ذلك فان هذا كان له اهمية كبيرة على اعتبار ان التجارة مع ايران قد تدهورت بشكل كبير ابان الفوضى السياسية المتنامية في ايران خلال السنوات الاخيرة لحكم الصفويين، وفيما بعد ابان فترة الحكم الاستبدادي لنادر شاه. وقد اسفر ذلك التدهور الى سيادة الفقر بين الايرانيين وبالتالي ضعف التجارة.

لقد حرص الهولنديون في البصرة على المحافظة على الحياد بين السلطات العثمانية في المدينة وبين القبائل العربية. وقد سببت هذه الحالة بين الحين والاخر مشاكل مع العثمانيين الذين كانوا يتهمون في بعض الاحيان الهولنديين بالتعاون مع الثوار العرب. وقد تزايدت اهمية التجارة الهولندية مع البصرة، وتمثلت تلك الاهمية بالنسبة للهولنديين من اجل احراز تحقيق كامل الامتيازات التي منحها السلطان للأوربيين منذ عام 1612 في البصرة. ولم يكن الحصول على ذلك بالأمر السهل وذلك لان متسلمي الجمارك سيحصلون على دخل اقل اذا ما دفع الهولنديون ٪3 بدلا من ٪5 غير انه بفضل الجهود التي بذلها السفير كورنيلس كالكوين في اسطنبول صار الوالي اخيرا راغبا في تطبيق جزء من الامتيازات فالضرائب انقصت الى ٪4، والواقع ان هذه لم تكن تشكل منفعة كبيرة، اذ انها ادت الى تدهور العلاقات مع السلطات العثمانية المحلية.

لقد واجه رخاء البصرة ومكانتها اضطرابا الى حد ما، فقد اعتمدت المدينة على ما يصل اليها سنويا من قوافل الزوارق المنحدرة اليها عن طريق انهار العراق، وكانت تلك السفن تحمل كميات كيرة من الذهب والفضة والاموال لابتياع البضائع التجارية في البصرة، وكانت هذه التجارة محمولة بأيدي التجار الارمن واليونان والجورجيين. وقد تضرر هؤلاء كثيرا من المطالبات بالدفع غير النظامية المفروضة عليهم من قبل العثمانيين اصحاب المناصب الرفيعة. وكان التجار العرب والايرانيين والاوربيون يبيعون منتجاتهم في البصرة، وكانت السلع المصدرة من البصرة لها منفعة محلية فقط.

كانت اثمان معظم السلع المستوردة تدفع نقدا، وفي بعض الاحيان يدفع اللؤلؤ مقابل اثمانها. ولقد ادى النزاع بين السلطات العثمانية والقبائل المحلية الى سد الطرق التجارية فتضرر لذلك التجار كثيرا وان لم يكونوا طرفا في هذا النزاع.

كانت اربعينيات القرن الثامن عشر واوائل الخمسينيات منها من الفترات التي ازدهرت فيها البصرة كثيرا، وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية الايرانية تتدهور، فان قسما من تجارتها كان يسلك الطريق البحري عن طريق الخليج العربي بينما كان طريق القوافل يسير عبر العراق، ومؤشرا الى تنامي اهمية البصرة، مقابل تدهور اهمية بندر عباس، فان المقيم الهولندي في البصرة صار مستقلا عن الدائرة في بندر عباس وصار المقيمون الهولنديون في البصرة مسؤولين بشكل مباشر للحاكم العام للهند الشرقية الهولندية. غير ان الهولنديين لم يكونوا محظوظين تماما هناك، اذ ان العلاقات مع الموظفين العثمانيين كانت دائما صعبة. ووقعت الازمة حينما قاوم المقيم الهولندي تيدو فردريك فان نبهاوزن عام 1753 المطالبات العثمانية الجديدة، وانتهت الازمة بغلق المقيمية الهولندية في البصرة. ومن الواضح ان رؤساء شركة الهند الشرقية لم يقصدوا ان تكون هذه الحالة نهائيا، اذ انهم عارضوا نبهاوزن عندما عرض مبنى الشركة الهولندية في البصرة للبيع. غير ان الشركة لم ترجع ابدا الى المدينة وان كانت هناك بعض المبادرات من جانب التجار المحليين أو من جانب الادارة العثمانية.

- قائمة المصادر

-ابراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، بلا.ت).

-ابراهيم خليل احمد وخليل علي مراد، ايران وتركيا: دراسة في التاريخ الحديث والمعاصر، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1992).

-احمد محمود علو السامرائي ومحمد حمزة حسين الدليمي، "الانكشارية ودورهم في الدولة العثمانية حتى سنة 1826"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، المجلد: 17، العدد: 44، لسنة: 2010.

-اوليا جلبي، "بغداد في رحلة اوليا جلبي 1645و 1652"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق وانيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 33، لسنة: 2012.

-باسم عبد الحميد حمودي، "في حصارات البصرة وصمودها"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-تحسين اونال، "استحضارات السلطان مراد الرابع للحملة على بغداد 1638"، ترجمة: صبحي ناظم توفيق، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة، بغداد، العدد: 34، لسنة: 2012.

-جميل موسى النجار، العلاقات العثمانية-القاجارية وانعكاسها على العراق 1823-1843، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2010).

-حسن الجاف، الوجيز في تاريخ ايران، (بغداد: منشورات بيت الحكمة، 2003)، ج3.

-حسين مؤنس، الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة: مطبعة الحجازي، 1938).

-حميد حمد السعدون، امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية 1546-1918، (عمان: دار وائل للنشر، 1999).

-ستيفن هيمسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، (بغداد: منشورات مكتبة اليقظة العربية، 1985).

-سعيد الديوه جي، "صمود البصرة امام غزو نادر شاه سنة 1156هـ"، مجلة المورد، المجلد: 15، العدد: 3، لسنة: 1986.

-سيار كوكب علي الجميل، تكوين العرب الحديث، (الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر، 1991).

-سير دي لوار، "العراق في رحلة سير دي لوار: القصة الحقيقية للحصار الاخير الذي فرضه السلطان مراد الرابع على بغداد 1638"، ترجمة وتعليق: خالد عبد اللطيف حسين، مجلة دراسات تاريخية، قسم الدراسات التاريخية في بيت الحكمة-بغداد، العدد: 32، لسنة: 2012.

-شاهين مكاريوس، تاريخ ايران، (القاهرة: دار الافاق العربية، 2003).

صالح محمد العابد وعلاء موسى كاظم نورس وعماد عبد السلام رؤوف، "العثمانيون يستعيدون حكم العراق"، بحث ضمن كتاب العراق في التاريخ، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1983).

-طارق نافع الحمداني، "صمود البصرة ومقاومتها للهجمات الفارسية المتكررة في العقد الثالث من القرن السابع عشر"، مجلة المؤرخ العربي، العدد: 25، لسنة: 1984.

عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2004)، ج5.

-عبد الجبار محمود السامرائي، "انماط من الحصار على العراق 1156هـ/ 1743م"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الاسلامية، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت).

-عبد الواحد ذنون طه، "حسن باشا مؤسس نظام المماليك في العراق"، مجلة المورد، المجلد: 3، العدد:3، لسنة: 1974.

-عزتلو يوسف بك اصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، (القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011).

-علاء موسى كاظم نورس، "حملة نادر شاه على بغداد"، مجلة المورد، المجلد: 8، العدد: 4، لسنة: 1980.

--علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني1638-1750، (الموصل: مطبعة اوفسيت الشعب، 1985).

__________، "تكريت في العهد العثماني 1518-1733 بين الحصار والمقاومة"، مجلة المورد، المجلد: 23، العدد: 2، لسنة: 1995.

-علي شعلب، بطرس الاكبر قيصر روسيا، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1992).

-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، (بيروت: دار راشد، 2005)، ج1.

-فيصل شيخ الارض، نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون للمؤلف مرادجه دوسون سفير دولة اسوج في الاستانة المتوفى سنة 1807، (رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية، 1942).

-كمال مظهر احمد، دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر"، (بغداد: الامانة العامة للثقافة والشباب، 1985).

-محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في ايران، (بيروت: دار النفائس، 2012).

-محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: احسان حقي، (بيروت: دار النفائس، 1981).

-مصطفى عبد القادر النجار، "البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي 1546-1869"، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد: 3، لسنة: 1986.

-نادية محمود مصطفى، العصر العثماني من القوة والهيمنة الى بداية المسألة الشرقية، (القاهرة: المعهد العالي للفكر الاسلامي، 1996).

-نظمي زاده مرتضى افندي، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم نورس، (النجف: مطبعة الاداب، 1971).

-ياسين خير الله العمري الخطيب الموصلي، غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام، قدم له واعتنى به: سامي عبد الله باشعالم العمري، (القاهرة: شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع، 2006).

-يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: محمود سلمان، مراجعة: محمود الانصاري، (اسطنبول: مؤسسة فيصل للتمويل، 1988)، ج1.

-Baki Tezcan, The Second Ottoman Empire: Political and Social,(Cambridge,2010).

-C. E. Bosworth and Others(Editor), The Encyclopedia Of Islam: New Edition, (Leiden,1980),Vol:5.

-Douglas A. Howard, The History Of Turkey,(New York,2001).

-Hans Joachhim kissling, "The ottoman Empire to 1774, In: The Last great Muslim Empires,(Leiden,1969).

-Ian Richard Netton(Editor), Encyclopedia Of Islamic civilization and Religion,(New York,2008).

-M. A. cook,(Editor), A History Of ottoman Empire to 1730,(Cambridge,1976).

-Peter Avery, "Nādir Shāh and The Afṣharid", In: The Cambridge History Of Iran, (Cambridge,1991), Vol:7,PP.3-61.

إن دراسة تاريخ العراق الحديث ليست من المسائل المهمة فحسب، بل ضرورية من أجل إدراك الجذور التاريخية للعراق المعاصر، فتاريخ العراق الحديث الذي يغطي مدة ليست بالقصيرة قد استمرت لمدة ثماني قرون، شهدت تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية هامة.

كان سقوط الخلافة العباسية عام 1258، قد فتح الباب أمام تعرض العراق لأقوام غازية بدء من الغزو المغولي، تلك الغزوات التي اصطبغت بطابع قبلي رعوي، الأمر الذي أثر سلبًا على تاريخ العراق العريق.

لقد سمح الضعف الذي تعاني منه الدولة العثمانية، للدول الأوروبية لمحاولة ترسيخ نفوذها في العراق، وكانت الامتيازات التي منحت لها من قبل الدول العثمانية حجر الأساس في هذا النفوذ، ومن ثم ازدياد مصالح الدول الأوروبية الاقتصادية في العراق لموقعه على رأس الخليج العربي من جهة، ولأنه يشكل عقدة في طريق المواصلات إلى الهند من جهة أخرى، كل ذلك جعل الأوربيون يتنافسون بشدة لمدّ نفوذهم عليه.

مع بدء الحرب العالمية الأولى عملت الدول الأوروبية إلى جر الدولة العثمانية لتلك الحرب ورغم سوء الإدارة العثمانية في العراق إلّا أن العراقيين وقفوا بجانب الدولة العثمانية في الحرب، وكانت الأخيرة قد استغلت العاطفة الدينية، فأعلنت الجهاد ضد المحتلين.

لم يكن هذا المؤلَّف هو الأول من نوعه فقد سبقه العديد من المؤلفات التي كتبها أساتذة أكفاء، تناولت مؤلفاتهم جوانب عديدة من تاريخ العراق الحديث، ولكن هذا المؤلَّف جاء وسطًا بين المؤلفات الضخمة وقد اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي، كما لم تعتمد على أسلوب وضع الهوامش، نظرًا لاتساع الحقبة الزمنية التي يغطيها المؤلَّف، ولعدم الرغبة في اثقال القارئ بمعلومات تفصيلية عن المصادر التي وضعت في نهاية كل فصل، فضلًا عن قائمة موحدة للمصادر في نهاية المؤلَّف.



تصميم الغلاف: محمد ع. ابراهيم